مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الفيزيائي المجمعي

الأستاذ الدكتور عبدُ الله واثق شهيدَ

أمين مجمع اللغة العربية بدمشق

سيرته بقلمه

١٣٤٦- ١٤٣٦هـ

١٩٢٧- ٢٠١٥م

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الأستاذ الدكتور عبدُ الله واثق شهيد

أمين مجمع اللغة العربية بدمشق

مجمع اللغة العربية بدمشق

كل الحقوق
محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الأستاذ الدكتور عبدُ الله واثق شهيد

أمين مجمع اللغة العربية بدمشق

سيرته بقلمه

١٣٤٦- ١٤٣٦هـ

١٩٢٧- ٢٠١٥م

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور عبد اللّه واثق شهيد

١٣٤٦ - ١٤٣٦ هـ/ ١٩٢٧ - ٢٠١٥ م

فهرس المحتوى

مع سيرة الدكتور عبد الله واثق شهيد ٩
البيئة التي نشأت فيها ١٥
الأهل ٤٣
المرحلة الأولى من العمر ٦١
في الجامعة طالبًا ١٠٢
في كلية العلوم معيدًا ١٣٢
في كلية العلوم مدرسًا ١٥٩
في المناصب العلمية العليا ١٩٢
أسس إنشاء المركز والعمل فيه ٢٢٦
التصنيع ٢٣٥
المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا ٢٣٩
المدرسة العربية للعلوم والتكنولوجيا ٢٦٤
المركز: مدينة المعرفة المتجددة ٢٧٣
المجالس العلمية للاتحاد الثلاثي ٢٧٨
استراتيجية تطوير العلوم ٢٨٢
ذكريات ٢٨٥
في مجمع اللغة العربية ٢٩٥
صور ٣٠١

مع سيرة الأستاذ الدكتور عبد اللّه واثق شهيد

د. مازن المبارك

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

رَحِمَ اللهُ العالمَ المجمعيَّ، الدكتور عبد الله واثق شهيد، فقد كتب سيرته بنفسه، فكانت صورةً ما قرأتُ أصدقَ منها في الحديث عن صاحبها في جميع مراحل حياته، وفي جميع صفاته؛ لم يضع نفسه فوق ما كانت عليه، ولا فوق ما كان يراها، ولم يترك فيها ما عُرف عنه من صدقٍ في الحديث، ووفاءٍ في الخلُق، وصراحةٍ في القول، وأناةٍ في الدرس، وأدبٍ في العرض، وسدادٍ في الرأي، وحسم في الأمر، وحزم في الحُكْم. لقد كانت كلها الصفات التي عرفتها فيه وعرفتُه متَّصفًا بها.

لقد عرفتُه رحمه الله في أول عهدي بالتدريس الجامعي، جمعتنا لجنةٌ تمثِّل الهيئة التدريسية الجامعية لوضع مذكِّرة عما يُصلح أوضاعها وعمَّا نحتاج إليه، ثم عرفته زميلاً معارًا إلى جامعة الرياض، وصحبته عن قُرب واستمرَّت صلتنا بعد انقضاء الإعارة حين كنتُ أستاذًا في الجامعة وكان عميدًا لكلية العلوم فرئيسًا للجامعة ووزيرًا للتعليم العالي، ثم لقيتُه في مجمع اللغة العربية، وكنتُ عضوًا في لجنةٍ رأَسَها واستمرَّ العمل فيها سنوات ليس فيها سوى اثنين هما رئيسها الدكتور شهيد وكنتُ معه فيها عضوها الوحيد. ولقد عرفتُ عنه أكثر مما كنتُ أعرف، فهو من الرجال الذين كلما ازددت قربًا منه ازددت إعجابًا به، وحبًّا له، وتقديرًا لسلوكه وأخلاقه.

ويبدو لقارئ هذه السيرة أن صاحبها لم يكن يسجِّل أحداثها في أزمان وقوعها، وإنما انصرف إلى كتابتها في أواخر أحداثها وأزمانها، وأنها حديثُ ذكريات بقيت حيَّةً في نفس صاحبها، وتأريخٌ لسنوات تتابعت أحداثها وتلاحقت مراحل حياته فيها فكانت جزءًا عزيزًا من حياته الشخصية وحياة بيئته التي عشقها ووطنه الذي أحبَّه وأخلص له. يدلّ على ذلك قوله حينًا: "ويبدو مما تبقَّى في ذاكرتي عن مرحلة الطفولة..."، وقوله حينًا آخر: "وهو أهمّ ما بقي في ذاكرتي...".

على أن ما بقي في ذاكرته يدلّ على أمورٍ كثيرة؛ منها: أن ذاكرتَه ذهبيةٌ قويةٌ حافظة، ومنها: أنه أحبَّ حياته وبيئته وأهلها، فكان صادق الودّ لها، وفيًّا لذكراها؛ واسمعه حين يتحدَّث عن بيئته يصوِّرها ويفصِّل الكلام على جغرافيتها، وأرضها وسمائها، وإنسانها وحياته فيها. إنها شهادة شاهد على العصر الذي عاش فيه، واختزن في ذاكرته الوفية أدقَّ التفاصيل والجزئيات عن (حارم) وبيئتها وبيوتها وطرقاتها وكل ما يتَّصل بها وبالحياة فيها.

وتطلُّ علينا في أحاديث الدكتور شهيد لفتاتٌ تصوِّر عُمق شعوره الإنسانيّ النبيل، كما في حديثه عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وعن الفقراء وأساليب عيشهم وارتزاقهم. وكما في حديثه عن أبويه وأهله، وعن أمِّه وعاداتها ووداعها، وحديثه عن تناوله الغداء مع الطلاب مرَّة، ومع العمَّال مرَّةً أخرى في المركز الوطني للبحث العلمي، بل في حديثه عن (أبي محمد) الذي كان يُعِدّ الشاي والقهوة للأساتذة، وزيارته له في بيته بعد أن أصبح أبو محمد متقاعدًا! واستقباله لامرأةٍ قرويةٍ أُبعدت عن مكتبه، وآخر أُبعد لزرايته فاستقبلهما وهو وزير في مكتبه واستمع إليهما... ولم يكن ممن صرفهم الله عن آياته لاستكبارهم في الأرض بغير الحق...

ولكنه كان كما قال: "إن الله قد أودع الإنسان قبسًا من نوره يهديه إلى الحقيقة، وهو قبس من الحبّ ينفع في كلِّ موطن".

لن أستطيع أن أتابع الدكتور شهيد وهو يسرد سيرته، بل يصوِّر الحياة التي عاشها، بل يلقي ضوءًا على تاريخ وطنه (سورية) وما مرَّت به من أحداث وطنية وثقافية وعلمية وتعليمية... إنها صورةٌ لكل ذلك من منظور إنسانيّ صادق صافٍ نبت في (دارة عزَّة) ونشأ في (حارم) وتعلَّم في حلب ثم في دمشق... وتنقَّل من موظفٍ ومعيدٍ في الجامعة إلى مدرِّس فأستاذ فعميد فمدير للجامعة فنائب ووزير للتعليم العالي... فكانت له في كلِّ مرحلةٍ من مراحل حياته شخصيته الثابتة ونظرته الثاقبة وآراؤه الواضحة.

وهو الذي رأى أن دخوله كلية العلوم بالجامعة قد حقَّق أمنيته ووضعه على عتبات بيت الحكمة، وهو الذي خاض كثيرًا من التجارب، وعرف كثيرًا من الرجال، ومارس كثيرًا من الأعمال، وتبوَّأ كثيرًا من المناصب، وكان يقول إنه ما دخل معهدًا أو مخبرًا أو كلية إلا أفاد منها، وأنه ما رأى في الغرب شيئًا مفيدًا إلا حفظه ليطبِّق ما يناسب منه في الوطن... إنه أحبَّ العلم والمعرفة وآفاقهما؛ قال: "أحبُّ التعليم لأنني أشعر بالحرية في آفاقه الرحبة، حرية الفكر وحرية الكلمة في آفاق المادة العلمية التي أجوب سهولها الخصبة وسهوب فلواتها وأغوص في أعماقها، ومهما أمعنت في الغوص لا أُدرك للفكر حدودًا، لأن حدود المعرفة لا تحدّ حرِّية الفكر، بل تحثّ المعرفةُ الفكرَ على التوسُّع؛ حدودُها هي دعوة للتحدِّي، دعوة للبحث عن الحقيقة في الأعماق فيما وراء تلك الحدود، إنها تحدٍّ لدفع حدود المعرفة وتوسيع آفاقها.

وقد غرق في عمله التخصُّصي العلمي غرقًا أبعده عن الغرق في السياسة وتبعاتها التي حمى نفسه منها طوال حياته.

ولقد ظهرت كفاءته العلمية والإدارية معًا حين تولَّى المناصب التي تجلَّى فيها فكره وعلمه ودقَّته وتنظيمه، كما في رئاسته لمركز الدراسات والبحوث العلمية، وفي تولِّيه وزارة التعليم العالي، وعمله أمينًا لمجمع اللغة العربية. كما ظهرت براعته في وضعه وتعديله لكثير من القوانين حين تولّى تلك المناصب.

وظهر صدقه في عمله وولاؤه لأمته ووطنه حين عرف العلوم الحديثة والتقنيات المعاصرة، واطَّلع على أساليب العمل العلمي في الغرب... فراح يقتبس منها ما يناسب مجتمعه ووطنه، وبقي في كل ما عمله أصيلًا وفيًّا لأمته وتراثها ولغتها وقيمها.

كان اسمه منطبقًا على مسمَّاه؛ فقد كان - رحمه الله - واثقًا من عمله ورسالته وصدق توجُّهه، حازمًا في قراراته، أمينًا على كلّ ما ائتُمن عليه. لقد هيَّأ الله للدكتور واثق أن يكون إنسانًا قادرًا على أن يستوعب كلَّ مرحلةٍ من مراحل حياته، منذ كان طفلًا إلى أن غدا كهلًا، وأن يخرج منها بأحسن ما كان فيها من عِظات وعِبر وتجارب.

وبذلك انتهى إلى أن عرفنا فيه إنسانًا قلَّ نظيره في هذه الأيام بما وعى قلبه من إيمان وما امتلأت به نفسه من مشاعر إنسانية رقيقة، وبما تعلَّق به فكره من علم وسَعة ورحابة في آفاقه، وما اتَّصف به سلوكه من استقامة وأمانة.

وإن الذي يقرأ سيرة الدكتور شهيد، متنقِّلًا معه فيها من مرحلة إلى مرحلة ويستمع فيها إلى آرائه وأحكامه وتعليقاته يخرج منها بصورة صادقة عن رجل كان جديرًا بتلك الهالة التي أحاطت اسمه كلما ذكر بالتقدير والإعجاب والاحترام.

وإن الذين زاملوه ورافقوه وعملوا معه قامت له في أنفسهم صورة لا تُمحى عن رجلٍ جمع بين العلم العميق في الاختصاص، والعلم العملي في الإدارة المُحْكمة، ولم يكن علمه علمًا نظريًّا للعرض والكلام والتنظير، بل كان العلم الذي لا يُقصد إلا لتطبيقه فيما وُجد من أجله والاستفادة منه وتسخيره لخدمة أمته ووطنه.

رحم الله الدكتور عبد الله واثق شهيد، العالم الواعي النشيط، والمفكِّر المبدع، فما حضر جلسةً إلا وكان له في موضوع بحثها رأي جديد مفيد. وما رأى مناسبة يستطيع فيها أن يشجِّع الشبَّان والنابغين من طلابه إلا اغتنمها ليدفع بهم إليها ويوجههم نحو مستقبلهم بحكمة وصدق، وما عرف كلمة وفاء إلا قالها في مناسبتها موجَّهةً إلى مَن يستحقّها من أفراد أسرته أو أصدقائه أو أحد رجال وطنه. ورحمه الله ما كان أعلى همَّته وأقواها، وما كان أشدّ صبره حين تقدَّم به العمر وأدركتْه سنوات العجز، وأصابت من حركته ولسانه، فكان لا ينقطع عن الجلسات، ويحضرها مستعينًا بعكازه وبمرافقه، وغيرُه يعتذر متعلِّلًا لغيابه بما هو أقلّ من ذلك بكثير!!

وكأني بسيرته المكتوبة أبتْ إلا أن تكون صادقة كلَّ الصدق في تصويرها لسيرته وحياته التي عاشها؛ فكانت نهايتها مفاجئة لقارئها، إذ هي مبتورةٌ بلا نهاية ولا خاتمة، ولا ما يشبه الخاتمة! إنها صورة تحكي انتهاء حياة صاحبها - رحمه الله - الذي حلَّ به العجز فجأة، فمنعه من متابعة الكلام، وحرمه من أن يمسك القلم... فكانت النهايتان متشابهتين، ليكتمل بذلك صدقه في كلِّ ما يرويه أو يفعله.

رحم الله الدكتور عبد الله واثق شهيد، وأثابه كفاء ما قدَّم في حياته من علم نافع وعمل مثمر.

البيئةُ التي نشأتُ فيها

للبيئة التي نشأتُ فيها مظاهرُ عدّة؛ فهي مجموع البيئات الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. إلا أن البيئة الثقافية كانت في أيام طفولتي ضعيفة التأثير في قُرانا. نقف على بعض ما يذكِّر بها في ثنايا عرض البيئات الأخرى. أما البيئة الاجتماعية فهي أوسعها جميعًا وأقواها تأثيرًا، مما يجعلها ترد في عرض جميع مظاهر البيئة العامة: الطبيعية والاقتصادية والثقافية. ولا بد لاستكمال صورتها من عرض أهم العادات الاجتماعية في القرية والتي يمكن جمعها في عادات مجتمعها في الأعياد والأعراس والاحتفالات والألعاب أو اللهو. وهذا ما جعلني أختتم الحديث عن البيئة التي نشأت فيها في كلٍّ من دارة عزة وحارم بالكتابة عن العادات الاجتماعية تلك في البلدتين.

١. دارة عَزَّة حتى أواخر العقد الثاني من العمر ١٩٢٧-١٩٤٥

وُلدتُ في حارم إلا أنني قضيت في دارة عَزَّة شطرًا أكبر من الحياة مع الأهل، ففيها كان يجتمع الشمل. تقع دارة عزة على اللِّحْف الشرقي لجبل سمعان. ويُطلّ الجبل على سهول العمق من الشرق، وهو أعلى الجبال المطلة عليها من الجنوب ومن الشرق. ودارة عزّة قديمة ورد ذكرها في أشعار الصنوبري الذي عاش في القرن الرابع الهجري في حلب، إذ قال يخاطب صديقًا له:

يـــا أبـــا القاســـم زا   د الله في عـــزّك عـــزّا
بك عزّ النرجس المضـ   ـــعف في دارة عـــزّا

ولا يزال لنرجسها المضعف الصدارة في البيوت الحلبية، وأخذت دمشق ترحب به منذ عدة عقود. إنها عربية الاسم، وأسماء غالبية القريّات التي حولها عربية أيضًا، منها:

فدرة ورفادة والمشهد والرحاب والمشبّك ودير سمعان الشهير. ويتميز سكانها جميعًا بلهجة شديدة الإمالة تختلف كثيرًا عن لهجة جيرانها أو لهجاتهم المتقاربة.

تقع دارة عَزَّة في الوشاح الممتد على صدر سورية غربًا من شمال قلعة سمعان إلى جنوب أفاميا، والمرصّع بما سُمّي المدن الميّتة اليونانية الرومانية البيزنطية. كانت مركز قضاء (منطقة) جبل سمعان، فيها قائمقام (مدير منطقة) يتبع والي حلب، ولا يزال مركزه فيها معروفًا يميزه الحجر الصقيل الذي رصفت به أرض دار المركز.

هواؤها عليل نقي، ساعدت على صفائه وطيبه أشجارُ السنديان والبُطْم التي تشتد كثافتها في الشمال الغربي منها فتصبح غابةً وسميت هناك "الغابة". وقد غرس السكان فيما استُصلح من الأرض بين أشجار السنديان والبُطْم تينًا وزيتونًا وكرمةً. مياهها قليلة تُجمع من الأمطار في صهاريج صخرية.

إنها كأغلب قرى سورية في تلك الأيام (النصف الأول من القرن العشرين)، إذا لم تكن القرية على نهرٍ أو عينٍ جاريةٍ، فإنها تعمد إلى جمع الأمطار في صهاريج "خسفٍ" صخرية في القرية وفي كرومها أيضًا، ويستفاد من مياه صهاريج الكروم للشرب في مواسم التين والزيتون، وفي أيام الشدة وشحّ الأمطار للغُسل والغسيل في معظم أيام السنة الدافئة.

ولا أزال أذكر أيام "الوريد" في سنوات شحّ الأمطار، التي كان يذهب في أثنائها كثير من الناس جماعاتٍ لنقل ما يحتاجون إليه من الماء على دوابّهم من عينٍ تبعد عن القرية زهاء خمسة عشر كيلومترًا.

كما لا أزال أذكر ذلك الرجل التقاني (التكنولوجي) البارع الذي أتقن في قبّته المتواضعة وبتقانته الخاصة تقليد صناعة الحلوى التي تباع في حلب: ديكةً صغيرةً من الحلوى ومعيَّناتٍ منها بألوانٍ زاهية مختلفةٍ، مصنوعةٍ جميعها بمياه صهريج "جبٍّ" تملؤه الأمطار التي تغسل الطريق الترابيّ إليه من روث الحيوانات ثم تنحدر لتملأ

صهريج ذلك التقانيّ البارع الذي يرى أن غليان الماء في أثناء طبخ الحلوى يجعل ماء الصهريج سائغًا ويخلّصه من كل مضرٍّ فيه.

هذا التقاني البارع كان أيضًا عذب الصوت، يرتل القرآن في قبّته مع الفجر وفي رمضان والأعياد، ويسمعه المارة في طريقهم إلى الجامع والبازار، ويقرأ فيها على الناس تغريبة بني هلال وسيرة عنترة... بصوتٍ جميلٍ ولحنٍ يصلح أن ترافقه ربابة. إنه قطب الثقافة في القرية لا ينازعه فيها الحلاقون.

والبارع جارنا في الدار القديمة، وله ولد أسمر من جيلي، كنت كلما دخلت قبّته يحرّض ابنه هذا على مصارعتي فيغلبني ويطرحني أرضًا، إلا أنني اكتسبت بعض الخبرة التي أطالت شوط المصارعة دون تمكّني من التغلّب عليه.

وآخر مرّة طال الشوط كثيرًا ولم يتمكن من التغلّب عليّ فقام والده البارع وفصل بيننا وأنهى الشوط، وخرجت من القبّة إلى دارنا الجديدة فلاحقني يرجمني بالحجارة يستحثني على رجمه أيضًا، فالتفتُّ فأصابني حجرٌ فَدَغ الجمجمة في أعلى جبهتي من اليسار، ولا يزال أثره بيّنًا إلى اليوم، وقد عالجت أمي الفدغ على طريقتها الناجحة.

تقع قبّة البارع جنوبي دارنا، يفصلها عنها الطريق إلى البازار. وفي زاويةٍ غرب الدار إلى الشمال تقع (معصرة جبران) في مغارةٍ متطاولةٍ ممتدةٍ بانحدار إلى الشمال. ما إن يبدأ موسم عصر الزيتون حتى يُرى الأطفال كالنحل، كلٌّ منهم يدخل المعصرة المعتمة متأبّطًا رغيفًا من الخبز، ويخرج به وقد غمر بالزيت ويتضاحك الأطفال فرحين على منظرهم وهم ينضحون زيتًا، فإذا ما انتهى الموسم أغلق باب المعصرة فيبتعد الأولاد عنه خوفًا مما يشاع قصدًا أن المعصرة مسكونة بعروسٍ من الجن.

هذا ما لا أزال أذكره مما انطبع في ذاكرتي في أوائل الثلاثينيات. ولقد تغير المشهد في أواخرها وفي الأربعينيات، فقد أصبح البرد أشد في الشتاء والثلج غزيرًا.

وكم كانت توقظنا أمي في الليل، إذا ما هاجم الضبع الدار - وكانت متطرفة - برشقها بكتل من الثلج المليئة بالحجارة التي يصيب بعضها الباب، قائلةً إن الضبع يهاجم القرية لأنه جائع. وعندما ننهض صباحًا نرى مواقع قوائمه المغروسة في طبقات الثلج المتراكمة، وهذا المشهد كثيرًا ما كان يتكرر في شتاءٍ واحد.

كنا نستيقظ أحيانًا في الصباح مع الفجر على أصوات النساء التي نستشعر فيها الخوف والاستنجاد في هدير شديد تهتزّ منه الأرض تحتنا وتهلع منه القلوب، وتتكرر في تلك الأصوات وذلك الصراخ كلمة "المدّ" وفهمنا من أُمنا أن (وادي عبده) قد فاض بمياه الأمطار في الليل، وأن مستوى الماء فيه لا يزال يعلو ويهدد كثيرًا من البيوت إذا ما غمرها وداهمها، إذ يذهب بكل ما فيها من مؤونة وأثاث وحيوانات وبشر، وهذا هو "المدّ" الكلمة التي تتردد كثيرًا في الصراخ، إنه السيل.

كما قلت قبل قليل، لا أعتقد أن تغيرًا كبيرًا طرأ على الطقس، ولكنّ الذي طرأ هو موقع الدار والسّن. فقد كنت في دارنا القديمة في وسط القرية وكانت سنّي لا تسمح لي بالخروج من البيت في الشتاء وإذا خرجت في يومٍ مشمسٍ في الشتاء فإلى بيت عمي الملاصق لبيتنا أو إلى قبّة جارنا البارع، فلا أرى ضبعًا ولا أسمع هدير مدٍّ.

كانت بيوت القرية (وقد تكون أكثر قرانا في تلك الأيام) متلاصقة، يمكن الانتقال من على أسطحها من بيتٍ في أول الحارة إلى بيتٍ بعيدٍ عنه. إنّ طلب الأمان والطمأنينة هو الذي ألجأ السكان إلى هذا الحل الذي يصبح فيه ظهر البيت محميًّا بجعله ملاصقًا لظهر بيت آخر أو لبعض جوانبه. وكثيرًا ما نجد فتحةً صغيرة "طاقة"، في أسفل الجدار المشترك، تتيح لكلٍّ من البيتَيْن في حالات الحصار الاستعانة بالبيت الآخر لإسعافه بالطعام والماء، وفي حالاتٍ بالسلاح، وأبعاد الطاقة لا تسمح بمرور الأشخاص. وكانت بعض الأسر تعيش مع حيواناتها في غرفة واحدة.

يصل القرية بحلب طريق ترابي لم يكن في الثلاثينيات مُعبَّدًا، وكان هو منفذ السيارات الوحيد إليها، يمتد من حلب متجهًا غربًا إلى دارة عَزَّة، ومنها إلى قلعة سمعان، وقلّما كانت تسلكه السيارات، حتى القوية منها، ويختلط كثيرًا بالطريق الذي كان يسلكه المشاة ودوابهم، ودرجت تسميته (الطريق الشرقي)، لأنه يدخل القرية من الجنوب الشرقي. ثم اتصلت في أواخر الثلاثينيات بطريق ترابي عُبِّد لتسلكه السيارات في غير فصل الأمطار يمتد من دارة عزة إلى ترمانين فالدانا، ثم منها في خطٍّ مستقيمٍ عموديٍّ على طريق حلب أنطاكية في نقطة التقائهما.

لقد أصبح بالإمكان استخدام السيارات في معظم أيام السنة. ولكن أصبح طول الطريق ستين كيلومترًا عوضًا عن ثلاثين، ودرجت تسمية هذا الطريق (الطريق الغربي)، لأنه يدخل القرية من الجنوب الغربي. ودخلت السيارة في خدمة القرية، إذ تألفت عدة مجموعات من الشركاء واشترت كلُّ مجموعة سيارة نقلٍ استخدمت في خطٍّ وحيدٍ ما بين دارة عزة وحلب في غير فصل الشتاء. عُبِّد هذا الطريق في أوائل الأربعينيات وامتد معبدًا إلى مدينة عفرين مارًّا بدير سمعان الملاصق لقلعة سمعان، وقد أمْلَت تعبيدَه ضروراتُ الحرب العالمية الثانية.

واتصلت دارة عزة بمدينة عفرين بخط نقلٍ جديد ثانٍ، ظهرت فيه بعض مظاهر اضطراب الأمن؛ فقد تعرضت سيارات القرية على هذا الخط - وهي الوحيدة عليه - لعصابات سطت مرارًا على ما في جيوب الركاب من النقود... ثم امتد السطو إلى خط دارة عزة حلب وفي مواقع لا تبعد عن القرية أكثر من ثلاثة أو أربعة كيلومترات. ولم يستتبّ الأمن على الخطين إلا في أوائل النصف الثاني من القرن الماضي.

أما الطريق الشرقي فلم يعبَّد إلا في أوائل السبعينيات وساهم بعد تعبيده، كثيرًا في تحسين الأحوال الاقتصادية لدارة عزة وما حولها. وقد أُنشئ في أوائل هذا القرن طريق معبَّد يصل دارة عزة بقمة جبل سمعان؛ أي بالشيخ بركات.

كانت دارة عزّة في تلك الأيام قريةً فقيرةً. ككثير من قرانا، فكم مرّ بِذُور قريتنا في أيام الربيع والصيف، أيام المواسم الخيّرة من يبحث عمّا يهدِّئ ثورة جوعه، وقد وضع على رأسه قبعًا ينتهي بذنب ثعلبٍ أو غيره، يرقص ويغني فيتطاير الذنب في الهواء فوق رأسه فيسرّ الناظرين ويضحك الأولاد ويستعطف الجموع، وكم طلب هو وأمثاله في أغنياتهم طعامًا وشكوا جوعهم. وكم مرّ بنا من يشتري الزجاج المهشم ليعود به إلى أرمناز، إلى الزجّاجين ليصنعوا منه الأوعية الزجاجية للناس، إنها حرفتهم القديمة، بكم يشتري الزجاج المهشم، وكم يكسب هذا الرجل الصابر، الذي جاء على حماره الضئيل العليل من أرمناز، وهي على بعد نحو ستين كيلومترًا من دارة عزة، هل يسدّ رمقه من الخبز بما يكسب؟ أليس هذا هو الفقر! أليس من يجوب القرى ليشتري بذور المشمش ثم يبيعها ليكسب ما يردّه على عياله، أليس هذا في فقرٍ مدقعٍ، أليست هذه وتلك تجارة الفقراء؟

كان من مظاهر فقر قريتنا أن كثيرًا من أصحاب الكروم ينتقلون إلى كرومهم في موسم التين، ينامون فيها ويطبخون ويغسلون ثيابهم ويغتسلون ويحرسون الثمار من العبث بها لأنها زادهم الأساسي في الموسم على الأقل، وتنشأ صداقات بين الجيران في الكروم ولاسيما بين الأولاد.

ومن مظاهر الفقر والتعاون فيه، أن الأمهات كنّ يرسلن أبناءهن في حارتنا إلى امرأة عجوز ليس لها معيل لمداواة "العطّاشة" في الوجه، ومع المريض قرص جلّةٍ من روث البقر يعطيه للعجوز لتستخدمه بحرقه للطبخ والتدفئة لقاء مداواتها العطّاشة، وكان الدواء أن تبلّ أصبعها بريقها وتمسح العطاشة بها فتختفي في الصباح عندما يستيقظ المريض من النوم ويبرأ (وقد يكون تفسير هذه الظاهرة أن المرض والبرء منه نفسي). وقد تلجأ سيدة للترحيب بمن يخبز على تنّورها وتساعده فتخبز معه، لأنها ستتلقى منه دون أن تطلب بضع أرغفة تسدّ بها بعض حاجة يومها.

ويسمى سوق القرية البازار لغلبة هذه التسمية عليه، لأن أهميته تقتصر على البازار الذي يقوم فيه يوم الجمعة، وهو يعبّر عن مستوى الرفاه والفقر في القرية. إنه في أغلب أيام الأسبوع خاوٍ، وفي يوم الجمعة يذبح اللحّامون بعض الخراف وتطرح في القرية بعضُ قرى الأكراد من منطقة عفرين خضارها وفواكهها، لأن دارة عزة أقرب إلى تلك القرى من مدينة عفرين ومن حلب التي كانت الطرق إليها غير معبدة. ويتسابق الميسورون على شراء حاجاتهم من اللحوم والخضار والفواكه، ويتفاخرون فيما بينهم بما سيهيِّئون من المآكل.

أما عامة الناس فينتظر بعضهم إلى ما بعد العصر لعل اللحّام يُخفِّض الأسعار على ما تبقى لديه من لحم ليس فيه خير، فيشتري عظامًا عليها بقايا لحم. وأما أكثرهم فيكتفون بشم روائح الطيبات التي تنبعث من مداخن بعض البيوت وبما يطبخ من البرغل والعدس والحمّص مع بعض الرخيص من خضار الفصل من السنة.

ويقتات الناس في القرية عامةً، كغيرهم من أبناء القرى والأرياف، بما تنبت الأرض في أوائل فصل الشتاء من نباتٍ يؤكل، إلا أنهم خُصّوا ببعض النباتات كـ "اللّوف والجعدة" فطبخوا منها طعامًا في أيام الشدّة والفقر، واللذين لم يبق لهما اليوم أكثر من ذكرى بعيدة تكاد تنسى.

أما "الحمّيض" (الحماض) الذي ينبت في الأراضي الوعرة، فقد احتل موقعه بين أصناف الطعام في القرى المجاورة حتى دخل حلب، ويصنعون منه سلطات مع البصل والزيت وبعض التوابل، كما يصنعون منه فطائر مختلفة.

والحمّيض معروف في أوربّة ويدخل في فرنسا في صنع أنواع من الحساء، ويزرع هناك ويسقى فتصبح حموضته ألطف. أما "الكشك" فيصنع من البرغل واللبن الرائب، وقد تبيّن لي أنه معروف في سورية الجنوبية، وقد يختلف صنعه هناك قليلًا، كما قد يختلف تنوع طبخه وغناه كثيرًا أو قليلًا.

ولما كانت الأراضي الزراعية بقعًا متناثرةً ضيقةً ومحدودة، فإن القرية لا تُعَوِّل في معيشة سكانها على الزراعة. تنتفع قلّة منهم من علاقات شبه تجاريةٍ مع جيرانهم الأكراد، ومن هذه القلّة نشأت غالبية الفئة الميسورة قبل الحرب العالمية (نهاية الثلاثينيات)، وقد تعلمت هذه الفئة اللغة الكردية بالممارسة.

أما في أواخر الأربعينيات فقد بدأت تتكون فئة من الميسورين بالعمل والتجارة المتواضعة في حلب ودمشق وغيرهما، وغطّت على الفئة المنتفعة من علاقاتها مع جيرانها الأكراد واندثرت تلك الفئة تقريبًا في الخمسينيات. إلا أن قدم علاقات الجوار وتغيرات الأوضاع الاقتصادية أدى إلى انتقال أكراد إلى دارة عزة وقد يكون أدى في وقتٍ آخر إلى انتقال بعض سكان دارة عزة للعيش في قضاء (منطقة) عفرين. أما الذين استوطنوا دارة عزة من الأكراد فقد استعربوا ولا تدل عليهم إلاّ أسماء أسرهم فقط، كحمّيكو ودعدو وقرجو وحمّامو وهرديكو... ولا يشك أحد من هؤلاء في عروبته.

تعمل غالبية السكان في الحياكة؛ ففي كل بيت تقريبًا نول يدوي أو أكثر يعمل فيه أفراد الأسرة كلهم متعاونين، بعضهم في الحياكة وبعضهم كالأولاد والنسوة في أعمالٍ مساندةٍ مكملةٍ. وكان تشغيل الأولاد في الأعمال التكميلية للنول، وصعوبة توفير نفقات التعليم على تواضعها، السبب في عدم حضور الأولاد إلى المدارس، فكان معلم القرية الوحيد يستعين بمخفر الدرك لتجميع التلاميذ لمدرسته، ولكن سرعان ما كانوا يختفون.

ويضاعف الحاكة أوقات الحياكة على النول كلما تحسن الطلب على منسوجاتهم القطنية البسيطة فتمتد من الفجر إلى ساعات متأخرة من الليل، فلا تكاد تتوقف دقات النول الراتبة التي تؤنس الساري في ليالي الشتاء الموحشة. تعلمت النساء الحياكة لمساعدة أزواجهن وآبائهن، وكثيرًا ما ينصب نولان في البيت الواحد.

وفي سنوات الحرب العالمية الثانية كانت خيوط القطن تستورد من الهند، إلا أنها كانت تتعرض للانقطاع مددًا طويلة، فلجأت النسوة إلى غزل القطن على دواليبهنّ البسيطة غزلًا رفيعًا سويًّا، كما قام الحاكة بتطوير صناعتهم فصبغوا خيوط القطن ألوانًا وحاكوها خطوطًا ملونةً متوازية أو مربعات متنوعة وسمّوها بأسماء اختاروها لها. وتفننوا في حياكة خيوط الصوف التي غزلتها نساؤهم غزلًا رفيعًا متقنًا وصنعوا منها ألبسةً شتويةً، سراويل وصُدَرٍ ومشدّات... وتعبيرًا عن راحتهم النفسية إذا ما راجت بضاعتهم، تتبارى مجموعات من الشباب في البازار في قذف البصل أو الصغير من البطيخ الأصفر إلى ما فوق مئذنة الجامع الكبير أي "تقليبه" عنها.

أما إذا كسدت بضاعتهم وأغلقت دونها أسواق العراق أو تركيا أو أسواقهما فتصبح حياتهم جحيمًا، وتكفي أسباب تافهة لتفجير بركان الغضب قتالًا عنيفًا بين مجموعات كبيرة منهم، فيسرع رجال الدرك على خيولهم لتفريق تجمعاتهم وإخماد نار الفتنة.

أما أهم عاداتهم الاجتماعية فهي، في الأعراس: إيصال العروس من بيت أهلها إلى بيت العريس في احتفالٍ خاص يسمونه "الفن"، وقد يَحول أخوها أو غيره من الأقرباء دون خروجها من البيت، فيُسترضى بقطعةٍ ذهبيةٍ أو غير ذلك، ويسمى ما يسترضى به "بلصة".

تركب العروس على فرسٍ في الفن، ويغطّى وجهها وصدرها بنسيج رقيق أبيض كالشّاش، ويقود الفرس أبوها أو أخوها أو أحد المقربين الحرم. وهذه هي المرة الوحيدة التي تغطي فيها المرأة في دارة عزة وجهها. ويتقدمها في الفن جهازها، أي ما جهِّزت به من الملابس التي توضع في صندوق العروس الكبير ومرآة وما شابه ذلك وتحملها بعض النساء. ويليها صفّان متقابلان من الرجال يسيرون معها وهم يرقصون ويصفقون ويغنّون أغانيَ تصف حليّ العروس وما نالته من إضافات عليها ترضيةً لها قبل خروجها من بيت أهلها.

ومن المعتاد أن تبكي العروس وتبكيها أمها لدى فراق الأهل والخروج من البيت الذي نشأت فيه ودخول بيتٍ آخر غريبةً فيه هو بيت العريس. وفي بيت العريس تحتفل النساء بالعروس في حفل خاص بهنّ يرقصن فيه وترقص العروس ويغنّين لها.

ومن عاداتهم العناية بالمزارات وإقامة احتفالاتهم الهامة فيها، وهي عادة معروفة في البلاد الإسلامية عامة، وفي دارة عزة عدد منها، كالشيخ علي والشيخ حسن والشيخ محمد وبنت زين العابدين، إلا أن أشهرها هو مزار الشيخ بركات، وهو مزار في قمة جبل سمعان، عرف الجبل في هذه المنطقة باسمه: جبل الشيخ بركات، ولا توجد معلومات هامة موثقة عن الشيخ بركات سوى ما شاع أنه ابن العجوز، ومن أولياء الله الصالحين وفرسانه الميامين، وكانت تقوم بخدمته عدة أسر.

بُني على مقامه غرفة يُصلَّى فيها تتوسطها قبّة، ويلاصقها من الغرب مدخل مستقل ينزل الزائر منه محنيَ القامة بدرجٍ ضيق كثير الالتواء إلى قبر الشيخ، وإلى الشرق منها غرفة مستقلة كبيرة فيها قِصَع كثيرة من الفخار يوزع فيها الطعام الذي يصنع في أثناء زياراته. وفي الفسحة الممتدة قبالة الغرفتين إلى الشمال، صهاريج صخرية يشرب منها الزوار ويطبخون.

تُنذر النذور، ويوفى النذر في "خطرةٍ" أي في زيارة تسبقها قبل شروق الشمس الحيوانات المنذورة والطباخون والمشرفون في وقت مبكرٍ، يليهم مع شروق الشمس أصحاب النذر والمدعوون، وقد ترافقهم النوبة إذا كان نذرًا عظيمًا، ويلحق عادة بالمدعوين أضعافهم ممن لم يدعوا والذين لحقوا بالخطرة ليأكلوا لحمًا. وتختص أسرة معروفة بالتقوى بحفظ عَلَم الشيخ الكبير وما يرافقه من صنوج وغيرها، ويعرف مجموع هذه التجهيزات باسم "النوبة".

وأذكر أنني في بداية الثلاثينيات رأيت "النوبة" مع من يرافقها من رجال أدخلوا

في بطونهم وفي أحناكهم "الشيش" وهو سيخ رفيع ولا أذكر هوية تلك النوبة، هل كانت نوبة الشيخ بركات التي ترعاها وتحفظها الأسرة التي أشرت إليها والمعروفة بتقاها حتى هذه الأيام، أم أنها كانت نوبة أخرى زائرة؟

وفي الأعياد يخرج الأولاد، تجمعهم صداقة الحارة أو الجيرة، مصطحبين ما يصنعون منه طعامهم، للتنزه بعيدًا عن القرية حيث يشاؤون بين أشجار البُطْم والسنديان بالقرب من صهريج ماء، ويسمون نزهتهم هذه " سيبانة". أما الشبان فينصبون متعاونين أرجوحة يبلغ ارتفاعها أكثر من أربعة أمتار ويتبارون في سعة الترجّح ولاسيما عندما تبلغ سعته ١٨٠ درجة أو أكثر وعندها يقال إن المترجّح "قلب عن النير" أي بلغ رأسه مستوى أعلى من مستوى النير، والنير هو الخشبة التي علقت فيها الأرجوحة، وهي أيضًا محور دوران الأرجوحة. وأما الفتيات فينصبن أراجيحهنّ، بعيدًا عن الصبيان ورقابتهم، في أغصان أشجارٍ في كروم حول القرية قريبة منها، كسنديانات الشيخ علي أو "ميشة" المرج.

ومن ألعابهم:

١- الجويكنه (جمع جوكان على طريقتهم)، والجوكان عصًا حُني أحد طرفيها فأصبحت كتلك التي يتوكأ عليها كبار السن. كل لاعبٍ يحمل جوكانًا يحاول بطرفه المحني أن يدخل كرةً من الخرق في حصن الآخرين، ويتوزع اللاعبون على فريقين. إنها تشبه لعبة الهوكي الأمريكية ولعبةً "باكستانية" يكون اللاعب فيها على حصان. اختفت هذه اللعبة في أوائل الثلاثينيات واختفت تسمية الجوكان في الأربعينيات.

٢- أناجيد: يلعبها فريقان متقابلان من الفتيان كل واحد من الفريقين يتحدى أي واحدٍ من الفريق الثاني، فإذا تصدى له أحدهم، حاول كل منهما جرّ خصمه وإخراجه من منطقته. اختفت هذه اللعبة أيضًا في النصف الأول من الثلاثينيات.

٣- الكعاب: تُصفّ كعاب الغنم (والماعز) في خط مستقيم يمرّ من مركز دائرة تسمَّى "الخوطة" نصف قطرها زهاء متر ونصفه، ومع كل لاعب كعب يثقل بالرصاص ويسمى "السقّة"، يضرب بها صفّ الكعاب ليخرج منها بعضها خارج الدائرة. اختفت هذه اللعبة في أوائل الأربعينيات وحلّ محلها لعبة "المور" وتتألف من: كرات زجاجية صغيرة (كلال أو دحل) تصف في مثلث، وكلمة مور فرنسية معناها مات أو موت، مما يدعو للظن أن الفرنسيين هم الذين أدخلوها إلى الوطن، وهي تشبه لعبة الكعاب.

٢. حارم حتى أواخر العقد الثاني من العمر (١٩٢٧-١٩٤٥)

وُلدتُ في حارم في ١٥ تموز من عام ١٩٢٧، وحارم في التاريخ قلعة تدفع الغزاة وتمنعهم من العبور إلى ديار من تحميهم جنوبًا أو شمالًا. إنها بوابة في المنطقة تداولها المسلمون والصليبيون في الحروب الصليبية، ومن قبل في الحروب مع البيزنطيين.

تقع حارم على لِحْفِ هضبة ضهر الميمون (الظهر الميمون) من الجبل الأعلى والمتوجهة بانحدارها إلى الغرب، فتتجه معظم بيوتها إلى الغرب. يمتد البصر منها إلى سهل العمق الفسيح غربًا وشمالًا وجنوبًا إلى أن يصطدم بسلسلة جبال إسكندرون. إلا أن الهضاب التي تحتضن حارم تبرز في الجنوب قليلًا إلى الغرب فتحتضن قلعتها أيضًا قبل أن تنتهي "بالطارمة" المرتفعة قليلًا في الجنوب الغربي من المدينة فتهَيِّئ للنهر بينها وبين منحدر ضهر الميمون سريرًا منخفضًا يجري فيه.

كانت بحيرة العمق وما حولها من مستنقعات توفر لحارم والقرى والمدن المنتشرة في سهل العمق وعلى أطرافه، تربةً غنيةً ومياهًا غزيرة وثروةً سمكيةً ثمينةً يتصدرها سمك السلّور المغذي الوفير الذي كان يغدق من خيراته حتى على أسواق حلب، إلا أنها كانت أيضًا، ومنذ القدم تحيل هواء حارم وخِمًا وتُهيِّئ البيئة لاحتضان الأوبئة

كالملاريا. غير أن بساتين حارم جميلة ممتدة في سهولها الغنيّة التي تسقى من مياهها الغزيرة مما جعلها تسمى دمشق الصغرى، أذكر من ينابيعها: الطيبوط شمالًا وعين فيرس (فارس) والشيب والنهر والفوّار...

أما قلعة حارم فشبيهة بشكلها البيضوي بقلعة حلب، ولم يبق من خندقها المحيط بها إلاّ الجزء الشرقي فهو عميق وعريض ومنحوت في الصخر، وقد حفر في أعلاه اسم الملك الظاهر غازي الذي رمَّم القلعة. لم أصعد إلى أعاليها حيث يوجد بقايا مدفع يستخدم في رمضان لإعلان وقت الإفطار ومواقيت الصيام الأخرى ولإثبات دخول رمضان والأعياد.

مياه ينابيع حارم دافئة، والهضاب التي تتسرب منها قليلة الارتفاع، ولا أذكر أنني رأيت الثلج يهطل في حارم أو يكسوها، وكانت طبقة رقيقة من البخار تعلو مياه النهر في الشتاء. وتتدرج بيوتها على لحف ضهر الميمون منحدرةً بشدة وهي تهبط إلى السهل ببساتينه البهيجة. وتغطي في الخريف روائح أزهار الإيكي دنيا التي تفوح من تلّة الشيخ زيت على بعد أكثر من خمسمئة متر غربيّ دارنا على وخم الهواء الذي تشتد رائحته العفنة في الصيف مع ارتفاع الحرارة والرطوبة وتراكم بقايا المزروعات من القطن ومختلف الخضار على الأرض الرطبة والمستنقعات.

يقع بيتنا في أواخر تدرج البيوت في هبوطها مقتربة من البساتين. بين دارنا والطريق العام الملاصق للبساتين دار واحدة من صف دورٍ ينتهي جنوبًا بعد ثلاث دور، أما امتداد هذا الصف منها شمالًا بمحاذاة الطريق العام والبساتين فيستمر مع امتداد البلدة حتى السرايا (دار الحكومة) والمدرسة الابتدائية والمستوصف، وهي أبنية جميلة، كانت في تلك الأيام حديثة أقامتها الدولة السورية. والطريق العام معبد، وهو الذي يصل حارم بحلب، يخرج من حارم متجهًا إلى الشمال وعلى يمينه على أطراف

حارم معمل أقامه الفرنسيون، تبدو عليه سمات التنظيم والتطور تحيط به شباك أنيقة نظيفة، ويعرف في حارم باسم "الفابريكة"، وبعد مسافة قصيرة ينعطف الطريق إلى الشرق، مارًّا بجزء من أراضي لواء إسكندرون يمتد من دير الرهبان أو قريبًا منه إلى الريحانية (ارتاح) فالبركة (عم)[1] فعين دلفة ثم يدخل من باب الهوى متوجهًا إلى حلب. ويمتد الطريق جنوبًا إلى سلقين فكفر تخاريم فأرمناز فإدلب، وفي الربع الأخير من القرن الماضي تفرع منه طريق بالقرب من سلقين يمتد إلى دركوش فجسر الشغور.

أما الطريق العام الذي يمتد في البلدة من الشمال إلى الجنوب في توجّهه إلى سلقين فينعطف إلى الغرب مسافة أقل من كيلو متر واحد، جاعلًا السوق وما حوله والجامع والطاحون والقلعة والطارمة على يساره، ويقطع النهر، بعد مروره بالقرب من الجامع والطاحون، على جسرٍ ليلتفّ حول الطارمة متجهًا إلى الجنوب، إلى سلقين.

أحد جانبي الطريق هو الصف الأخير من البيوت، أما الجانب الآخر فهو البساتين التي تنخفض عن الطريق ثلاثة أمتارٍ وسطيًّا. وكثيرًا ما كانت تحفّ بهذا الجانب أشجار الحور الباسقة التي تحيلها طيور السنونو عصر كل يومٍ من أيام الربيع والصيف إلى جوقةٍ موسيقيةٍ تهلل لانحدار الحرّ وتتمايل على أنغامها هامات أشجار الحور إذا ما داعبتها نسمات الهواء.

يمتد السوق في حارم من الشرق إلى الغرب، وبالقرب من مقهى طمن في الغرب، ينعطف قليلًا إلى الجنوب ثم يعود بعد تجاوز المقهى متجهًا إلى الغرب. يتألف السوق قبل المقهى من صفين متقابلين من الدكاكين، ولا أذكر من الصفّ الشمالي دكانًا جديرًا بما يحتويه بهذه التسمية سوى الدكّانَيْن اللذين في بداية السوق وفي نهايته، وفي وسط

---

(١) - في (عم) انكسر جيش زنوبيا في معركةٍ مع الرومان. والمنطقة من حارم حتى تلعفيرين بل حتى الأتارب منطقة هامة هي مفتاح أو بوابة طويلة بين آسيا الصغرى أو بيزنطة وبلاد الشام.

هذا الصف دكان ثالث لبيع الأقمشة، وفي منتصف الصف الجنوبي يوجد دكان لبيع الخضار والفواكه كان لشيخ شباب حارم، وبالقرب منه فرن حارم الذي ما كنّا نقصده إلا لطهي الأطعمة الخاصة بالأفران، أو إذا لم يكن في الدار من يخبز على التنّور.

أما الدكاكين الأخرى على الصفّين فهي شبه خاوية، ولكنّها تصور أوضاع معيشة عامة الناس في حارم، إنهم لا يحتاجون إليها فيما تنتجه الأرض من بقول فهم عمّالها. بعد المقهى تختفي الدكاكين من الصف الشمالي، أما الصف الجنوبي فيتابع بدكانٍ كنت أعدّه أكثر دكاكين السوق أهمية لأننا نحن التلاميذ كنا نرى فيه كلَّ ما نحتاج إليه من البذور لزراعة مصاطبنا، وفيه أيضًا المسامير والأقفال ولوازم النجارة البيتية على الأقل، يليه لحّامان أذكر عنهما أنهما كانا يضعان ما نشتريه من اللحم بعد فرمه على ورقةٍ خضراء كبيرةٍ من نبات القلقاز الذي ينمو على أطراف النهر.

وفي السوق رجل رثّ الهيئة لا أنساه ولا أذكر اسمه الحقيقي، فقد كان يُعْرف بكلب السوق، قد يكون لأنه كان يجوب السوق ويتجول فيه لا يهدأ، يتوقف قليلًا حيث يرجو خيرًا ثم يعود لتجواله. وكان إذا تأخر في الاستجابة لنداء من يناديه كلب السوق، يعيد النداء باختصار، "يوكلب" فيجيب فورًا "إإيه". إنه صورة عن مستوى الحياة المتدنية لبعض الناس ولشدة تمايز السكان؟!

يوم الجمعة من كل أسبوع هو يوم البازار، يؤمّ فيه السوق عدد من باعة الأقمشة يبسطون بضاعتهم بالقرب من المقهى لاتساع ساحة السوق هناك التي تظللها شجرة معمرة، ويكون من بينهم بائع أو بائعان من دارة عزة، وينتهي السوق بصفّه الجنوبي الوحيد مع إطلالة القلعة فيتسع هناك البازار اتساعًا كبيرًا وتعرض فيه الدواب والماشية للبيع كما تعرض الأدوات الزراعية والمنزلية البسيطة. ويتوافد الزبائن على البازار من البلدة ومن القرى المجاورة في الجبل حاملين معهم ما يمكن بيعه لسدّ جزءٍ من ثمن مشترياتهم.

ينحدر الطريق بمن يغادر السوق عند المقهى متجهًا إلى الشمال، ويقع غرب هذا الطريق سرير النهر مارًّا بالجامع والحمام فالطاحون. وقد زرت الجامع في أواخر العقد الأول من هذا القرن. فتركت الزيارة في نفسي انطباعًا أن أوضاع الجامع قد تردّت مقارنة بأوضاعه أيام كنت تلميذًا في مدرسة حارم. ففي تلك الأيام كانت المياه تدخله غزيرة من الجنوب، عرض مجراها ما بين جدار الجامع غربًا والموضأ شرقًا عدة أمتار. وكنّا نتوضأ على الحافات الشرقية لهذا المجرى، لقد كانت نظيفةً مرصوفة بعناية ونصلي في مصلى يقع على امتداد رصيف الموضأ إلى الشرق نظيفٍ وبسيطٍ وجذابٍ، مغطى درءًا له من حرارة الشمس ومن تساقط المطر. وكان في أقصى الباحة من الجهة الشمالية غرفة واجهتها الجنوبية مفتوحة على الباحة، فرشت فرشًا متواضعًا نظيفًا حشي قشًّا يمتص الرطوبة. وكان والدي يتلقى فيها أسئلة المصلين في شؤون دينهم ويستمع لما يعرض عليه من مشكلات يفتي في بعضها ويحمل بعضًا منها إلى البيت للدراسة المتأنية وكتابة الفتوى خطيًّا وتسجيلها في سجل خاصٍّ يجمع فيه فتاواه. كل هذا تغيَّر بل اختفى، حتى الجامع أصابته يد التعسف - قد يكون بقصد توسيعه - فذهبت بجلِّ أجواء الخشوع فيه.

وفي حارم حمام واحد أيضًا يرتاده الرجال والنساء في أوقات محددة ومخصصة لكلٍّ من الجنسين، أذكر أنني ارتدته مع والدي وأنا في المدرسة، وأذكر أن مآخذ الماء فيه كانت خشبية، تسد وتغلق بإدخال قلم من الخشب ثخنه مناسب في المأخذ، وقد يحتاج القلم إلى لفّه بخرقةٍ لإحكام إيقاف تسرب الماء من المأخذ.

وفي البلدة طاحون تدار رحاه بطاقة المياه المنحدرة عليه بقوة والتي تصب بعد خروجها منه في النهر وقد تكون هذه المياه هي التي تشكل النهر.

يطحن الناس في حارم والقرى حولها أقماحهم في الطاحون ويخبزون على تنانيرهم،

ويأكلون في حارم مما يزرع في بساتين البلدة، ويبرعون في طرائق حفظ الخضار لأوقات الحاجة إليها في الشتاء، فينشرون شرائح البندورة في الشمس بعد نثر قليل من الملح عليها، ويجعلون الفليفلة الحمراء في قلائد تعلّق على الواجهات الجنوبية من البيوت وهي الطريقة المتبعة في مناطق سوريةٍ أخرى وفي إسبانيا وأمريكا اللاتينية، إلا أنهم في حارم يضعون في القلادة أزواجًا من قرون الفليفلة، ولذلك فإنهم يشترون آلاف الأزواج منها وليس أوزانًا محددة. ودرجت هذه الطريقة في شراء الجوز مثلًا فيشترون منه آلافًا.

ويندر وجود لبن الغنم الرائب في سوق حارم لأن بساتينها لا تسمح بتربية قطعان الماشية فيها، فيأتيها اللبن ومشتقاته من القرى الجبلية التي تربّي الماعز في أراضيها الوعرة التي لا تصلح للزراعة ولا لتربية الأغنام. ومشتقات لبن الماعز عامة، وأجبانها بخاصة مرغوبة أكثر من مشتقات لبن الغنم، فهي أصلح للطبخ فيصنعون من لبن الماعز الرائب "الدوبيركة" بغليه على النار وإضافة الملح له وتحريكه باستمرار إلى أن يصعب تحريكه، فتزداد كثافته ويحفظ في أوعية زجاجية ويصب عليه طبقة رقيقة من الزيت لحفظه للطبخ في أشهر الشتاء التي يعزّ وجود اللبن فيها، وقد تقدم للإفطار في الصباح فتحل محل "اللبنة". ومن مشتقاته يصنعون "السوركة" المشابهة"للشنكليش".

وتنمو في الهضاب القريبة من حارم شرقًا وجنوبًا والممتدة حول بلدات سلقين وكفر تخاريم... نبتةٌ يسمونها "زوبعة"، تنمو مع السعتر (الزعتر) طعمها محببٌ له صلة بطعم السعتر، يضيفونها إلى عجينة الخبز فيصنعون منها خبزًا بزوبعة (خبز بزوبعة) وأصنافًا أخرى منتشرة جميعها بكثرة في حارم وسلقين... وقد كان الدكتور مصطفى حداد، يهدي إليّ منها مما يصل إليه من الأهل في سلقين.

كان أبو الورد ينقل الماء من عين فيرس (فارس) إلى بعض البيوت، بعد أن يبيع الكعك متجولًا في الصباح الباكر، وفي المساء يشعل المصابيح الغازية في الطريق العام. وأكثر طرق حارم المنحدرة من أعالي البلدة إلى الطريق العام كسيت بالبلاط.

وأذكر أن العديد من بيوت الجيران التي دخلتها مع أولادٍ لهم من جيلي كانت جيدة نسبيًّا أو مقبولة، وأن مالك أحدها كان يعمل عاملًا زراعيًّا في بساتين أحد الآغوات، وكان في داره المتواضعة اصطبل متواضع أيضًا لما يستخدم من الحيوانات، أي إنه لا يعيش مع حيواناته في غرفةٍ واحدة، وقد تعلَّم ابنه الوحيد وأصبح مهندسًا زراعيًّا فيما بعد واستقر في حلب.

مع وجود مدرسةٍ جديدة معتنًى فيها بتعليم القرآن وتجويده، فإن تعليم قراءة القرآن في الكتاتيب وتحفيظ القرآن فيها بقي مزدهرًا. وقد شهدتُ احتفالًا بختم القرآن ركب فيه المحتفى به على فرسٍ اكتملت زينته وزينتها معه، وسارت أمامه على الطريق العام مجموعة من رفاقه في الكتَّاب وهم ينشدون "طلع البدر علينا" وتقرع طبول وحدة الكشافة أمامهم. مثل هذه الاحتفالات ما كانت تجري في دارة عزة.

لم أشهد أعراسًا في حارم كتلك التي كانت تقام في دارة عزة، إلا أنني أذكر حفلة أقيمت في دار أهل العريس مقصورة على النساء كمثيلاتها في دارة عزة حضرتها مع أمي قبل دخولي المدرسة وقيل إن العروس كانت مصرية.

أما المزارات فشأنها في حارم كشأنها في جميع القرى العربية والإسلامية - انتبه لا تخلو قرانا منها - وأشهرها في حارم مزار الشيخ عبيد (أبو عبيدة بن الجرّاح)، وقد يكون هو المزار الهام الوحيد، يقصده الناس للتبرك به وللاستشفاء بوضع أرجلهم في مياهه، فتقترب منها أسماكه وتتمرغ بها.

وكم راقبت من بعد، من دارنا المطلّة على الطريق العام والبساتين ما يصحب تلك

الزيارات من خلافات تؤدي إلى منازعاتٍ تتطور - إذا كان الزوار من غير حارم - إلى اقتتالٍ يقود فيه شبابُ حارم شيخَ الشباب بعقاله الغليظ المعقوف عقفةً إضافية صغيرةً فوق جبينه، فيطاردونهم في البساتين، ويزداد تطبيل الطبّال شدةً وعنفًا، تأكيدًا وإصرارًا على إنفاذ الزيارة، وإرشادًا لمن يمكن أن يضلّ الجماعة.

أما الأعياد في حارم فلم يبق في ذاكرتي أي انطباع عنها، وقد يكون السبب أننا كنا نقضي أعيادنا في دارة عزة بالقرب من جدتي، ولكنني أستبعد أن نكون قضينا أعيادنا كلها فيها لصعوبة التنقل بين حارم ودارة عزة، في تلك الأيام، ولاسيما في الشتاء. ولقد كان بعضها، في السنوات التي قضيتها في المدرسة الابتدائية في الشتاء. لأنني قضيت شهر رمضان أكثر من مرة في الخريف في حارم. وهذا يعني أن بهجة العيد في حارم كانت لا تضاهي بهجته في دارة عزة، وقد يكون لتجمع الأهل فيها وبعدهم عنّا في الأعياد التي نقضيها في حارم دور في تمايز ابتهاجنا في الأعياد في كلٍّ منهما.

قد يدل تنوع الألعاب في مجتمع على حيويته ونشاطه، ويلاحظ أن ألعاب الناس في دارة عزة أكثر تنوعًا؛ إذ لا أذكر في حارم منها سوى لعبتين للأطفال في سن المدرسة الابتدائية، اجتذبتنا إحداهما فكانت لعبتنا المفضلة، قوامها كريات زجاجية (دحل، كلال)، وبخاصة لعبة المور التي أولعت بها وأتقنتها ونقلتها إلى دارة عزّة فحلّت فيها محل اللعب بكعاب الخراف.

إلا أنني في حارم حضرت حفلةً عُرِض فيها في خيمة "كركوز وعيواظ" بعض حوار شخصياتها، يرويه رجل في الخيمة لا نراه وراء شاشةٍ مُنارة بعناية كان يقلد بنجاح أصوات شخصياته الورقية (الجلدية) التي نرى ظلالها على الشاشة من الطرف الآخر. كانت الحفلة مسليةً فيها فنّ في تقليد أصوات عدة شخصيات تتوالى بدقةٍ، لا يكاد يظهر فيها أن المتكلم شخص واحد. ولما كانت براعة تغير نبرة الصوت عنصرًا

هامًّا في نجاح هذا الفن، فقد نقل فيما بعد الحوار بين تلك الشخصيات على الأقراص الصوتية السوداء لسماعها على الأجهزة الخاصة بذلك، أي على الفونوغراف المعروف باسم "السمّاعة" فأطالت حياته عقدًا أو أكثر من الزمن.

بمقارنة بسيطة نرى أنّ حارم كانت في ثلاثينيات القرن الماضي أكثر تقدمًا من دارة عزة، ثقافيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا. أما ثقافيًّا واجتماعيًّا فهذا أمر قد يكون طبيعيًّا لأن العاملين في أجهزة الدولة، في مركز القضاء (المنطقة) في حارم وفي مدرستيها (للبنين والبنات)، يشكلون نواة تطور اجتماعي وثقافي كانت تفتقر إليها دارة عزة، كما تفتقر إلى طرق حارم المرصوفة والمنارة وإلى "أبو الورد" الذي كان يبيع فيها الكعك وينقل الماء ولو لفئةٍ محدودةٍ من السكان، أما دارة عزة فلم يكن فيها من يبيع الكعك ولا من يشتريه. وكان في حارم فرن، ولم تدخل الأفران دارة عزة إلا بعد ثلاثة عقود على الأقل من تاريخ دخولها حارم.

إلا أن دارة عزّة أحرزت في القرن الماضي تقدمًا كبيرًا كالكثير من القرى السورية ولم تحرز حارم ما يماثله لأسباب عديدة من أهمها انسلاخ لواء إسكندرون وإضاعة قسم كبيرٍ من الأرض التي كانت جزءًا من مجالها الحيوي الاقتصادي والزراعي وأصبح مزار الشيخ عبيد نقطة حدودية، يثير الاقتراب منها حفيظة حرس الحدود، بعد أن كان مرتعًا لسكان حارم، ولم يبق لها إلاّ متنفس واحد، محدود أيضًا من الجنوب، إذ تقف هناك لها بالمرصاد جارتها سلقين التي أحرزت تقدمًا نموذجيًّا في القرن الماضي، بعد أن كان "الصادق" (كما سأذكر في مرحلة التعليم الابتدائي) يقصد من سلقين مدرسة حارم راكبًا حماره كل يوم.

٣. تنقُّلنا ما بين دارة عزة وحارم

كان السفر أو تنقل الأهل ما بين دارة عزة وحارم في الربع الثاني من القرن الماضي

صعبًا، فالمسافة بينهما زهاء / ٤٥/ كيلومترًا، منها أكثر من / ١٠/ كيلومترات بين دارة عزة والاستراحة. وكثرة الأسفار بينهما أنشأت بيئة ثانوية في امتدادها الزمني، وهامةً في آثارها وفيما تستكمله من مظاهر البيئة التي نشأت فيها. صحيح أن الوقت الذي نقضيه في كلٍّ من هذه الأسفار قلّما تجاوز اليوم الواحد، إلا أن فقد البيئة الرحبة التي كنا نعيش فيها، وانكماش بيئة السفر البديلة يجعلنا مرهفي الحواس، شديدي التركيز على ما يجري حولنا. لذلك كان لا بدّ من إفراد فقرةٍ مختصرةٍ لما يمكن أن يثري، من تلك التنقلات، البيئة العامة التي نشأتُ فيها.

بعد تولي جدي الإفتاء في حارم، أخذ يشعر بالحاجة إلى من يساعده في إدارة أملاكه في دارة عزة فكلّف والدي إثر عودته من مصر هذه المهمة، فاضطر والدي للبقاء في دارة عزة، واشتغل فيها بالتجارة إلى أن تقاعد جدّي من الإفتاء وعاد إلى دارة عزة وتولى والدي الإفتاء في حارم، فشعر أيضًا بالحاجة إلى من يساعده في إدارة أملاكه في دارة عزة. إلا أنه لم يجد بين أبنائه من يمكن تكليفه هذه المهمة، لأنهم جميعًا كانوا طلابًا في المدارس. لذلك كان على أمي أن تتحمل هذه المسؤولية، وأن تتحمل الأسرة معها هذا التمزق: بعض أخوتي يتابع الدراسة في حلب، ويجتمع شملنا دونهم في حارم منذ أواخر تشرين حتى أوائل الربيع، ثم تسافر أمي ومعها إخوتي الصغار إلى دارة عزة، وأبقى مع أبي في حارم أتابع دراستي وتبقى معنا أختي مريم الأكبر مني، وكانت ذكية قوية الذاكرة والشخصية، تعلمت القراءة والكتابة من إخوتها، إذ لم يكن في دارة عزة مدرسة للبنات، وتعلمت كل ما يخص الحياة المنزلية من أمّنا وأتقنته، كما كانت تقرأ كل ما كان يقع بين يديها من كتب إخوتها وتهتم بكل ما له علاقة بترتيب البيت وتحسين مظهره.

إلا أننا كنّا نشعر بالغربة في غياب أمّنا وبالشوق لأخوتنا الصغار، فما كنا نطيق يوم سفرهم من حارم ولا يوم سفرنا في آخر الصيف من دارة عزة التي كان يكتمل فيها

اجتماع الشمل في الصيف بمجيء إخوتي الأكبر سنًّا من السلطاني بحلب. ويستمر تواصلنا بهم أيام السفر وما بعدها، بالإيغال في تذكر أيام اجتماع الشمل الأخيرة وإعادة الحياة إليها بإحياء ذكر ما جرى فيها.

ولا يكون سفرنا غالبًا في يومٍ واحدٍ، فالمسافرون منا إلى حلب لهم يوم، وهم إخوتي الذين يدرسون في حلب في السلطاني ودار المعلمين، ولنا يوم أنا وأختي مريم، وقد نكون برفقة أبينا وأمنا.

وكان السفر من دارة عزة إلى حلب، حتى أوائل الأربعينيات، سيرًا على الأقدام أو بركوب دابّةٍ، أما السفر إلى حارم فبنفس الأسلوب حتى نقطة التقاء امتداد طريق دارة عزة الدانا بطريق حلب أنطاكية قريبًا من باب الهوى، وهو طريق معبد تسلكه السيارات ما بين حلب وأنطاكية، ويتفرع عنه بالقرب من دير الرهبان طريق يمر بحارم فسلقين فكفر تخاريم التي كانت مركز القضاء (المنطقة) سابقًا. وفي نقطة التقاء الطريقين، التي اصطلحنا على تسميتها "الاستراحة"، أقيم نصب هرمي ثلاثي الوجوه، كتب على كلٍّ من الوجهين الموازيين للطريقين أسماء أهم المدن والبلدات الواقعة على كلٍّ منهما، وغير بعيدٍ عنه، كان يوجد دكان بسيط جدًّا يعيش صاحبه على ما يكسب من خدمة المسافرين من قرى "الحلقة"(١) وما حولها، وهم قلّة. هناك كنّا نقضي ساعاتٍ بانتظار سيارةٍ تقلّنا في طريقها إلى حارم.

كنّا نغادر دارة عزة، إذا عزمنا على السفر إلى حارم، قبل شروق الشمس لكي نصل

---

(١) الحلقة هي مجموعة القرى المتحلّقة حول سهل متطاول يحدّه شمالًا جبل الشيخ بركات، ويمتد جنوبًا إلى جنوب سرمدا فغربها مارًا بباب الهوى غربًا وتلعفيرين شرقًا وهو ضيق نسبيًّا ويقطعه طريق حلب أنطاكية ويمر به ما تبقّى من الطريق الروماني الأثري. وقد أنشأ الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الثانية مطارًا عسكريًّا جنوب الطريق وبحذائه، وقد أزيل المطار بعد الحرب.

إلى الاستراحة، قبل مرور سيارات حارم عائدة من حلب، ولنضمن سفرنا في ذلك اليوم، كما نضمن للمرافق العودة إلى ذويه مع دابّته. أما إذا كنا في سفرنا مع أمي فلا نغادر مبكّرين بسبب ما يستغرق من الوقت إعداد إخوتنا الصغار للسفر، فنصل إلى الاستراحة متأخرين. وقد نمضي كل ما تبقى من النهار دون مرور سيارة متجهة إلى حارم. فنضطر إلى قضاء ليلتنا عند أسرة صديقة في تلعقبرين (تل على قبرين) أقرب القرى إلى الاستراحة، ونعود في الصباح الباكر إليها ننتظر السيارة! وفي تلك الاستراحة تستعيد مريم ذكريات الصيف ومن غيّبهم عنا افتتاح المدارس، وتخرج بعض صور الممثلات التي جمعتها من ألواح الشوكولاته الصغيرة (الفرنسية أو السويسرية؟).

لقد حفظت مريم أسماء جلّهن من أخينا إبراهيم وأخذت تشبّه بعضهن ببعض من تعرف، وحفظتُ عنها من أسماء الممثلات التي كانت معجبة بهن "غريتّا غاربو". لاشك أن إعجابها منقول أيضًا عن إعجاب إبراهيم. وتتنقل مريم بسلاسة بين ما تنتقيه من الذكريات والتي تنتهي بمحطات في حارم: أبو الورد وجارتنا عيوش وزبيدة التي نسمع اسمها فقط في مناداة أهلها من البستان... ويستمر سردها الذكريات حتى وصولنا إلى حارم. وعلى باب الدار يلقانا والدي مرحبًا وقد تهلل وجهه فرحًا وهزج في ترحيبه. وكم كان يسرّ بما نحمله من أخبار الأسرة والأقرباء. ونجد نحن في لقائه متعةً وسلوى عمّن تركنا.

كان في كثير من الأحيان يستحثنا، للخوض في ذكريات أيام اجتماع شملنا، بما يسأل، ويقرأ علينا رسائل إخوتي بعد عودتهم إلى المدرسة، وكثيرًا ما كان يكتب إليهم بعد قراءة رسالة أحدهم إذا رأى ضرورة الإسراع في الإجابة، كتلك التي أرسلها أخي محمد والتي بدأها بقصيدةٍ كان يقرؤها علينا في أواخر الصيف، بقوله:

تشرين أقبل ليته لم يقبل ماذا يهيّئ من كؤوس الحنظل

مشيرًا إلى افتتاح المدارس في تشرين وما يسببه من هجر الأهل والأحبة، وكانت رسالته تطفح بالشكوى من الغربة وفراق الأهل والأحبة ومراتع الصبا في دارة عزة. فكتب إليه مشجعًا ومذكرًا بإقامته هو أكثر من عشر سنوات متصلة في مصر بعيدًا عن الأهل في طلب العلم وهو في مثل سنه بل أصغر، وضمّن رسالته أبياتًا من الشعر كان يرددها كثيرًا على مسامعنا:

قلقـــل ركابـــك في الفـــلا ودع الغـــواني للقصـــور

القـــاطنون بأرضـــهم عنـــدي كســكان القبـــور

أما طريق عودتنا من حارم إلى دارة عزة فكنّا نستقلّ السيارة إلى حلب ومنها نعود إلى دارة عزة على دابّةٍ مع حاج علي حسن، وهو صديق الأسرة عمل مدة طويلة مع والدي، وتولى من تجارته ما كان يحمل منها على البغال في القوافل التجارية ما بين حلب وأنطاكية. كانت تجمعه بالأسرة صلات الود والصدق والإخلاص، صلات وطّدتها أسباب العمل وظروفه، وحرصه على الأمانة التي وضعت بين يديه. ما كان ينسى ما يسرّ الأولاد ويفرحهم كلما عاد من أنطاكية، فيحمل منها إليهم بعض البندق الطازج الذي لا تزال أوراقٌ خضراء من شجرته ممسكةً بالأقماع الملتصقة ببندقاتها، وقرون القرّيط (الخرّوب؟) الحلو المذاق. ذلك الود وتلك العلاقات الأسرية كانت تشفع له عندما ما يفاجئ والدي بحسابات سفرته قائلًا بصدق وبراءة، لقد خسرت كل شيء، قامرت بالغلّة مع رفاق القافلة وخسرتها كلها.

لا شك أن والدي كان يستشيط غضبًا، ولكنّه لا يلبث أن يعود إليه إذ يسمع صوته الأجشّ في البيت مع الأولاد، فيؤنّبه على ما فعل برفقٍ وهدوء وينصحه بتروٍّ بالابتعاد عن رفاق السوء والمقامرة، ويجهّزه لرحلة جديدة إلى أنطاكية، مقدرًا فيه براءة الأطفال والصدق والإخلاص، ويشفع له مع هذه الخصال حبّ الأولاد له.

أنا لا أعرفه في تلك المرحلة من حياة والدي، إذ لم أكن قد ولدت بعد، ولكن هذا بعض ما كنت أسمعه من إخوتي الكبار كلما عرض ذكره. عرفته أنا في عودتي مرةً من حارم إلى دارة عزة عن طريق حلب قبل دخولي المدرسة. كنّا إذا لم نجده في حلب ساعة وصولنا إليها نقدّر أن يكون في طريق عودته إلى دارة عزة، فنبيت ليلتنا في دار ابن عمّنا شلّوح (ابن عم والدي وهو حفيد الشيخ شلوح الذي سيرد ذكره في بداية الكلام عن الأهل)، ونعود في الغد مع حاج علي حسن إلى القرية.

لقد كان يسافر يوميًّا من دارة عزة إلى حلب مع الفجر ويعود منها إلى دارة عزة بعد انتصاف النهار، إنه يتعيّش من كراء دابته. كان أجشّ الصوت يشبه صوته أحيانًا رغاء الإبل، لا يُشيع الأنس به لأول وهلة، إلا أن البراءة تنساب في كلامه، حديثه يترجم عن حاله، وتوحي جميعًا بالثقة وتشيع الأنس به والطمأنينة إليه والعطف عليه. إنه إنسان بمعظم معاني الإنسانية. غيَّرت المقامرة حاله، وخسر كل ما جمّع في شبابه، إلا أنه لا يزال صادقًا ودودًا محبًّا.

أحنّ إليه وإن كنت لم أعشْ بعض أيام شبابه، وأحترمه وأكبر فيه شجاعته في استمرار خوضه غمار الحياة وعدم استسلامه بل عدم الاعتراف بالهزيمة، إنها لم تخطر بباله، مطبوع على عزة النفس والصدق والاستقامة، لا يقبل مساعدةً مبطّنةً بالعطف عليه. قلت إنني عدت معه بصحبة أمي من حلب إلى دارة عزة قبل دخولي المدارس في الخريف، وكان الطقس دافئًا والسماء صافية وأدركنا الليل وزينت النجوم السماء.

كنت ممددًا على الدابة أتأمل النجوم ويؤنسني حديث أمي مع حاج علي في قافلةٍ لا أسمع مما يجري فيها من أحاديث وحكايات إلا وقع حوافر الدواب وكلمات متناثرة لا تربطها رابطة ولكنّها تدور جميعها حول أحداث يومهم في حلب. يفكك النسيم إذا هب روابطها ويذهب شرقًا فلا يُسمع غير تشويش يخفت ويتلاشى ليفسح المجال لموجةٍ أخرى من التشويش تلقى نفس المصير.

أما صوت حاج علي الأجشّ فيعلو ويصمد أمام تشتيت النسيم الحياةَ في كلام الناس، فيشيع الطمأنينة في نفسي ويطرد الخوف من ظلام الليل ومن استلاب النسيم الحياةَ من كلام الناس. ويتسلّل النعاس إلى عينيّ، وأنا موزع بين الخوف من ظلمة الليل واختفاء الناس باختفاء أصواتهم التي شتّتها النسيم، وبين الاستسلام للطمأنينة التي يغمرني بها صوت أمي في حديثها مع حاج علي. وما أن أغمض عينيّ حتى تنفتحا، مع دفقة خوفٍ، على أصوات القافلة التي تعلو في سكون النسيم بعد تلاشي موجةٍ منه وقبل أن ترد منها أخرى.

ويتناوب الخوف والنعاس على إخضاعي إلى أن يسيطر النعاس فأغفو مغلق العينين مستنفر الأذنين، أهيم في أحلام مبهمةٍ مع أمي وحاج علي والقافلة، لا أصحو منها إلا وأنا في البيت، وقد أوقدت أختي الكبرى التي تحتفظ بمفاتيحه نارًا لنصطلي، ولتنشر شيئًا من الدفء في بيتنا المهجور منذ عدة أشهر.

غير أننا كنا نعود أحيانًا من حارم إلى دارة عزة مباشرة على الدواب، إذ يرسل والدي إلى عمّي مع الباعة الذين يحضرون البازار من دارة عزة، تكليف شخصٍ يسميه بالحضور إلى حارم مع حصانٍ أو دابّتين ليقوم بمهمة نقلنا إلى دارة عزة.

أذكر من هذه المهمات إحداها، كان المكلف بالمهمة صهرنا زوج أختي الكبرى، وكان شجاعًا قويًّا ووحيد أبويه. فلما اقتربنا من القرية فوجئنا بشخصٍ صَلَى لنا في حظيرةٍ للماعز يأمرنا بالتوقف مطلقًا من بندقيته عيارًا ناريًّا في الهواء، فأوقف صهرنا الدواب وصعّد مسرعًا إلى الشخص واتقى أذاه بالصخور، وكأنه آنس صوت أبيه، فلما اقترب منه وثب والده من مخبئه وتعانقا طويلًا وذهب عنّا الغم وعدنا إلى الدار، إلا أنني لا أذكر هل كانت هي الدار الجديدة أم الدار القديمة، ولكنني لم أكن قد دخلت مدرسة حارم.

إلا أن أطرف هذه الأسفار كان سفرنا من دارة عزة إلى حارم، قبل دخولي المدرسة، على دابّتين، وقد يكون الأول مما أعِيه من أسفارٍ بينهما. كانت تجرى إصلاحات في طريق حلب أنطاكية، كنّا كلما اقتربنا من الطريق بدت لنا منه بقعة كثيفة الحركة، وكنّا كلما ازددنا قربًا من الطريق نزداد قربًا من تلك البقعة أيضًا، ثم ظهر لنا فيها آليات مختلفة، بعضها يدخل البقعة وبعض يخرج منها.

إنها شاحنات بعضها ينقل الماء إليها ويفرّغ ما يحمل منه في براميل أو في خزّانات ضخمة، وبعضها ينقل حجارةً ويلقيها أمام جمعٍ من الناس محدثةً ضجةً كبيرةً فيسارع الناس في رصفها في الطريق أو في تلقيمها مدحلةً ضخمة من الحديد بطيئة الحركة، وشاحناتٍ تفرّغ رملًا وبحصًا، وبعضٌ يحمل منهما ما هو مجبول بالزفت المطبوخ على النار الموقدة ليس بعيدًا عن مركز العمل، واختلطت أصوات الناس وصراخهم بضجيج الآليات.

كان علينا أن ندخل هذا العالم الغريب الصاخب، إلا أن إحدى الدابتين اللتين اصطحبناهما في سفرنا هذا أبت الدخول بعنادٍ خوفًا مما تخبئه هذه البقعة لها من مفاجآت، فاضطرّ مرافقنا إلى تعديل استخدام الدابتين ودخلنا بواحدةٍ منهما، كنت عليها في إحدى شقّتي خرجٍ تحمله، وأختي مريم في شقته الأخرى، وأعيد توازن الشقتين بتثقيل الشقة التي كنت فيها بما يناسب من الحجارة.

كنت رغم ما أعانيه من ضيق في الخرج يشدّني الشوق إلى دخول عالم تلك البقعة الجديد، لأطلّع عليه من قرب وأتأمل ما يجري فيه.

أما أمي فقد كانت على ظهر الدابة تحتضن طفلًا وعلى جانبيها ولدان في الخرج. وقعت عينا الفرنسي الذي كان يشرف على تنفيذ العمل على هذا المنظر الطريف وأسرع لالتقاط صورةٍ له، وأدركت أمّي غايته فأخذت تقرأ بصوتٍ خفيضٍ ممّا تحفظ وتنفخ

في وجهه علّها تفلح في ردعه عن تصويرنا مرددةً ما كانت تقوله إذا رأت شخصًا ارتابت فيه من مظهره: شاهت الوجوه، شاهت الوجوه، إلا أن الفرنسي كان قد التقط الصورة، "فقالت لقد صورنا الخنزير"، وأصبحت كلمتها هذه نادرة الأسرة سنواتٍ عدّة، يتناقلها إخوتي على وجوهٍ مختلفةٍ مداعبةً لأمنّا.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الأهل

نحن ننتسب إلى أسرة جذورها الدينية عميقة وقديمة، انتشرت في البرّ والأرياف. وكان الشيخ شهيد أول من دعا من الأجداد للاستقرار في المدينة، وقد خاطب ابنه الشيخ أحمد يحثّه على الاستقرار في حلب بقصيدة مطلعها:

يا أيها الولد العزيـ ـز عليك في الشهبا الإقامه

وقال فيها:

حذرًا تطيع النفس إن في البرّ آثرَتِ السلامه

وحاول الشيخ أحمد اتباع ما أوصى به والده، فكان يكثر من زيارة أصدقائه ومحبّيه في حلب، وترك في زاوية الهلالي ما يذكّر بحضوره المشهود فيها، ولكنه لم يستقر فيها ولم يترك دارة عزة، رغم الإقامة التي فرضتها عليه مهام الإفتاء في حارم.

وكان جده الشيخ محمد الذي عرف بالشيخ شلّوح من أئمة عصره في ولاية حلب، حتى إن أتباعه ومريديه كانوا يفاخرون بانتمائهم إليه، وشاعت عنهم أبيات كانوا يتغنون بها في الأوراد وحلقات الذكر.

وفي كتاب أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء للطبّاخ ترجمة مختصرة للشيخ شهيد ولابنه الشيخ أحمد.

١. والدي

وُلد والدي الشيخ شهيد الحفيد، في دارة عزة في اليوم الخامس من آب من عام ١٨٧٥، وتلقى مبادئ العلوم عن والده الشيخ أحمد شهيد، ورحل إلى الأزهر في عام ١٨٩٢ وهو في السابعة عشرة من العمر، والتقى فيه الشيخ بدر الدين النعساني والشيخ بشير ريحاوي، فأقام ثلاثتُهم في غرفة واحدة في رواق (السادة الشوام)

بالأزهر، وبعد زهاء عقد من الزمن أتم دراسته وحمل الشهادة من مشيخة الأزهر وعاد إلى موطنه دارة عزة مارًّا بحارم، حيث كان والده الشيخ أحمد مفتيًا في قضاء (منطقة) حارم مقيمًا فيها، وتزوج بفتاة منها، وآثر البقاء قريبًا من إخوته في دارة عزة ليرعاهم وهو بكر أبيه، فعيِّن معلمًا في قرية عنجارة القريبة من دارة عزة. ولما لم يكفِ راتبها للإنفاق على عائلته استقال منها ومارس أعمالًا تجارية حرة فنهض بنفقاته.

وقد صقلت هذه المرحلة شخصيته بما عاناه للوقوف منتصبًا رافع الرأس بعلمه وعمله. إلا أن جذور بناء شخصيته تمتد إلى نشأته الأولى التي هيأته للنجاح في هذه المرحلة. فقد كان يتلقى العلم عن أبيه ويساعده على إدارة أملاكه، وألِفَ الخيول وأحبَّها ومارس الصيد وقد أحسن فيهما ونجح، فأرسله والده إلى الأزهر مطمئنًا عليه وهو في السابعة عشرة من عمره.

ونتلمس ملامح النجاح في هذه المرحلة في سيرته طالبًا لم يبلغ العشرين، يشارك زملاءه الأزهريين في التظاهرات (المظاهرات) بعنفٍ يغذيه كراهيته للمحتل فيشتبك بيديه مع الجنود البريطانيين الذين انهالوا عليه في إحدى التظاهرات ضربًا بأخامص البنادق وألحقوا به أذًى مزمنًا تعاوده أعراضه وآلامه كلما وهن. إلَّا أنه خرج من خلال هذه المرحلة رجلًا من نوعٍ نادر، أتقن فهم شؤون دينه وباشر بتطبيق أحكامه فيما يعرض عليه من مشكلات، ورأى ضرورة حمل السلاح في تلك المرحلة فحمله وأجاد الرماية، وبه ذاد المعتدين، وأحب الخيول الأصيلة وأحسن انتقاءها وتربيتها واستكمل بها متطلبات حمل السلاح.

لقد كان والدي من رجال الدين الفرسان يقيمون دعائم الدين ويحمون الذمار. فعندما اختلّ الأمن في زمن الحرب وبعد خروج العثمانيين بخاصة، وقبل استتباب الأمر للحكومة الوطنية، أغارت عصابة شرّيرة من الأشقياء على القرية فردّهم مع

اثنين رابَطا على مدخلَي القرية من الجنوب ومن الشمال، وتصدَّى هو للمغيرين المشرفين عليها من الغرب، فاعتلى مئذنة الجامع ومعه بندقيتان وملء مخلاة فرسه ذخيرةً ومنظار يتدلى على صدره، يحدد به هدفه ثم يسدد عليه ويرمي، فارتدّ الأشقياء وولوا هاربين.

إن قسوة الحياة في تلك الأيام، وبخاصة في تلك المرحلة من عمره، وهموم تنشئة أبنائه ورعاية إخوته وشؤون أبيه في القرية وما حولها، علّمته الشدّة وألِف القسوة، فكان يبدو وكأنه من قساة الرجال الذين لا تعرف العاطفة إلى قلوبهم سبيلًا.

كان عليه أن يخرج من دار أهله ويبني له دارًا تؤويه وأسرته الجديدة. وبالقرب من دار أهله التي نشأ فيها، في زقاق الزيتونة، بنى دارًا من طابقين، الأرضي منهما لخيله وما فوقه لمعيشة الأسرة. ولما أحيل والده على التقاعد من الإفتاء وكبر أخواه وتولى هو الإفتاء في حارم بدأ مرحلة جديدة من حياته.

في الإفتاء انتهت المرحلة الصعبة القاسية التي وفَّر فيها المال لبناء داره، وللبدء ببناء دارٍ أخرى أكثر اتساعًا من الأولى بعيدًا عن زقاق الزيتونة، بنى جزءًا منها وتوقف لأنه اضطر لشراء دارٍ في حارم بعد أن تولى الإفتاء فيها، وانتقلت الأسرة إلى الدار الجديدة قبل اكتمال البناء، وخَصَّ أكبر إخوتي أحمد بالدار القديمة.

هذه المرحلة الجديدة من حياته أخذت تمحو آثار المرحلة السابقة الصعبة، فطمست ببطء ما ارتسم منها على وجهه، ولكنها لم تقو على اقتلاعها من زوايا نفسه. إلا أننا إذا تأملناه مستغرقًا في سماع بعض أغاني السيدة سكينة حسن التي تثير في قلبه ذكريات أيامٍ عاشها في القاهرة قبل عدّة عقود، كان فيها بعيدًا عن أبويه ومراتع صباه، وفي عالمٍ جديدٍ نيّرٍ بعلمه وفنونه، بحداثته وروّاده: الشيخ محمد عبده والأفغاني... والسيدة سكينة حسن والسيد درويش... نسلِّم بأن قلبه لا يزال، كما كان، يخفق شوقًا وحنينًا،

أو إذا تأملناه مرحًا يداعب صغاره في البيت بعد عودته من العمل اليومي منشدًا أراجيز حفظوها عنه، كأرجوزة الشيخ بركات والنوبة:

يـا شـيخ بركـات تهـدّيها لفـكّ الشـاش وارخيهـا

أو أرجوزة التيس الذي هدّ المصطبة، ومغيرًا بأصبعه على مواضع الكركرة من صدر من يُداعبه منهم، أدركنا أن قلب هذا الكهل المهيب ينبض عاطفةً ويفيض حنانًا.

أما إذا أمعنّا النظر فيما قام به يوم ٢٩ أيار من عام ١٩٤٥ حيث كان يفتي في إحدى قرى حارم، يرتفع تسليمنا وإدراكنا إلى مستوى اليقين. هناك، في تلك القرية، علم فجأة بأن الجيش الفرنسي دخل التجهيز السلطاني بحلب عنوةً وشرّد طلابها وجرح بعضهم وأغلقها. وكنت طالبًا ليليًّا في التجهيز وفي سنتي الأخيرة فيها، فعاد أبي مسرعًا وهو في السبعين من العمر على فرسٍ إلى حارم ليتوجه منها إلى حلب فيتفقدني هناك، إلا أن الفرس جفلت لمرور سيارةٍ مسرعةٍ عند ملتقى طريق القرية بالطريق العام بين سلقين وحارم، ورمته فتكسر بعض أضلاعه وتوفي بعد ثلاث سنوات بين يديّ رحمه الله متأثرًا بما أصابه.

لقد كان حين رحل إلى الأزهر بعيدًا جدًّا عن أبويه في مثل سني بل أصغر قليلًا، أما أنا فكنت في حلب قريبًا من أبويّ، وكانت سبل العيش هناك أصعب ومستوى الأمان والطمأنينة أدنى، ومع ذلك فقد عصفت به العاطفة خوفًا عليّ فأودت بحياته ولو بعد حين.

كان في عطفه وأبوّته لا يفرق بين أبنائه وبناته، وأذكر أن أختي الكبرى كانت موضع ثقته، يستشيرها في أمورٍ هامة، ولا أذكر أنه ضرب ولدًا من أولاده ولو تأديبًا، كما أنه لم يلاحقنا أو يلحّ علينا للقيام بواجباتنا الدينية أو المدرسية، ولكن السرور كان يبدو على وجهه إذا ما رأى أحدًا منا في الجامع أو سمع بتفوقه في الدراسة، إلا أنه ما كان يتابع تنقّل المتفوق من صفٍّ إلى آخر.

كان يحافظ على قيمنا الأخلاقية جيدًا، فتعلَّمْنا من أفعاله في أيام الحرب وفي أيام الشدّة الكثير. أذكر أنه خرج يفتح باب الدار في حارم لرجلٍ قرع الباب بُعيد المغرب، وكان المطر قد بدأ بالهطل، وكنت أقف غير بعيدٍ عنه، أسمع حديثهما بصعوبة. لقد كان الطارق رجلًا يرتدي لباس الرأس التركي العثماني (قلبقًا)، الذي كان يرتديه الحرّاس اللَّيليُّون في مدننا.

رحَّب والدي بالرجل الذي قدّم نفسه لوالدي قائلًا: لقد قصدت دار المفتي، فأعاد والدي الترحيب به بحرارة وأدخله البيت الغربي الذي أصبح معدًّا للضيوف، ثم تركه ليستريح قليلًا وجاءنا ليُعْلمنا عمّن يستضيف، وليسأل أمي أن تعدّ له العشاء وقال: "ضيفكم هو ابن السلطان عبد الحميد، يجب الاهتمام بوفادته والترحيب به، ارحموا عزيز قومٍ ذل".

في صباح الغد تركنا الضيف مودعًا وهو لا يحمل سوى محفظة كمحفظة طلاب المدارس الابتدائية. لقد بقي والدي حزينًا مدة، يذكّرنا به وبما آل إليه ملك رجلٍ شغل العالم ردحًا من الزمن، ويقول لنا كلما ذكره: خذوا العبرة مما آل إليه حال السلطان وذويه.

كان والدي يضرب لنا المثل بسلوكه، فكم كنت أستيقظ على قراءته القرآن، وكم كان وقْع ترتيله في النفس أخّاذًا وصوته جميلًا، وما كنا نراه في البيت إلا والكتاب بين يديه. ويمكن القول إنه كان معتدلًا يُعمل العقل ويكره الغلوّ.

لقد كان يبتسم ابتسامة استخفافٍ كلما قصّ علينا قصّة شيخ جاء لزيارة جدِّي وانتشر خبر زيارته في القرية وأشاع أنه من أصحاب الكرامات يشفي المرضى إذا تمددوا على الأرض ومرَّ فوقهم بحصانه!

كان والدي يُسرّ إذا شاهد أولاده يناقشون موضوعًا علميًّا أو لغويًّا أو ثقافيًّا أو

اجتماعيًّا، وكان كثيرًا ما يشاركهم، وكانوا لذلك كثيرًا ما يتحيّنون الفرص لعرض بضاعتهم الثقافية أمامه ويتبارون في كسب إعجابه.

كان يحضُّنا دائمًا على طلب العلم أينما وجد، والعمل على تحسين الأحوال المادية، ويردِّد على مسامعنا أبياتًا من الشعر تشجِّع على ذلك مهما كانت المشقّة، أذكر منها:

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

و:

قلقــل ركابــك في الفــلا ودع الغــواني للقصــور

القــاطنون بأرضــهم عنــدي كســكان القبــور

وكان معجبًا بأولاده يخاف عليهم من الحسد، فإذا خرجنا معه لصلاة العيد أو الجمعة أو لزيارة جدّتي وأخيه، يقلِّب النظر فينا مغتبطًا، ونحن ستة ذكور، ويقول: ﴿وقال يا بَنِيَّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبوابٍ متفرِّقة﴾ [يوسف ٦٧] ويدعو بعضنا ليسبقه وبعضًا آخر للّحاق به بعد قليل.

كان والدي مثالًا لنا في الاعتماد على الذات ومواجهة الصعاب وقهرها، وكان سيدًا مهيبًا وقورًا. يقول أخي إبراهيم في سيرةٍ مختصرةٍ لأبينا:

"فور تعيينه مفتيًا انصرف إلى عمله، ونهض به نهضة رجل واثق بنفسه وبكفايته العلمية وضميره الحر، ثم أضيفت إليه مديرية أوقاف حارم، فصمد أمام طمع الطامعين بأموال الوقف، ولاسيما ببستان الوقف الكبير بحارم، ولقي منهم عنتًا ومضايقات، ولكن لم تَلِنْ له قناة في مقاومتهم، ولم يزحزحه عن أمانته ومبادئه تهديدٌ ولا وعيد، وعصمه الله وأيَّده.

كان في كل فتوى تصدر منه يكتب تاريخها، ويسمِّي طالبها، ويَذكر سندها الفقهي، ويسجِّلها ويرقمها في سجلاتها، وكانت خمسة أجزاء، وكان يسميها (الفتاوى الشهيدية)، وبلغ عددها قبل عشرة أيام من وفاته (٣٦٤٢) فتوى، وهي غير ما فاته تدوينه منها، فتكون

بمعدل (١٤٥) فتوى في كل سنة مدة قيامه بوظيفته وهي خمس وعشرون سنة، ولو طبعت هذه الفتاوى في كتاب لكانت أثرًا قيمًا من التراث الفقهي، ومرجعًا متينًا فيه لا يقلّ شأنًا عن باقي كتب الفتاوى المعتمدة، وهي إلى ذلك تصور الحالة الاجتماعية ومشاكلها الحقوقية بين الأفراد في زمن صدورها.

وكان إلى جانب انصرافه بكليَّتهِ إلى الفقه أديبًا كاتبًا مترسِّلًا شاعرًا، يكتب الرسالة بأقل الكلمات وأفصحها، وأكثر المعاني دلالةً وأبلغها، وقد يستعمل الكلمة العامية إذا كانت أوفى بتأدية المعنى، يكتب كل ذلك بخط جميل قلَّ من يحاكيه فيه من فقهاء زمنه. أما الشعر فقلما كان يطرقه، وكان لا ينظم شيئًا منه إلا إذا كان مضطرًا إليه، أو كان مطلوبًا منه.

توفي بدارة عزة مساء الأربعاء ليلة الأول من محرم سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ٤ تشرين الثاني ١٩٤٨م وهو ما يزال قائمًا بوظيفته، ودفن فيها.

وترك مكتبةً كبيرة زاخرة بأمهات الفقه الحنفي، ونوادر الكتب الأدبية واللغوية من مطبوعة ومخطوطة وهي ما تزال قائمة بتاريخه، رحمه الله".

٢. والدتي

وُلدت أمِّي حليمة في حارم في عام ١٨٩٥، وكانت راسخة الإيمان تُكثر من قراءة الكتب الدينية وسِيَر الأنبياء وسيرة نبينا صلى الله عليه وسلم منهم بخاصة، وسِيَر آل بيته وصحابته، ومنها سمعتُ لأول مرة، وأنا في الصف الخامس، عن ورقة بن نوفل وأبي الدرداء.

كانت لا تغسل يوم مقتل الحسين من الأسبوع، وكانت تجمعنا للاحتفال بليلة النصف من شعبان وقراءة دعائها. وكانت تقصّ علينا من كتبها قصصًا دينية غير موثقة، فكم جرت دموعنا معها على يُتْم عيسى عليه السلام؛ إذ توفيت أمه قبل وصوله مع الحشائش التي جمعها من بين الصخور لمداواتها. ولم أطلّع على روايةٍ أن أمه مريم كانت حيّةً في محنة الصلب

إلا بعد أكثر من أربعة عقود من الزمن. ومِن كُتبها يبقى (دلائل الخيرات) الألصق بها.

كانت عاطفيةً مرهفة الإحساس تستقبل أبناءها بعد غيابٍ طويلٍ بالدموع لأنهم سيودِّعونها بعد أيام.

كانت تخشى العين والحسد والسحر والسحرة، وتحصِّن أبناءها من شرورهم بما تقرأ من آيات القرآن الكريم، وما تقع عليه في كتبها من تمائم.

كان يدفعها إعجابها بأولادها للطلب من الحلاق أن يجمع بعناية شعر ابنها في القصَّات الأولى ويرسله في كل مرةٍ مع ابنها خوفًا من عين حاسدٍ إذا وقعت عليه أو وقع بعضٌ منه بين يديه. كانت تخاف من كل شيء، كأن ترى رجلًا لا يعجبها مظهره فترشقه بآيات كريمة وتستنجد بالخضر وبأبي العباس وتنفخ عليه ما تقرؤه من بعد، أو أن تدخل في طريق موحشة ولو كان يؤنسها فيها أحدُ أولادها، أو أن تركب دابَّةً ولو كان يقودها أحد الموثوقين.

وقد يكون لزواجها المبكّر بعيدًا عن أهلها وعن بيئتها، ووفاة إخوتها وهي في ديار الغربة، وحزنها الشديد عليهم، وخوفها من أن تفقد أخاها الوحيد جلالًا، الذي لا يزال حيًّا من الأهل، قد تكون هذه الأمور جميعها هي التي أرهفت حسّها وجعلت الحزن والخوف يلازمانها، لأنها لا تملك ما تدفعهما به وتزيح كوابيسهما عن صدرها. ولكنها كانت أيضًا تجادل دفاعًا عما تؤمن به من أفكارٍ أو من أعمالٍ تقتضي تلك الأفكار القيام بها، ولا تسلّم لما يراه المجادل، وتقول كيف أسلّم والحقّ واضح لي وضوح الشمس في سماءٍ صافية.

وإذا طال الجدل واستعصى عليها إقناع من تجادل تنهي الحوار والجدل بالآية الكريمة: ﴿إنَّ الذي فَرَضَ عليكَ القرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعادٍ، قُلْ ربِّي أعْلَمُ مَن جاء بالهدى ومَن هو في ضَلالٍ مُبين﴾ [القصص ٨٥] وإذا كان الحوار مع أحد أولادها أو مع صديقٍ، تقف في الآية عند: ﴿بالهدى﴾.

وهي مع ذلك كثيرة الاهتمام بالطبّ جريئة في ممارسته. وكانت ماهرةً حقًّا في شؤون الوقاية والإسعاف وبعض طرائق المداواة الحرجة التي أذكر منها معالجة فدغٍ أُصبت به في الجمجمة، بحجر رماني به ابن جارنا البارع، فقد حرقت قطعةً من نسيج ووضعت رمادها بكثافة على الفدغ ليكون ما يلامسه مطهِّرًا من الجراثيم!

وكانت تستخدم لبخات من الأعشاب كالختمية لمداواة ما يصيب أرجلنا أثناء اللعب من قروح، وتداوي تقيُّح اللوزتين بالضغط عليهما بأصبعها المغطاة بالملح والثوم المهروس بعد أن تغسل يديها جيدًا بالماء الساخن والصابون.

كانت تشطّب بموسى الحلاق شحمتَي الأذنين لإخراج الدم الفاسد وإزالته إذا ما وضحت لها الأعراض، ويكون ذلك في أوائل الخريف أو الربيع. وكانت تعود فيما يصعب عليها مداواته إلى تذكرة داوود الأنطاكي.

وهي إلى جانب ذلك كلِّه تتقن خدمات الأسرة، تحب النظافة في البيت وتحبّ أن تراها على أفراد الأسرة، كما تحبّ إتقان كل ما تقوم به من طعامٍ أو لباسٍ أو زينة وتنظيم. جعلت بيتَنا مدرسةً لتعليم البنات الشؤون المنزلية، فهو لا يخلو أبدًا من بنتٍ أو بنتين من بنات الجيران أو الأقرباء أو الأصدقاء يَحضرْنَ يوميًّا لمساعدة أمي أو أختي حسب الحال في شؤون البيت، ولا يشغر مكان أيٍّ منهن إلا إذا شعرت أحداهنّ، بالرضا عما تعلَّمته، بعد اختبار ما اكتسبته بالتطبيق الفعلي في بيتها، فتحلّ محلَّها عندئذٍ فتاة أخرى.

لم تتعلم أمي الشؤون المنزلية في المدرسة، ولا أعلم كيف تعلمت فنّ الخياطة، فقد كان لديها آلة (ماكنة) للخياطة من صنع سنجر، علَّمت عليها جميع بناتها وصويحباتهن المتدربات في الشؤون المنزلية، فنّ الخياطة على أحسن وجه عُرف في تلك الأيام.

لقد كانت رحمها الله كريمة جدًّا تعطف على المعوزين وتهب السائلة بعض ثيابها إذا لم تجد ما تعطيه، وهي لخصالها هذه كلها حظيت باحترام الجميع ومحبتهم. وحُبُّ الناس

واحترامهم وتقديرهم لها، جعلها أقرب إلى الرضا عما تقوم به، ولكنه لم يمكِّنها من قهر الوساوس وإدخال الطمأنينة على نفسها، فكانت كثيرة البكاء تندب حظَّها الذي أبعد عنها أبناءها في المدارس ثم في العمل أو لأنهم لم ينجبوا من البنين ما يحبون وما تحبه لهم، وكانت تردّد كلَّما ذُكِّرت بهم هذه الأبيات:

إن حظـــي كـــدقيقٍ   بـــين شـــوكٍ بـــذوره

ثـــم قـــالوا لحفـــاةٍ   يـــوم ريـــحٍ اجمعـــوه

إن مـــن أشـــقاه ربي   كيـــف أنـــتم تُســـعدوه

هذا الحسُّ المرهف والعاطفة الفيّاضة ترافقا فيها مع إرادة قويّةٍ تتجلّى في تحمّلها مشاقّ اقتحام الصعاب والصبر على الشدّة وعلى فراق الأحبّة من الأهل والأولاد.

كم كنت أحب رائحة عرقها! أذكر أنني أخذت مرة أشم بشوقٍ ملء رئتيَّ بعضَ ما نزعت عنها من الثياب التي كانت قد خرجت بها، فلمّا لمحتني أسرعت وانقضَّت على الثوب وانتزعته مني قائلةً: لا يا بني إن رائحة العرق تفوح منه، فقلت لها إني أحب هذه الرائحة، لَيْتهم يصنعون منها عطرًا فيكون عطريَ المفضل. أدركت فيما بعد لماذا يُلقى في قرانا على وجه المريض إذا ما اشتد مرضه بعض ثياب الغائب من الأحبّة، وتذكرت الآية الكريمة: ﴿ اذْهَبوا بقميصي هذا فألْقوه على وَجْهِ أبي يَأْتِ بَصيرًا﴾ [يوسف ٩٣].

ومما لا أنساه أنني يوم جئتُها مودِّعًا قبل سفري إلى الرياض معارًا إلى جامعة الملك سعود واعدًا إياها باصطحابها مع أختي الكبرى للحج، قالت لي لا تسافر هذا العام ابقَ معنا، سافر في العام القادم، فقلت لكنني وقَّعت عقدًا مع جامعة الملك سعود ولم يبقَ لي خيار في الأمر، فقفزت قطراتٌ من الدمع من آماقها فلمتها بيدي وغبت بين يديها مقبلًا. ولم يخطر في بالي أن وداعها ذاك كان هو الوداع الأخير.

وهذا ما جعل الحزن يقيم في القلب لا يبرحه، يحرِّكه ذكرها فينكأ الجرح العميق الذي

سبَّبَتْه غفلتي، فلا يخمد الحزن ولا يهدأ القلب معه إلا بعد وقت طويل. توفيت رحمها الله في ٢٢ آذار من عام ١٩٦٤ قبيل موعد الحج، ودُفنت في دارة عزة.

٣. خالي جلال

ترك بعضُ أفراد الأسرة أثرًا بيِّنًا في تكوين شخصيتي أو في صقلها، لذلك رأيت أن أكتب عن الجانب الأكثر استحواذًا عليّ واجتذابًا لي من شخصية بعضهم، أو من سيرته. لا شك أن لأبي وأمي المقام الأول في تكوين شخصيتي. إلا أن لكلٍّ من خالي جلال وأخي إبراهيم النصيب الأوفى بعدهما أو معهما في تكوين شخصيتي وصقلها.

أما خالي جلال، فقد هيأتْ له أمِّي مكانةً خاصة في نفسي، مذ كنت طفلًا صغيرًا، في حديثها عنه كلَّما مرّ في خاطرها شجَنٌ أو تلهفٌ على الأهل. تزداد شوقًا إليه إذا ما زارها، وهذا نادر، أو كتب إليها أو سمعت بعض أخباره. هو الأصغر سنًّا، ولد في حارم في عام ١٩٠٠، وتوفِّي والده وهو في الرابعة من عمره.

تعلَّم في المدارس الابتدائية والرشدية في حارم وكفر تخاريم التي كانت مركز القضاء لمدة محدودة، ثم أتمَّ دراسته في مدارس الزراعة ودار المعلمين بحلب، وقُبيل إتمامه الدراسة في دار المعلمين سيق، بسبب الحرب العالمية الأولى، مجندًا إلى مدرسة ضباط الاحتياط في الآستانة (اسطنبول)، وتخرج برتبة وكيل ضابط ثم رُقِّي إلى رتبة ضابط، ونُقل إلى الجيش الخامس في الفرقة المخصَّصة لملاحقة عصابات الأشقياء وقطعات الجيش المنشقّة. أُرسل من أزمير إلى بلاد البلقان فتعلَّم لغاتها، وفي نهاية الحرب سُرِّح وأرسل إلى حلب. كانت حلب تحت الاحتلال البريطاني، أما حارم – موطنه وحيث كانت أمه – فكان قد احتلها الجيش الفرنسي إلى حين، ولم يستقرَّ الوضع في مختلف أنحاء البلاد إلا بعد دخول الملك فيصل حلب فانضمَّ إليه.

إن اضطراب الأوضاع في بلاد الشام وسرعة تقلباتها، وتخبّط الأوضاع واختلاطها

من قَبل في أصقاع الإمبراطورية العثمانية الأخرى، كان البيئة المثلى لنشوء الأفكار وتلاقحها حول المصير، ولدخول تيارات سياسية وفلسفية وولادة أخرى محلية، رأت جميعها في الحرب وما بعدها الفرصة المناسبة لفرض ما يمليه كلٌّ منها من الأنظمة والتوجُّهات، وهي جميعًا ثورية في دعوتها المباشرة للتغيير.

وخالي مثقَّف يتقن التركية وتعلم الفرنسية في المدارس وحسَّن معرفته بها بجهده الشخصي، ولوعٌ بالقراءة وفهمُ الأفكار التي تساعد على إيجاد المخرج الصحيح من هذا التخبط. بيئتُه العائلية الخاصة تدفعه دفعًا للانضمام إلى الاتجاهات الثورية ولاسيما بعد أن بلغه خبر وفاة أمه. لم يبق له في الدنيا ما يعيق حركته، فأخته، وهي كل ما تبقى له من الأهل متزوجة ووضعها مستقر.

شارك في مهام ثورية كُلِّف تنفيذها في دمشق وحلب قبل استتباب حكم الدولة العربية التي انضم إليها بعدئذٍ، ولوحق من الفرنسيين بعد دخولهم، ثم عُيِّن مديرًا لناحية قلعة المضيق فلم يلتحق، فسجن ولم يفرج عنه بعد مدة قضاها في السجون إلا بكفالة، وأشار عليه إبراهيم هنانو بالسفر إلى العراق، فسافر، إلا أنه بعد ثلاثة أشهر قضاها في دراسة الأوضاع هناك عاد إلى حلب فأقام فيها تحت الرقابة إلى أن سُمح له بالإقامة في بلده حارم فقط.

حاول الهجرة إلى الولايات المتحدة، وباع بيته في حارم، إلاّ أن الولايات المتحدة امتنعت عن استقبال مهاجرين من بلاد الشام، فاستقر تدريجيًّا موظفًا في المالية فمدير مالٍ يتنقل ما بين حارم وإدلب وعفرين وجبل سمعان وحلب.

بعد إحالته على التقاعد لبلوغه الستين من العمر، خصَّص من يومه وقتًا أطول لمتابعة تطوير أفكاره، واستمر مجدِّدًا لا يهدأ، يقرأ ويناقش ويستنير بكل فكرٍ نيِّرٍ، وينير بما لديه كل من يستمع له، قرأ لإسماعيل مظهر ترجماته لنظرية النشوء والارتقاء

لداروين التي كان قد اطَّلع على مبادئها في مدرسة الزراعة، كما قرأ لشبلي شميل واطلع جيدًا على تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وازداد بما قرأ إيمانًا بضرورة التغيير.

وفي التغيير والثورة مرّ متعاونًا أو معاديًا، على عددٍ كبيرٍ من الأسماء التي قد يكون بعضها مستعارًا: عبد الرحمن اليوسف، حقي المصري، إبراهيم هنانو، إبراهيم الشغري، سامي الحنّاوي، مصطفى آغا برمدا، عقيل سقات (أو سقاط)، إبراهيم خلاصي، جعفر باشا العسكري، شعبان آغا، عبد الرحمن الجوي، محمد بك شريف، توفيق الحياني، حمّادة أفندي...

ثم انصرف إلى العلوم دون أن يتخلى عن آرائه وقناعاته وميوله الفلسفية التي دافع عنها وحاول تطبيقها في شبابه ولم يوفَّق. فاهتم بالتصوير الضوئي والموسيقا، ثم بانتشار الأمواج الكهرطيسية والراديو ثم بالميكانيك الدقيق وأقام له ورشة في قبو بيته، وتوصل فيه إلى مستوى مرموق يحاكيه فيه هاوٍ مشهور آخر هو عبد الوهاب صابوني، ولم يهمل الكيمياء التي أضرت أبخرتها بصحته، وقد تكون تسببت بوفاته في ١٥/ ١١/ ١٩٨٠عن ثمانين عامًا ودفن في حلب.

لقد كان خالي عصاميًّا عاش يتيمًا منذ الرابعة من عمره. ولم يقف اليتم عقبةً دون تفتحه بجرأة وإصرار، وصمد للشدّة والاغتراب، ودفعه تعاظم الشعور بواجبٍ مقدسٍ نحو أمه وأخته إلى المزيد من البحث عن مستقبلٍ منشودٍ في ظل فلسفةٍ ومنطلقات فكرية تطمئن نفسه إليها. فكانت له في الحياة نظرات منسجمة متناسقة إن لم نقل فلسفة، تنويرية إن لم نقل ثورية، علمية إن لم نقل علمانية، لا يزحزحه عنها إلا الحجج المنطقية التي لم تجد إليه سبيلًا. لقد كان لنا مدرسة متجددة لم تسمح ظروف الحياة لنا للاستمتاع بالمزيد من دروسها ولم تسمح له بالتجوال معنا في بعض المواقف الثورية أو في بعض الجولات الفكرية.

٤. أخي إبراهيم

أما أخي إبراهيم، فقد بدت عليه في وقت مبكر دلائل قوة الشخصية في حسن تخلصه من المآزق التي يقع فيها، وفي القيام بأعمالٍ تتطلب رؤيةً إبداعيةً وجرأةً في التنفيذ، كإقلاع طائرة ورقٍ على قصب، واسعة السطح بقطٍّ صغيرٍ وإعادته معها، وفي تهيئة نفسه لدورٍ قيادي في مجتمعاته الصغيرة: بين إخوته وبين رفاقه، وتوطينها على التصدي للصعاب وتحمل المسؤولية التي يتطلبها الدور القيادي، وتعويد نفسه على تحمل الآلام والصبر عليها، كصبره وهو طفل في العقد الأول من عمره، على خياطة شفته التي شُقَّت برفسة بغلٍ وخيطت بإبرةٍ عادية ودون مخدّر.

هذا ما كانت ترويه أمي، إلا أنني حضرت فيما بعد، وكنت في العقد الأول من العمر، سِباقًا نظَّمه هو على قمة جبل الشيخ بركات، وشاهدته يسقط عن ظهر فرسٍ وهي تقفز منحدرةً بشدةٍ عن صخرةٍ كبيرةٍ فيرتطم رأسه بها ويشقّ حاجبه، ويرفض إنهاء الجولة والعودة إلى القرية لتعالج أمنّا الجرح. لم نعد إلاّ مع غروب الشمس، وكان طوال الوقت يوزع الابتسامات المصطنعة ويروي الطرائف. وقد ترك الجرح أثرًا واضحًا يغطيه بشعر الحاجب.

ولد إبراهيم في دارة عزة في ٢٣ أيلول عام ١٩١٣. وأعدَّ نفسه إعدادًا ثقافيًّا جيدًا لدور قيادي في جيله، فقد كان يشترك بعدد من المجلات الثقافية التي أذكر منها مجلة الرسالة ومجلة السياسة المصريّتين، وأنشأ مكتبةً ثقافيةً وتاريخيةً وأدبيةً كبيرةً على طالبٍ في المدارس الثانوية، وأكثر تنوعًا وأرفع مستوى مما يمكن أن يرنو إليه أمثاله من طلاب المدارس الثانوية.

كان مميزًا بين زملائه عند أستاذه الشيخ بدر الدين النعساني، ولم يصرفه هذا التميّز في اللغة والأدب عن الاهتمام بقضايا بلده وأمّته، سياسيةً كانت تلك القضايا أو

اقتصاديةً أو اجتماعية. فكان تاريخُ العرب ونهضتهم ومثلهم، والحضارة التي أقاموها موضعَ إعجابه واعتزازه، وكان احترامُه وتقديسه لباني هذه النهضة الإنسانية النيّرة محمَّدٍ النَّبي الأميّ فوق كل تصوّر.

ولم يصرفه ذلك التميُّز عند أستاذه الشيخ عن الوفاء بواجبات دوره القيادي في الأسرة أيضًا، فلم ينسَ رعاية إخوته الأصغر سنًا، بل زاد رعايته عنايةً وتطويرًا. وقد تكون هذه الرعاية مظهرًا من مظاهر قوة الشخصية القيادية التي نمت وتجذَّرت فيه في بيئةٍ مواتيةٍ نشأت ببعدنا عن أبينا الذي شغله الإفتاء عنا واحتجزه في حارم، وأبعدتنا عنه المدارس في حلب، وخاصة في الصيف فصل مواسم الأرض، حيث يجتمع شمل جميع الأولاد بأمهم في دارة عزة. كنّا نحضر فيها جولات ثقافية ماتعةً يحركها إبراهيم ويتداول فيها الحوار مع أخي الأكبر محمد. كانا مثقفين واسعي الثقافة، أطالع عند محمد مجلة المقتطف وكتبًا منها معجم البلدان... وأطالع عند إبراهيم مجلّة الرسالة وكتبًا كالبيان والتبيين وعصر المأمون... وقد تشير مكتبتاهما إلى لوني ثقافتيهما المختلفتين رغم تنوع أصنافهما. كانا يتناولان في تلك الجولات، التاريخ والحضارة واللغة والأدب والسياسة والحكم، وقد يعرِّجان على الموسيقا والغناء، بل قد تنتهي الجولة بمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم، كلّ منهما في طرف. لا يخفى على المستمع أن إبراهيم يريد إثبات جدارته بالقيادة ولاسيما فيما يجري من تلك الجولات بحضور والدي في أثناء زياراته القصيرة القرية في الصيف.

إن إيمانه بدوره القيادي واعتزازه بحضارة أمته من جهةٍ، وواقعها المؤلم الذي يعبّر عنه الاحتلال الأجنبي والتخلف من جهةٍ أخرى، دفعاه إلى إنشاء الحرس الوطني لبني إياد؛ ونَسَبَهُ إلى بني إياد تأكيدًا لعروبته وإشارةً إلى ما روي عن زيارة قس بن ساعدة الإيادي لسمعان، وتلبيةً لدعوة الكتلة الوطنية التي كانت تقود النضال الوطني في

سورية. لقد أنشأ إبراهيم الحرس الوطني في قرية فقيرة، حال الفقر دون إرسال أطفالها إلى المدرسة دفعًا للنفقة الزهيدة التي يتطلبها تعليمهم، وطمعًا في مساعدتهم أسرهم على كسب زاد يومهم.

لقد أقنعهم بإيمانه وبحنكته وبما يتمتع به من صفاتٍ قيادية، بالانضمام إليه في تنفيذ هذا المشروع المقدس الذي هو درع الوطن وقلعة صموده، وتوفير النفقة اللازمة لتوفير اللباس الموحد، ولاقتطاع جزء من الوقت الذي أبقته الحياكة لراحتهم، وتخصيصه للتدريب ولفهم مهمتهم النبيلة، وما تقوم عليه من تطلعٍ وطنيٍّ قومي إلى مستقبلٍ زاهٍ وضّاء. وهذا حقًّا إنجاز كبير على شابٍّ في أوائل العشرينيات من عمره ترك المدرسة وهو في صفِّ البكالوريا الثانية.

لقي الحرسُ الوطني الذي أنشأه بقمصانه الحديدية وعباءاته الحمر الإعجابَ والتقدير في استقبال الوفد السوري المفاوض. ولما أخفقت المفاوضات مع الفرنسيين وحُلّ الحرس الوطني، عاد إبراهيم إلى الدراسة في السلطاني، وحصل على البكالوريا الثانية وانتسب إلى كلية الحقوق.

وفي كلية الحقوق حظي بتقدير أساتذته، وكان يراسله منهم – وهو لا يزال طالبًا – أستاذُه الدكتور محسن البرازي تقديرًا لتفوقه وامتيازه. أنشأ بعد تخرجه من كلية الحقوق جمعية إصلاح جبل سمعان، ودعا للإصلاح في ندوات عرض فيها أوضاع القضاء (المنطقة) المتخلفة وإهمال معالجتها.

ورشح نفسه للنيابة في قضاء جبل سمعان في انتخابات عام ١٩٤٧، وكان الفساد بوجوهه المختلفة هو المعْلم الرئيسي لتلك الانتخابات فحال ذلك دون نجاحه. قاد في نقابة المحامين في حلب الإصلاح في النقابة وأسّس للإصلاح في الوطن كلّه.

وعندما وقع انقلاب حسني الزعيم اعتُقل مع بعض زملائه وأودِعوا سجن المزّة

بدمشق. وشفع له وجود الدكتور محسن البرازي إلى جانب الزعيم، فأطلق سراحه معهم بعد مدةٍ قضاها في السجن.

دخل حركة التحرير الوطني وتابع في النقابة ومنها برنامج الإصلاح الذي رسم معالمه مع بعض زملائه، وبعد إخفاق الحركة وحلّها ترك العمل السياسي. وعندما هُدِّدت سورية بعدوان أمريكي تركي، استجاب لنداء الحكم الذي أزاح حركة التحرير، التي كان من رجالاتها، وانضم إلى الجيش الشعبي للدفاع عن الوطن، وأرسل إليّ صورته باللباس العسكري وقد كتب على ظهر الصورة "الدفاع عن الوطن واجب مقدس". وكنت في تلك الأيام معيدًا موفدًا إلى جامعة باريس لتحضير الدكتوراه.

ولم تلق الوحدة السورية المصرية في نفسه ميلًا، فلم يكن من مؤيديها لأنه، كما يقول، لا يؤيد عبادة الأشخاص. واعتزل العمل السياسي وانصرف إلى اهتماماته الأخرى في المحاماة والأدب والتاريخ والحضارة العربية الإسلامية.

إن سعة اطّلاعه على التراث العربي الإسلامي، والفقهي منه بخاصة، وعمق معارفه اللغوية العربية كانا من أهم ميزات تفوقه في المحاماة، وكثيرًا ما كان التفسير اللغوي الذي يبيِّنه لبعض الكلمات في حكمٍ شرعيٍّ سببًا في هزيمة خصمه وخسارته. وكان إلى جانب ذلك كله كاتبًا ذوّاقةً، ولكنه قلّما ينشر في غير مجالات الحقوق.

كان إبراهيم من هواة التصوير الضوئي، يحتفظ بالقليل مما صوّر وفيه صور قيّمة فنيًّا واجتماعيًّا. وَرِثتُ عنه الولع بالتصوير الضوئي وغذّيته بما ورثته من آلات تقاعدت عن العمل لديه، وبها سجَّلت بعض المشاهد من حياتنا الاجتماعية في دارة عزّة، غير أن ما لديه من المشاهد الاجتماعية والبيئية والخاصة به وبالأسرة جديرة بالتنظيم والحفظ والإعداد للنشر في الأوجه المناسبة.

كان له في دارنا في القرية ثلاث خزائن يحفظ فيها ما يترك من كتبه في القرية، وكنت أتحيّن فرصة فتحه تلك الخزائن لأتمتع بالاطلاع معه على ما فيها، ووقعت عيني مرةً على كتابة بحروف عربية على باب الخزانة من الداخل لم أفهمها فسألته عن لغة تلك الكتابة، فأعلمني بأنها لغة خاصة به لما يريد ألاّ يطلع عليه غيره. إنها نوع من التعمية (الشيفرة) فأعجبني ذلك وقلدته فيه.

لقد بلغ السادسة والتسعين من العمر ولا تزال ذاكرته قوية لا يعكر صفوها مرور الأيام وتراكم أحداث قرن من الزمن، ووعدني منذ شهر أن يقرأ ما أكتب وأحظى منه برأيه فيه، إلا أنني خسرت رأي خبير عزيز بوفاته في الساعة ٠٠.٣٠ من صباح يوم الأربعاء التاسع من أيلول وحضرت وفاته والمأتم ودفن في حلب يوم الجمعة الحادي عشر من أيلول سنة ٢٠٠٩؛ أي في الشهر الذي ولد فيه، وبذلك يكون قد أتم السادسة والتسعين، رحمه الله وأحسن إليه وبارك مثواه.

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

المرحلة الأولى من العمر

١ . من بدايات الوعي حتى نهاية مرحلة التعليم الابتدائي

يبدو مما تبقّى في ذاكرتي عن مرحلةٍ من الطفولة تنتهي مع بداية دخولي المدرسة الابتدائية في حارم، وقد تمتد أحيانًا إلى سنّ العاشرة، أن انتباهي قد انصرف فيها إلى أمي بخاصة من بين كل من يكون حولي، فلا أذكر إذا ما كنت معها أحدًا من الأهل. قد يكون ذلك طبيعيًّا، أي إن حضور الأم في مشهد ما يطغى لدى الأطفال على كل ما يحتويه، فلا يميز الطفل فيه غيرها، وإذا ميّز أحيانًا غيرها، كان ما يميزه من الحضور هو مما تهتم هي به في ذلك المشهد. وهذا ما جعلني أذكر في عودتنا من حلب إلى دارة عزة حاج علي حسن وأمي.

كان عمري وقتئذٍ قرابة خمس سنوات، ولم أشعر بوجود أختي عائشة التي تصغرني بسنتين ونصف السنة إذ لا بد أنها كانت مع أمي فصغر سنِّها لا يسمح بتركها بعيدًا عنها. لم أشعر بوجودها معنا كما ليس في ذاكرتي ما يذكرني بها من قبل. لا أذكر بدقة تاريخ حدوث بعض المشاهد، وأحتاج لتحديده بدقة إلى مزيد من الوقت لتنشيط الذاكرة والعودة بها إلى ما يجاور ذلك المشهد زمانًا ومكانًا، وسأعود بها فيما أرى أن تحديد تاريخ وقوعه من المشاهد مهم.

أهم ما بقي في ذاكرتي من هذه المرحلة يصنف في صنفين هما:

١ . ما وقع قبل انتقالنا من دارة عزة إلى الدار الجديدة، وهي المرحلة التي كان عمري فيها دون السادسة،

٢ . وتلك التي وقعت بعد انتقالنا إليها، أرويها وفق تسلسل وقوعها زمنيًّا.

دلّاني أحد إخوتي من شرفة الطابق الأول ليتلقاني أخوان آخران في أرض الدار فيأخذاني إلى أمي التي كانت تخبز على التنور، إلا أن ممانعتي التدلي خوفًا من الوقوع،

وتحركي عشوائيًّا وبشدة، أديا إلى ارتطام رأسي من الخلف بنِجافِ الشرفة التي لا يحيط بها (درابزون) ففدغت الجمجمة ولا يزال موضع الفدغ ظاهرًا وقد تجاوزت الثمانين من العمر. في هذه اللحظة التي ارتطم فيها رأسي بالنّجاف وفُدغ، سجلت في الذاكرة صورة كاملة لما حولي: أمي مع سيدة أخرى على التنور الذي يقع في أقصى الجنوب من الدار، وفي الغرب بين التنور وباب الدار أُثْفِيَّةٌ عليها قدرة (قدر صغيرة) من الجينكو بنفسجية (لا بد أنني رأيتها من قَبل)، وكومة من الحطب في أقصى الشرق من الدار، يليها إلى الشمال بئر بلا سكْر. كان عمري كما ذكر أخي إبراهيم، وهو الذي دلَّاني، دون الثالثة. تفاصيل المشهد التي ذكرت، تدل على أن الطفل يعي في سن مبكرة اللحظات الحاسمة الخطيرة في حياته.

يظهر أن بدايات وعيي ما أحلم به، وبدايات تسجيله في الذاكرة، كان قبل سن الرابعة أو حولها (بالمقارنة بوقت زيارة خالي فيما بعد). كنت كثيرًا ما أحلم في هذه السن أنني ممدد على الأرض بين بداية الدرج وحائط الدار، والمسافة بينهما لا تزيد على متر إلا قليلًا، يحاصرني وأنا ممدد أسدٌ لونه أسمر فاتح يهمُّ بافتراسي من رقبتي، وبين كتفيه لبدة عظيمة. تكرر هذا الحلم مرارًا وأنا في هذه السن.

هذا الحلم أصبح موضوع اهتمامي في السنوات الأخيرة من دراستي في التجهيز، فلقد رأيت صورة الأسد في كتاب كليلة ودمنة، وفي كتاب القراءة في أندروكلس والأسد. إلا أن هذا كله حصل في سنٍ بعد الرابعة بكثير، فمن أين جاءتني صورة الأسد وكيف؟

وأخذت أفكر في التقمّص، لاسيما أنني كنت أحلم بأنني أطير في الساحة الضيقة لتلك الدار وأحطّ فوق أكوام الحطب في الطرف الشرقي منها، وتكرر هذا الحلم أيضًا حتى العاشرة من العمر أو قريبًا منها مع أننا انتقلنا إلى الدار الجديدة قبل السادسة.

بقي هذا الهاجس يؤرقني إلى أن قرأت وأنا طالب في المعهد العالي للمعلمين،

أن الإنسان لا يمكن أن يحلم بصورٍ لم يرها في يقظته، فعدت إلى أمي وإخوتي أسألهم عمّا إذا كانوا يتذكرون صورة أسد كانت كثيرة الحضور في الدار، فأخبرني أخي إبراهيم بعد مدة، أن أبي كان يضع سجائره في علبة معدنية عليها صورة أسد. إلا أن هذه العلبة بقيت بعيدة عن ذاكرتي أكثر من عامين، لاسيما أنني لم أدرك أيام تدخين والدي التبغ.

بعد سنتين من التفكير ونبش ما في زوايا الذاكرة وتقليبه، عثرت فيها على العلبة، ففي شهر رمضان في حارم كان يجلس والدي بعد صلاة العصر وبعد قراءة بعض السور من القرآن الكريم. تجاه باب البيت المطل على القلعة حيث يعلن من هناك موعد الإفطار، يلفّ التبغ لفافات (سجائر) يضعها في علبة معدنية بانتظار الإفطار. لكن صورة أسدٍ على العلبة لا زالت غائبةً في الذاكرة.

رافقتُ أمي في زيارتها خالي في عفرين حيث كان مدير مال القضاء (المنطقة)، غير أنني لا أذكر عن هذه الزيارة سوى الدقائق التي سبقت الانطلاق للسفر ومشهده: حصان أمام الدار يعدّ للسفر وقد زُيِّن بكرياتٍ حمر من الصوف وخرزات زرقاء وصدفات صغيرة بيضاء.

إلا أن خالي زارنا وهو في عفرين بعد سنة تقريبًا وكنا لا نزال في البيت القديم، وكان والدي في حارم في الإفتاء. وخالي هو كل ما تبقى لأمي من أهلها، لذلك كانت زيارته عيدًا لأمي ولنا أيضًا، وكانت زيارته هذه لنا هي الوحيدة التي أعيها في دارة عزة وحارم أيضًا.

كان يصطحب معه عودًا لا أذكر أنه استعمله وجهازًا لسماع الأغاني لا أذكر أيضًا شكله لأنني شغلت عنه وعن غيره بسماع أغنيات على أقراص سوداء، وكان منها بخاصة أغنية لـ (لور دكاش)، أظن أنها كانت عن الصبح أو الفجر، وكان يسمع مع صوتها سقسقة عصافير، كنت أظنها تخرج من مكانٍ قريب من الجهاز وتغادر البيت من نافذة فيه قريبة من الجهاز.

في زيارة خالي هذه على ندرة زياراته لا أذكر شيئًا عنه أو عن أمي، فقد شغلني عنهما واستحوذ عليّ الجهاز و(لور دكاش) وعصافيرها، لقد كان صوتها واللحن يحاكيان أذانًا جميلًا أو ما يرافقه من ابتهالات، وكانت عصافيرها تسبح في الفضاء وهي خارجة من النافذة لتختفي صاعدة في ملكوت السماوات. في هذه الزيارة خرقت قواعد الانجذاب التي ذكرت، فلم تكن أمي ولا كان خالي مركز اهتمامي، إنما كان الجهاز و(لور دكاش) وعصافيرها مركز اهتمامي. والسبب أنهما، الجهاز و(لور دكاش)، كانا مفاجأة لي وأعجوبة، وبقيت صورة خالي في ذهني تصورات أحوّم بها بلا هوادة. تتغير باستمرار للأبهى دائمًا وللأمثل الذي أحبه أن يكون خالي، ولم أره إلا بعد انتقالي من حارم إلى التجهيز في حلب.

كان من رفاقي ابن عمي عارف، وقد ولد بعد وفاة والده الشيخ عارف شابًا في الثلاثينيات من العمر، وكنت أحبه كثيرًا، ولا أزال، لأسباب كثيرة منها يتمه المبكّر. أذكر أنني كنت معه نرافق أمَّيْنا قبل الغروب إلى كرمٍ لهم في أطراف القرية من الجنوب، وكنت وإياه نتسلق شجرة تينٍ صغيرة ثم نقفز عنها. فانكسرت رجله وهو يقفز، فحملته أمه إلى "المجبّر" ليعالج رجله. كان ذلك في أواخر الصيف الذي دخلت فيه مدرسة دارة عزة.

وفي أحد أيام الجمعة في حارم من سنة دراستي الأولى فيها، وكنت مع والدي في البازار فاقترب أحد الباعة من دارة عزة لينقل إليه أخبار الأهل والقرية فسمعته يقول له، زوجة أخيك عارف أعطتك عمرها، لقد توفيت يوم الثلاثاء، فحزنت كثيرًا ولم أطق متابعة الحديث، إذ اغرورقت عيناي بالدموع لأن عارفًا أصبح يتيم الأبوين وهو لم يتجاوز السابعة، وكان أخوه الأكبر راجي قد أنهى الدراسة الابتدائية في مدرسة الأيتام في حلب، في الصيف الماضي، فأصبح مسؤولًا عن الأسرة!

بدأت التعلُّم في دارة عزة في كُتَّاب الشيخ عبد الرحمن بتّور، الملاصق لبيتنا القديم، ذلك لأن مدرسة حارم لم تقبلني فيها لصغر سنّي، إلا أنني انتقلت إلى مدرسة دارة عزة لدى افتتاح عامها الدراسي في تشرين في جامع الشيخ إبراهيم، وهو جامع صغير قريب من دارنا الجديدة.

تركت الكتّاب ولمّا أُنْهِ الأجزاء الخمسة الأخيرة من القرآن الكريم. وقَبِلني نصرت أفندي معلم المدرسة الوحيد في مدرسته لحاجتها إلى التلاميذ لتصبح مدرسة يكون فيها هو المعلم الوحيد.

كان عددنا قليلًا وكنت أصغرهم سنًا، طفلًا بين رجالٍ أو هكذا كنت أراهم. كانوا جميعًا من أبناء القلّة التي تسمح أحوالها المادية بتعليم أبنائها. كان كلّ منا يحمل دفترًا بيد والدواة ومعها الأقلام باليد الأخرى، ذلك لأن الدواة موضوعة في غلافٍ من سبيكةٍ نحاسية، ثخينٍ ثقيل، يمتد منه ذراع أجوف يتسع جوفه لريشة الكتابة ومسكتها ولأقلامٍ عدّة. فنبدو كأننا نحمل دفترًا بيد وسلاحًا باليد الأخرى يذكِّر بـ "الطبنجة".

كنا نتلقى الدرس جلوسًا على حُصُر الجامع. لا أذكر وجود السبّورة في هذه المدرسة الجامع. لم ألبث في هذه المدرسة أكثر من عامٍ دراسي أو بعضه، فقد نقلني والدي إلى مدرسة حارم.

كانت مدرسةً جميلةً حديثة البناء زُيِّنت أدراجها ومداخلها بكتابات تحضّ على التعلم والعلم. قُبلت في صف "الشعبة"، ولم أُمضِ شهرًا فيه حتى نُقلت إلى الصف الأول، ثم نُقلت منه بعد أسابيع مرةً ثانيةً إلى الصف الثاني، وكان مدير المدرسة الشيخ عطا الصابوني سينقلني مرةً ثالثةً إلى الصف الثالث إلا أن والدي رفض خشية إرهاقي.

لا شك أنني أفدت كثيرًا من السنة التي قضيتها في مدرسة دارة عزّة، وأنني بذلت جهدًا لأحظى برضا معلمي هذا الصرح الحديث ولأبرز بين تلاميذه. كان من معلمينا

الأستاذ تيودور معلم اللغة الفرنسية الذي يسكن في المدرسة، في إحدى غرف الطابق الأرضي المطلّة على التلاميذ الداخلين إلى المدرسة أو إلى باحتها، وكان كثير منهم يزوده بالسرطانات من أنهار حارم، والأستاذ جورج جاميج معلم الرسم...

لقد كان معلمونا في المدرسة الابتدائية بحارم مجموعة مرموقة من المعلمين. أذكر أنني في إحدى زياراتي بيروت في السبعينيات وقع نظري على مؤسسةٍ لتعليم الرسم للأطفال تحمل اسم معلمنا جورج جاميج. أذكر أنه كان يعلمنا كيف نرسم الشكل أو الموضوع المطلوب، بمجموعة خطوط متقطّعةٍ مترابطةٍ وينصحنا، اقتصادًا للنفقة باستخدام الورق الأسمر الذي كان يستعمله الباعة لصرِّ بعض ما يبيعون.

أما أستاذ اللغة الفرنسية فكان يمر في الدرس بكل تلميذٍ ويقوِّم كتابته الأحرفَ والكلمات، كما يقوّم لفظ التلميذ الكلمةَ إفراديًّا. هؤلاء علمونا في المدرسة الابتدائية بحارم في الثلاثينيات، فهل نجد أمثالهم اليوم في مدارسنا الثانوية؟

كانت مدرسة حارم سنة قبولي فيها (أي في السنة الدراسية ١٩٣٤/ ١٩٣٥) قد استكملت الصف الخامس وافتتحته حديثًا، وهو الصف المؤهل لدخول الامتحانات العامة للحصول على الشهادة الابتدائية. وكان بعض تلاميذها من القرى والبلدات المجاورة. أذكر أن "الصادق" أحد زملائي في الصف الخامس، كان يأتي من سلقين على دابّةٍ ليتابع الدراسة معنا، ثم زاملت أخاه أحمد علّوظى في كلية العلوم بدمشق بعد عقد من الزمن.

بُنيت مدرسة حارم على قطعة منبسطة متسعة من الأرض. وقد سُوِّرت الأرض، وجُعل مدخلها في الجهة الغربية من السور. بين المدخل وبناء المدرسة أرض مستطيلة الشكل واسعة، قسّمت مصاطب على هيئة مستطيلاتٍ صغيرةٍ مساحةُ كلٍّ منها عدة أمتار مربعة، وخصِّصت كلُّ مجموعة من التلاميذ بمصطبةٍ منها، ولا يزيد عدد تلاميذ

المجموعة على أربعة... وعلى كل مجموعة أن تزرع مصطبتها بالبقول والخضار والأزهار المناسبة لأوقات السنة، ويصنَّف الفائزون في زراعة مصاطبهم ويُجزون على تفوقهم.

لقد حبَّبت إليّ المصطبةُ الزراعةَ وجعلتني أرافق أمي في الصيف بشوقٍ إلى أراضٍ زراعية لنا في قرية تلعادة القريبة من دارة عزة. وقد يكون حب الزراعة الذي نما وترعرع على مصاطب مدرستي في حارم قد دفعني إلى إنشاء مزرعة صغيرة في ريف دمشق.

لا أذكر كيف كنت أكتب وظائفي وأراجع دروسي في البيت بدارة عزة، وأغلب الظن أنني كنت أكتفي بما أتعلمه في المدرسة وفي الكتّاب. أما في حارم فقد كان لي صندوق خشبي صغير أضع فيه كتبي ودفاتري، وفي أعلاه إلى اليمين مكان خاص للأقلام والمحبرة والمبراة... وإذا أغلق الصندوق أمكن استعمال سطحه للقراءة والكتابة.

وكثيرًا ما كنت أضع في الليل مصباح زيت "الكاز" على طرفه للاستنارة، وقد استيقظ والدي مرّة في الليل أو لصلاة الصبح فرآني قد غفوت على الصندوق فأيقظني وحملني إلى الفراش وحظر عليّ الدراسة في الليل بعد وقت نومه خشية انقلاب المصباح من على الصندوق بحركةٍ طائشةٍ والتسبُّب بحريق وكارثة.

لا أذكر أنني في دراستي كنت أعزف عن دراسة بعض المواد، بل كنت أرى فيها جميعها الجديد من المعلومات المفيدة المحببة إليّ لما تحمله من المعرفة التي أجهلها. وكانت مسائل الحساب تروّض العقل وتنمي الذكاء، إلا أنني كنت استصعب حفظ ما لا يفهم، وما لا يمكن ربطه بسياقٍ مقبول، أو ما لا يترك في النفس أثرًا...

أذكر مرةً كنت أراجع درس اللغة الفرنسية، وكان فيه الكثير من الكلمات التي وجدتُ طرائق لحفظها باستثناء كلمةٍ واحدة لم أجد طريقة مناسبةً لحفظها، وكنت أجوب أرض الدار المتطاولة ذهابًا وإيابًا مارًا أمام باب البيت وكانت أمي تعجن، فقالت لي يا بني لقد حفظت كل الكلمات بسهولة واستعصى عليك حفظ كلمةٍ رغم تكرار المحاولة حتى لقد حفظتها أنا "لاتاش: البقعة" فحفظتها أنا أيضًا منذ ذلك.

قضيت مع أخي محمود في المدرسة الابتدائية سنةً واحدةً هي سنة قبولي فيها، وكان هو في الصف الخامس، ثم التقينا مرة ثانية في السلطاني، كان في الصف التاسع ودخلت أنا بعد نجاحي في امتحانات الشهادة الابتدائية في الصف السادس.

أما في مدرسة حارم فلم تنشأ بيننا صلات تعليمية في البيت أو في المدرسة، وقد كان المدير الشيخ عطا الصابوني يستحضرني أحيانًا للصف الخامس لأعرب ما استصعب تلاميذُ الصف إعرابَه. وقد يكون سبب ضمور الصلات التعليمية بأخي محمود أن إخوتي الأكبر سنًّا تكامل تعليمهم وهم كبار نسبيًّا لعدم انتشار التعليم في المرحلة الابتدائية كاملًا في القرى وبعض البلدات. وهذا هو سبب وجود إخوتي في السلطاني في مرحلة متأخرة من العمر نسبيًّا.

كانت نزهاتنا في حارم في البساتين، وهي ممتدة بعمق في السهول غربيّ البلدة على مدى النظر، وقلّما يفكر أحدنا في الاتجاه شرقًا للنزهة فيصعد الجبل تاركًا جمال البساتين وأشجارها الخضراء التي تزينها الأزهار أو الفواكه الجميلة التي تتنوع باختلاف أوقات السنة من (الإيكي دنيا) في منتصف الربيع إلى أنواع البرتقال حتى أواخر الشتاء.

وقد يفكر بعضنا في الاتجاه شرقًا بالقرب من المدرسة في الربيع مع بعض أصدقائه لجني بعض اللوز الأخضر من الروابي المحيطة بالمدرسة، ولكننا لا نبتعد كثيرًا عنها، فنبقيها على مرأى منّا. إلا أننا قد نتوغل بإشراف أحد معلمينا في الربيع غربًا حتى نخلّف البساتين وراءنا ونلتقي النهر الذي اتجه إلى الشمال الغربي بعد خروجه من الجامع والطاحون واتسع مجراه في هذه السهول متجهًا إلى "المخاضة" وازدادت غزارته بما يصبّ فيه من الينابيع الأخرى الكثيرة في حارم.

اجتاز معلمنا النهر مرة متنقلًا على حجارةٍ متناثرةٍ فوق مجراه، وتَبِعْنا معلمَنا بالقفز من حجرةٍ إلى أخرى، وتابعت رفاقي بصعوبة. قضينا بعض الوقت ليس بعيدًا عن

النهر، ثم عدنا بعد ذلك، فلما اقتربنا من موقع اجتياز النهر رأينا أن بعض الحجارة قد غمرتها المياه، فتملكني خوف شديد من الوقوع والغرق في النهر الذي ساعدنا المعلم على اجتيازه، إلا أن الخوف من الغرق فيه استقر في نفسي. ولا أزال، وقد بلغت الثمانينيات من العمر، أرى في نومي أنهارًا تغمر ما حولها وأنا أحاول اجتيازها، أو تحاشي فيضانها خشية الغرق.

من رفاقي في مدرسة حارم الذين لقيتهم فيما بعد: مصطفى عويرة ومحمود حريتاني وأسعد مقيّد. الأول منهم من أبناء حارم، وكنت معه على مقعد واحد في الصف الثاني، لقيته في دمشق منذ أكثر من ثلاثين عامًا، في دكانٍ لبيع الأجهزة الكهربائية، وقد تفضّل وزارني في بيتي منذ عدة سنوات.

أما الآخران فكانا من أبناء رجال الدرك وكان أسعد هادئًا يتصرف كمن هو أكبر سنًّا، وقد التقينا بعد عقدين ثم بعد ثلاثة عقود، وقد أصبح ضابطًا في الجيش في دمشق برتبة لواء، ووجدته، من حيث الهدوء والشكل على الصورة التي كان عليها في مدرسة حارم تقريبًا. أما محمود حريتاني فنشأت بيننا صداقة في لقائنا طالبَين ليليَّيْن أربع سنوات في تجهيز حلب السلطاني (ثانوية المأمون اليوم) ووثّقت عراها الأيام، ولا تزال قويةً رغم ندرة اللقاءات.

انتسبت إلى فرقة الكشافة في المدرسة بحارم. كنت توّاقًا إلى تجريب نمط جديد من الألبسة لعلِّي أبدو فيه أكبر وأقرب إلى زملائي هيئة وشكلًا. كان البنطال في لباس الكشّاف قصيرًا ولكنه يغطي الركبتين، وعلى الرأس كوفية بيضاء فوقها عقال أسود، ولم أجد في اللباس أمنيتي.

زرت مع الفرقة قلعة سمعان، كما كنت فيها في عداد المشاركين في حلب باستقبال وفدنا العائد من باريس بعد انتهاء مفاوضات الاستقلال، وخيَّمت فرق الكشّافة

المستقبِلة، بعضُها في جبل النحاس على مدخل حلب من الغرب، وبعض آخر - وكنّا (كشّافة حارم) منه - على أرضٍ أقيم عليها فيما بعد جامع أبي بكر الصديق على شارع رئيسي في الجميلية كان يمر فيه خطّ حافلات الترام.

شهدنا في حارم وأنا في الصف الخامس، حدّة الصراع مع الأتراك في الاستفتاء على لواء إسكندرون. كان يتزعم الكتلة الوطنية في حارم مصطفى (حاج حسّو) برمدا، ولا أذكر وجود حرس وطني في حارم، أو أنه كان قليل الشأن ضعيف الحضور باستثناء ما كنت أسمعه من نشيد "أمة العرب اذكرينا..." وكان اللحن مأخوذًا من أغنية تركية كانت شهيرة في تلك الأيام "جنق قلعة إيجنده" وتقليدًا ساذجًا له.

إجمالًا كان الحرس الوطني، إن كان قد وجد في حارم، صغير الأهمية قزمًا يستعير لحن نشيده من لحن نشيد شعبيٍّ تركي يعبر عن اعتزاز الشعب التركي في صموده أمام غزو الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، فكيف يصمد هذا القزم في ساحة صراعٍ مرير على لواء إسكندرون، وبخاصة بعد أفول مكانة الحرس الوطني في عام ١٩٣٧.

في الأسابيع التي سبقت موعد الاستفتاء، اشتد العمل في الإعداد له، وكان مرور أبناء العرب العائدين إليه من مختلف بقاع الوطن للمشاركة في الاستفتاء متعذرًا من نقاط المرور الهامة كـ(باب الهوى) حيث توجد ضابطة المرور التي يسيطر عليها الفرنسيون، وهؤلاء كانوا يعملون على عرقلة عودة اللوائيين العرب في الوقت المحدد للاستفتاء لئلّا يشاركوا فيه. لذلك عمدت اللجنة التي قادت الحملة العربية للاستفتاء، إلى تحديد النقاط التي تضعف فيها سيطرة الفرنسيين المناصرين لتتريك اللواء، فكانت حارم من أهمها، ذلك لأنها مدينة سورية على مدخلٍ مفتوحٍ على اللواء.

كان لوائيون عرب يعودون إلى اللواء عن طريق حارم مع مواشيهم وداوبّهم، إذ لا يمكن ترك الثروات الحيوانية دون أصحابها. وكان مرور أمثال هؤلاء من نقاط العبور

الهامة في الوقت المحدد للاستفتاء شبه مستحيل، إذ يسهل عرقلة مرورهم الذي يثقله ما يجرّون معهم من الماشية، وهذا ما جعل حارم هامة جدًّا للحملة العربية لدعم عروبة اللواء في الاستفتاء. لقد أصبحت بساتينها ممرًا آمنًا لآلاف العرب اللوائيين العائدين سيرًا على الأقدام أو على دوابّهم ترافقهم ثرواتهم الحيوانية.

كان يتولى الحملة العربية في حارم رجلٌ في الثلاثينيات أو الأربعينيات من العمر يعتمر العمامة البيضاء التقليدية على طربوش أحمر، نشيطٌ جدًّا سريع الحركة، يُرى تارةً بين الناس العائدين يحيطون به ويحومون حوله، يتفقدهم وينظم مسيرتهم ويكِل أمرهم إلى بعض مساعديه بعد تذليل صعوبات مرورهم قبل أن يغيب. يغيب فجأةً أيامًا من الأسبوع ليعود بجمعٍ غفيرٍ من اللوائيين العرب... نسيت اسم هذا الرجل، وكان عليّ ألّا أنساه، لكن قيل إنه من مدينة ريحا من قضاء (منطقة) إدلب.

واستعدادًا لامتحانات الشهادة الابتدائية اشترى لي والدي بدلةً جديدة، لأتقدم بها إلى الامتحانات في حلب مع المتقدمين من أقضيتها (مناطقها) المختلفة التي تشمل اليوم محافظات حلب وإدلب والرّقة، ولأتصور وأنا مرتديها، وترسل نسخٌ من الصورة مع طلب التقدم للامتحان.

لم يكن في تلك الأيام مصوِّر في حارم، فأرسلني والدي إلى الريحانية (ارتاح) من لواء إسكندرون على درّاجةٍ ناريةٍ مع إبراهيم أفندي (حاج حسّو برمدا). وكانت تلك الدراجة بدعةً جديدةً ووحيدةً في حارم، يهرع الصبية لمشاهدتها كلما سمعوا ضجيجها. وكانت رحلتي عليها إلى الريحانية هي الوحيدة التي ركبت فيها دراجة نارية، كنت أمسك بقوة بإبراهيم أفندي، وكان ضجيج الدراجة وسرعة جريانها يجعلاني استرق النظر إلى القريب مما حولنا، فأحسب أنني سأطير أو أقع، فأُرسل النظر بعيدًا قبل أن أعيده إلى ظهر إبراهيم أفندي ليطمئن قلبي قليلًا.

دخلنا الريحانية في يوم البازار من الأسبوع، ففوجئت فيها بضجيج من نوعٍ آخر، لم أشهد له مثيلًا في بازار حارم، اختلطت فيه أصوات البشر المختلفة، من عربٍ وأتراكٍ وأرمنٍ بمناداتهم واستفساراتهم وأغانيهم المنبعثة من أجهزة معروضة للبيع، والتي كثيرًا ما اختلطت فيها أصوات حيوانات البازار، وما فيه من أوانٍ وتجهيزات معدنيةٍ للزبائن. راقت لي غرابة هذا الضجيج الذي كنت أحاول فيه متابعة سماع نغمٍ غريبٍ أو التمييز بين التركية والأرمنية.

بعد أن صوَّرني مصوِّر أرمني أمام باب دكانٍ مغلقٍ، عدنا إلى حارم. وبقي الحديث عن رحلتي هذه ماتعًا إلى ما بعد انتهاء امتحانات الشهادة في حلب، ولا أزال احتفظ بصورتي في الريحانية ملصقةً على شهادة الدراسة الابتدائية في زاوية عليا منها.

كان علي أن أتقدم إلى فحص الشهادة الابتدائية في حلب، مع جمع غفير من التلاميذ من جميع مدارس المحافظة التي كانت تتألف من محافظات حلب وإدلب والرقة اليوم، وقد يكون مع تلاميذ من جميع مدارس سورية الشمالية.

وكان لي في التجهيز أخوان: إبراهيم ومحمود استأجرا مع بعض زملاء محمود علّيةً من غرفتين في دار بحيّ المشارقة قريبةً من التجهيز، يشغل إحداهما، إبراهيم وهو طالب في صف البكالوريا الثانية، وأقام محمود مع زملائه حسيب كيالي وعبد الله جسّومة ومصطفى رشيد (رام حمداني فيما بعد) في الغرفة الأخرى، وهم جميعًا طلاب في الصف الثامن، وصاروا فيما بعد من ذوي الشأن في الحياة السياسية أو الثقافية في الوطن، فنزلت ضيفًا على إبراهيم. كنت أنصت لما يدور من حديث حول الامتحانات بين إبراهيم وزوّاره من الطلاب، وما يتداولون من نوادر أساتذتهم العلماء الذين تخرجوا من الصوربون أو من مدارس الهندسة الكبرى في فرنسا، فألقت أحاديثهم في نفسي كثيرًا من المهابة والإجلال للتجهيز، واستقر في بالي أنها صرح العلم وأن أساتذتها أئمته، ويجب أن يكون فيها من الطلاب ما يليق بهذا الصرح وبأساتذته!

جاء موعد تقديم فحوص الشهادة الابتدائية، وكان الموعد في مدرسة التجهيز، التي كانت قد أنهت سنتها الدراسية، فدخلتُها جذلانَ لأنني سأصبح تلميذ الأساتذة العلماء في هذا الصرح. والصرح مهيب، تضفي عليه الساحة الواسعة القفرة التي تفضي إليه مزيدًا من المهابة، فازددت ثقةً بنفسي وشوقًا لمقاعد الدرس فيه.

٢. في مدرسة التجهيز (السلطاني) في حلب

بعد نجاحي في فحوص الشهادة الابتدائية، دخلت مسابقة الكراسي المجانية السنوية، وجرت المسابقة في المدرسة ذاتها التي قدمت فيها فحوص الشهادة الابتدائية. والناجح في المسابقة يُقبل في المدرسة طالبًا ليليًّا مجانًا، توفَّر له الإقامة والطعام في المدرسة على نفقة الدولة، ويَلقى فيها رعايةً وأهلًا آخرين.

جاء والدي من حارم ليستأجر لنا غرفةً في المشارقة قريبةً من التجهيز. واصطحبني معه لزيارة خالي في بيته، وكان قد انتقل من عفرين إلى حلب مديرًا لمال قضاء (منطقة) جبل سمعان. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتأمل فيها خالي جيدًا، وجهه وصوته وحديثه وهيئته، إلا أنها كانت المرة الوحيدة أيضًا في زهاء عقد من الزمن، فقد كنت شديد الاحترام له وشديد الخجل منه، وهذا ما أخَّر اتصالي الوثيق به حتى عام ١٩٤٧.

دخلتُ المدرسة طالبًا نظاميًّا بانتظار نتائج المسابقة، أشارك أخي محمودًا الغرفةَ التي أستأجرها والدي في حيّ المشارقة أيضًا. وتذكرت إبّان دخولي المدرسة طالبًا فيها، ما كان يدور حولها وحول أساتذتها من أحاديث.

كان الممر من الباب الخارجي إلى باب البناء طويلًا يقطع ساحة المدرسة الفسيحة كلها ولا يحيط بجانبيه شيء، أو هكذا تراءى لي، يخفف بالنظر إليه من الهواجس، فازداد في نفسي طولًا، ودارت فيها أفكار مبهمة ورؤى غائمة، يستغرق استعراضها في

الحالات العادية ساعات، وكنت أحاول بعينيّ سبر ما يتحرك في جوف مدخل البناء، في البهو، دون هدف.

وما إن اجتزت المدخل وهدأ روعي قليلًا حتى عاد قلبي يخفق لسماع أصوات الأساتذة في الغرف المصطفّة على طرفٍ واحد من الرواق الطويل العريض الممتد على جانبي المدخل، ولم يعكر على الأساتذة الصمت في الغرف إلا صوت طبلٍ يرعد في المدخل ويتردد صداه فيه، فاشتدّ خفقان قلبي من جديد، إلا أن تدفق الطلاب من الغرف يتدافعون كما يتدافع تلاميذ مدرسة حارم عندما يقرع الجرس، أذهب عني الخوف مما تخبئه الغرف وما أجهل من مستقبل الحياة في التجهيز.

بعد تقديم المسابقة اصطحبني أخي إبراهيم إلى مطعم بسيطٍ ونظيفٍ بالقرب من ساعة (باب الفرج) التي أرّخ جدّي لتدشينها ببيتين من الشعر حُفرا في الحجر تحتها مباشرة. وطُعِمنا فيه صحن حمص "مسبحة" عليه بعض الزيت وبجانبه بصل وفليلفة "حسكورية"، وما كنت أعرف أن الحمص يصنع منه هذا الطعام.

وفي المساء اصطحبني أخي إلى "سينما الشرق"، وكان يعرض فيها فيلم "الوردة البيضاء" وفيها جمع غفير من الناس، جلسوا في صفوفٍ تجاه الشاشة، وصدر الصالة مرتفع ومفصول عنها ومزود بمقاعد مريحة نسبيًّا، وبجانب بعض الجالسين فيها نارجيلة يدخن التبغ، ويطل علينا من علٍ جمعٌ أخر. كثرٌ هم في الصالة وملحقاتها مدخنو السجائر، كثرٌ هم أيضًا فيها من تزودوا بأكياسٍ ملئت بأنواع البزر والفستق والحمّص... تختلط أصوات هذه الجموع وتعلو فلا يكاد يسمع كلّ منّا صوت جاره.

وفي الصالة نادل يحمل كَيْلَةً كبيرة فيها ماء يسقي بها العطاش، وفيها أيضًا نادل أو أكثر يحمل في مجمرته"نارة" لطالبيها من مدخني النارجيلة. تخف الضوضاء إذا ما أُطفئت الأنوار في الصالة، ويبدأ عرض "المناظر"، وهي أخبار من شركات أجنبية، كان فيها في ذلك اليوم بعض الأنباء عن ملك ألبانيا أحمد زوغو.

تلا الأخبار فيلم الوردة البيضاء، وكان بالقرب منا شخص حضر العرض من قبل فأخذ يقص على زميله ما سيقوم به بطل الفيلم محمد عبد الوهاب... وإذا انخفض مستوى الصوت في الفيلم، كأن يصبح كلام الممثل همسًا للضرورة، أو لسبب آخر، علت الأصوات في الصالة مناديةً: صوت صوت...

أُعجبت كثيرًا بالسينما وأولعت بها وأدمنت عليها فيما بعد، وتفوَّقت عندي كثيرًا على خيمة "كركوز وعيواظ" التي سبق لي حضور عرضٍ لها في حارم.

إثر نجاحي في مسابقة الكراسي المجانية تركت أخي محمودًا في الغرفة التي استأجرناها وانتقلت إلى الحياة في المدرسة نهارًا وليلًا. لم يُطقْ أخي الوحدة، وعانى كثيرًا واضطربت دراسته فرسب في صفِّه وترك المدرسة.

ومذ قُبلت طالبًا ليليًّا في التجهيز، انتظم أمري في الحياة الليلية، ولم أعد ألتقي في المدرسة أخي محمودًا ورفيقَيْه اللذين كانا معه في علّية المشارقة، عبد الله جسومة ومصطفى رشيد (رام حمداني) فقد غابا عني.

أما حسيب كيالي فقد كنت أراه كالفراشة ينتقل بين جموع الطلاب، خفيف الظل دقيق الملاحظة، يصوغ ما يقع عليه من مشاهد بقوالب ساحرة محبَّبة. ولقد جمعتني بهم الأيام في دمشق بعد أكثر من ثلاثة عقودٍ من الزمن، حسيب كيالي الأديب الكاتب، له مدرسة في الأدب والكتابة، ومصطفى رام حمداني وعبد الله جسّومة تخرجا من كلية الضباط ضابطين، ثم سميا في عهد الوحدة السورية المصرية محافظي حمص واللاذقية، لقيتُهما في دمشق، مصطفى رام حمداني مديرًا لمشروع دمر السكني الذي كان مهددًا بالانهيار والضياع فأنقذه وأتمَّه بنجاح، وعبد الله جسومة مستشارًا قانونيًّا في وزارة الدفاع.

وأما أخي محمود فقد كافح بصبر وشجاعة، فأتقن الفرنسية وتعلم اللغتين اليونانية

والسريانية، ووُلِّي مراقبة آثار محافظة حلب ومنطقة حارم، فكانت له اكتشافات أثرية منها كنيسة في الأطلال التي قامت عليها دارة عزة، وسجّلت اكتشافاته في مجلة العاديات السورية وفي وثائق العالم الآثاري جورج شالينكو في كتابه عن المدن الميّتة اليونانية الرومانية البيزنطية في سورية الشمالية، وقد أهداه نسخة منه في مجلدين ضخمين، وأشار في إهدائه له إلى مناقبه في الآثار.

وأما أخي إبراهيم الذي كان يشغل الغرفة الأخرى من العلّية، فقد انتسب إلى كلية الحقوق طالبًا إلى جانب عمله المؤقَّت في مالية قضاء عزاز. وكان كلما سافر منها إلى الكلية في دمشق، يمر بي ويتفقد أحوالي في التجهيز، هو من خارج سورها وأنا من داخله وبالقرب من الباب. والسور الحجري هناك منخفض يعلوه شبك معدني مريح للقاء الزائرين. ما كان أجمل من تلك اللقاءات الخاطفة ولا أوقع في النفس. كانت تجمعني به من خلال شبك السور، وكانت على قِصَرها تجمع فرحة اللقاء وبهجته، وأسى الفراق ولوعته.

وكنت أنا أيضًا أتفقده على طريقتي: أنصت لسماع نبرات صوته وأصغي لحديثه، وأتأمل مليًّا قسمات وجهه وكأني أتفقد فيها ما ترك "حبّ الشباب" من آثار على خدّيه، وأتفقد النُّدوب في شفته العليا وحاجبه، تلك التي يكاد لا يميزها ذووه. فإذا حان وقت السفر يودعني وينطلق إلى محطة القطار، فأتبعه بنظري وأنا أتأمل مشيته وقدّه إلى أن يغيب تاركًا لعالم الذكريات دوره. كانت زياراته القليلة والقصيرة تلك، هي الوحيدة من الأهل، بل من غيرهم أيضًا في التجهيز.

كنتُ في التجهيز أصغرَ زملائي سنًّا وجسمًا، وفي صفنا، الصف السادس، شبابٌ جسام وَخَطَ الشيب رؤوس بعضهم، منهم من يدخن التبغ خلسة في دورات المياه، وكان بينهم شاب متزوج يتوالى غيابه أسبوعيًّا للقاء زوجته في بلده.

التقيت في التجهيز محمود حريتاني زميلي في مدرسة حارم وكان معي طالبًا ليليًّا في التجهيز وتوطدت الصداقة بيننا فيها. وكان بين أصدقاء الحياة الليلية هشام درويش وجسمه شبيه بجسمي وقد يكون من سنِّي أيضًا، إلا أنه كان يدخن في صالات السينما عندما تُطفأ الأنوار فيها وكاد يجرني في سنٍّ مبكّرةٍ إلى فئة المدخنين.

ومن أصدقاء الحياة الليلية نامي شمس الدين (نامي عثمان فيما بعد) وهو من أصل شركسي، وكانت مظاهر الرفاهية والدلال باديةً عليه، فقد اصطحب معه دراجة هوائية وكان تلميذًا لأخي محمد فائق في جرابلس. وقد حظيت معه برعاية شابين مهذّبين من أصولٍ شركسية غالبًا، كانا في صف البكالوريا، وكان يمتّ إليهما بصلة، ذكرني باسمَيْهما وأنا في أمانة المجمع، رفيق الدراسة في السلطاني نامي عثمان، إنهما عزت رشيد وطلعت حسن، لقينا منهما حدبًا ورعاية.

وفي سنتي الأولى في التجهيز تعرّفت "المظاهرات" (التظاهرات) وما يرافقها من مطاردة قوات الأمن. وفي ذكرى وعد بلفور خطب فينا طالب في صف البكالوريا الثانية وضع عقالًا وكوفيّةً بيضاء على رأسه وأطلّ علينا من شرفة أحد المنازل، قالوا إن اسمه محمد الفاضل، ألقى في خطابه قصيدة لا أزال أذكر منها هذا البيت:

إن يكــن طــه نبيّــي فأنــا   عيسوي الخلق قرشيّ الدم

مؤكدًا أن الدين لله والوطن للجميع، وهو الشعار الذي رُفع في تلك الأيام لجمع شمل المواطنين من المسلمين والمسيحيين، وقد لقيته بعد عقدٍ من الزمن أستاذًا في كلية الحقوق.

ومدرسة التجهيز مدرسة بناها العثمانيون في عام ١٨٩٢ لهذه الغاية، مدرسة نهاريةً ليلية، وهي في طرازها وهندستها وحيدة في سورية من حيث المستوى والهندسة والاتساع. خُصِّص الطابق الثاني (العُلوي) للإدارة العليا: للمدير ومعاونيه والمكتبة

وقاعة المحاضرات، وللحياة الليلية: لمهاجع الطلاب والمراقبين، الليليين من النظّار والعاملين في نظافة المهاجع وطلابها.

ولا أزال أذكر تلك السيدة التي كانت تهتم بنظافة أسرَّتنا وما عليها وغسيل ثيابنا وكيّ قمصاننا، إنها "كاترينا" كانت أبرز مكلَّفات هذه المهمة. وكان أبو محمد يتولى إيقاظنا مع الناظر المراقب الليلي. كانت أرضية هذا الطابق من الخشب القويّ السميك فيساعد على تضخيم صوت وقع أقدام السائرين عليه من الطلاب، ولاسيما أولئك الذين يستعدون "بالقبقاب" لصلاة الصبح في مسجد المدرسة. إن ضجيج حركتهم يجرّ النؤوم من فراشه. فالطابق العلوي أو الثاني إذن صالح في النهار للإدارة العليا لهدوئه، ومفضل لها على الطابق الأرضي الذي يحتضن الطلاب وجلبتهم.

كانت ليلة الجمعة من كل أسبوع مخصصة للسينما وللحمام، نرتادهما جماعات، وتُحمَّل مسؤولية عدم تسرّب أحدٍ من المجموعة، لأحد الطلاب من الصفوف المتقدمة أو لمسؤول من الإدارة. وقد يرافقنا إلى السينما "الناظر" المسؤول عن النظام ليلًا، ويُتفق عادةً مع إدارة السينما على قبول عددٍ من أفراد المجموعة مجانًا.

في سنتي الأولى شاهدت مع مجموعةٍ من الطلاب الفيلم الشهير "ذهب مع الريح" وهو إلى جانب قيمته الفنيّة أول فيلم طويل وأول فيلم ملوّن حضرت عرضه. كذلك حضرت عرض الفيلم الفرنسي "إني أتهم"، وكانت طبول الحرب تدق بقوة، وكانت المناظر التي تسبق الفيلم تشارك في دقّ الطبول، فكانت تعرض خط ماجينو على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وفرنسا، واعتداءات "المحور" ألمانيا وإيطاليا في أوربا ولاسيما دخول الجيش الألماني بولونيا.

ثم أُعلنت الحرب فاحتل الفرنسيون في الصيف مدرستنا، فعدنا في بداية السنة الدراسية التالية (٣٩/ ٤٠) مبعدين إلى مدرسة ابتدائية أخليت من طلابها لتستوعبنا، بعيدًا عن مدرسة التجهيز الواسعة التي بنيت لتكون مدرسة ليلية نهارية.

تقع هذه المدرسة، التي تعرف بمدرسة المحمص أو العرفان، في حلب القديمة، على مقربةٍ من مجموعة أسواقها القديمة، في زقاقٍ متفرعٍ عن سوق العلبية أو الزرب الذي ينتهي بباب يغلقه حارس السوق ليلًا ويؤدي في النهار إلى الطريق الذي يحيط بالقلعة.

والمدرسة مسوّرة بسورٍ عالٍ يفصلها عن العالم الخارجي ويحجبه عن النظر، وتتوسطها باحة ضيّقة مكسوة بالبلاط، ويتصل بها ملحق سيّئ المداخل ضيّق كثير الالتفاف. وفي هذا الملحق تكدّس الطلاب الليليون، وأُعدّ مهجعًا لهم. لا أذكر ماذا حلّ بكاترينا وأبي محمد ورهطهما، ولا أذكر أين كان المطعم في هذه المدرسة.

بعد زهاء شهرٍ نقلت مهاجع طلاب الصفوف الدنيا، أي صغار الطلبة وكنت منهم، إلى دارٍ في محلَّة الباب الأحمر، على بعد زهاء كيلومترين اثنين من المدرسة. نتلقى الدروس في المدرسة ونطالع فيها مطالعات مسائية وصباحية، ونتناول وجبات طعامنا الثلاث، ونخرج في الليل منها بعد المطالعتين المسائيتين متوجهين رَمَلًا إلى الباب الأحمر لنقضي بعض الساعات في مهاجعنا.

حلّ الركض من المدرسة إلى الباب الأحمر والعودة إلى المدرسة في الصباح الباكر محلَّ معظم النشاط الرياضي. كان حارس السوق يفتح الباب في الذهاب والإياب لأننا نخرج من المدرسة في الظلام ونعود إليها قبل شروق الشمس لنستكمل مطالعاتنا بمطالعة صباحيةٍ ولغسل وجوهنا وتناول فطورنا قبل موعد الدرس في الثامنة صباحًا.

وفي شتاء حلب القاسي يتجمَّد الماء في الصنابير، فنُدخل أصابعَنا الصغيرة في فوّهة الصنبور لكسر الجليد المتشكل فيها. كنا نرتعد من البرد في المهاجع ونرتعد منه في فراشنا دقائق عديدة. رغم هذه الصعوبات كنّا نخلق في المهاجع أجواء التسلية والمرح برواية ما جرى بين بعض الطلاب وأساتذتهم، وفي مهجعنا الصغير كان أحد زملائنا

يجيد الغناء والرقص، فيخترع الألحان ليحركنا ويدخل السرور على قلوبنا، إذ لا سينما هناك ولا كركوز.

إنها السنة الأولى في الحرب، فالتعتيم يعم الشوارع ويشتد الحذر من الخروج ليلًا إلا في جموع غفيرة كجموعنا. عندما نقطع الطريق بين المدرسة والباب الأحمر، يتقدمنا مراقب ويلحق بنا آخر يتفقد المتخلفين ويحميهم، وكل منهما مزود بصافرةٍ للتنبيه والتحذير. كنّا نرى في الباحة الواسعة لجامع العادلية، جنوب المدرسة وقريبًا منها، متنفّسًا لنا نتمتع فيها بدفء الشمس والحركة، ويرى في الجامع كل من يطلب الهدوء والعزلة مُنيته للدراسة، فيحتل السبّاقون منا زواياهم فيه منذ تباشير الربيع، ويجوبون أروقة الجامع بعد الصلاة، وهم يستذكرون ما قرؤوه، ويتذاكرون في المستصعب من الدروس.

لقد كان جامع العادلية خير ما لقيناه في مدرسة المحمص. لم تنتهِ سنتنا الدراسية هذه قبل أن يغزونا القمل والجرب، وكلاهما من نقص النظافة. أذكر أن صانعي الحلويات كانوا يستعينون بالعسل يضاف إلى السكّر الأحمر الرطب الذي يصعب الحصول عليه رغم رداءته.

عدنا مع بدء السنة الدراسية الجديدة (١٩٤٠/ ١٩٤١) إلى مدرستنا، إلى بيتنا، إلى التجهيز أو السلطاني. لقد اعتاض طلاب الصفوف الأولى وهم صغار الطلبة، وكنت منهم، بالتجهيز طلبًا للعلم، عن بعض ما خسروه: دفء الأسرة وحنان الوالدين ورعايتهما، فجمعتهم مدرسة التجهيز في الغربة واحتضنتهم بحنانٍ هم صانعوه، بالألفة في الغربة عن الأهل، جمعتهم كما كان يجمعهم البيت، فوجدوا فيها بعض العوض، فنَمتْ محبتُها في قلوبهم واشتد تعلقهم بها. ولم تفلح مدرسة المحمص في القيام بدور التجهيز لأنها لم تحتضنهم ليل نهار، ولربما كان سيتاح لها أن تنمّي فينا

الشعور بالعزلة لو قضينا فيها السنوات الستّ الباقيات لنا في التعليم الثانوي، وترسّخ في نفوسنا ذكرى مؤلمة، على النقيض من تلك التي غرستْها مدرسة التجهيز.

لم أعد أذكر ممن كانوا في مدرسة المحمص أكثر من أستاذين اثنين، الشيخ طاهر الكيالي الذي كان يتساءل عمّا إذا كنا نزن بيت الشعر بقياس شطريه بعود الكبريت، والأستاذ عبد الوهاب أدهم الذي علمنا فيها اللغة العربية وكان مثالًا للأناقة. أما الأستاذ عقيلي معلم الموسيقا، فكان يُدخل على قلوبنا بعض نسمات الحياة الإنسانية، عندما نسمع من بُعد قصيدته "ليلى" يغنِّيها في مجموعة من طلاب البكالوريا في غرفةٍ منعزلةٍ. ليلى كانت الصلة الوحيدة بالحياة الإنسانية وأحاسيسها في مدرسة المحمص.

عدنا إلى التجهيز وعاد معنا أبو محمد وطبله، وعاد بشير أفندي إلى غرفته تحت الدرج ليس بعيدًا عن الطبل، وعاد تحسين أفندي والنظّار (الموجهون)، وعاد أساتذتنا وكأنهم لم يكونوا معنا في المحمص، عادوا إلينا مع المدرسة. إن الشعور بالغربة طغى في المحمص، حتى أضحى شعورًا بالضياع.

عدنا إلى التجهيز وعدنا إلى التظاهرات حتى كادت تصبح حياتنا اليومية في التجهيز تظاهرات والتحضير لها. وكانت الدروس تتخلل أوقات التحضير للتظاهرات، وقد انخفض عدد أيام الدراسة في بعض السنوات حتى قارب ثمانين يومًا فقط، واشتد تواتر المظاهرات في السنوات ١٩٤١ و ١٩٤٤ و ١٩٤٥.

قبل دخول قوات الحلفاء سورية، كان الوجود الفرنسي فيها تابعًا لحكومة (فيشي) التي كانت تعمل على تجميع الحبوب وإرسالها إلى فرنسا. وأنشأت "مصلحة الميرة" لضبط حركة محاصيل الحبوب، فارتفعت أسعارها كثيرًا وانتشر الفقر، وأصبح شعار المظاهرات "نريد خبزًا لنا"، لذلك ناصرت فئاتٌ سورية عديدة والرأي العام ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١. إن فشل تلك الثورة أجّج النقمة على

الفرنسيين وأثار عنف المظاهرات التي أدت في آذار (١٩٤١) إلى إصابة الطالب مصطفى النعساني برصاصة في رأسه في مظاهرات قادها أساتذة التجهيز الشيخ طاهر كيالي ووهبي الحريري وشكيب الجابري.

دخل الفرنسيون التجهيز بعد حصارٍ دام ساعات. وكنت مع لفيف كثيفٍ من الطلاب في البهو الواسع تجاه مدخل بناء المدرسة، والبهو ينتهي في طرفيه بدرج إلى الطابق العلوي. لم أعد أذكر: هل كان تجمُّعُنا في البهو استجابةً لدعوةٍ من المدير الأستاذ هاشم الفصيح الذي كان يقف تجاه نهاية الدرج، أم لدعوةِ لجنة الطلاب؟ وأخذ يشقّ تجمُّعَنا ضابطٌ فرنسي صعد الدرج والحديث جارٍ بينه وبين الأستاذ الفصيح، والانفعال بادٍ على وجهه، ولما أصبح قريبًا منه ضربه على وجهه. لقد كانت تلك أكثر من ضربة على وجه كلٍّ منا، وقد زاد احترامنا للأستاذ الفصيح.

كان زميلنا نادر عطار وهو طالب نهاري يأتينا بالجديد من أخبار الحرب صباح كلِّ يوم، وكانت قلوبنا جميعًا مع المحور، إنه عدو أعدائنا فرنسا وإنكلترا والصهاينة في فلسطين، وفجأة انقلب رأي زميلنا نامي شمس الدين (نامي عثمان فيما بعد) وأصبح يرى أن المحور سيخسر الحرب، وأخذ يعتلي سدّة إحدى نوافذ قاعة المطالعة قبالة النافذة التي كان يعتلي سدّتها نادر عطار وكل منهما يدافع عن رأيه. كانت الأسئلة تنهال على نامي من الجميع. أما نادر فكان غالبًا يجيب عن أسئلة نامي، لأن قلوبنا كانت مع نادر. هذا الحوار اليومي أكسبنا خبرة في الحرب القائمة وفي شؤون الحرب عامة.

كانت تُعقد أيضًا في قاعة المطالعة حلقاتُ تحليل ونقد الأفلام التي نَحضر عرضها في أثناء الأسبوع وخاصة أفلام ليالي الجمعة لأن روادها أكثر نسبيًّا، وتعقد هذه الحلقات أيضًا بعد خوض فريق التجهيز مباراة رياضية أو غيرها من الشؤون الثقافية أو السياسية، أو الاجتماعية الخاصة بالمدرسة، كالإضراب عن تناول طعام المطعم

إشعارًا بعدم الرضا عما يقدَّم فيه. وإذا ما تقرر الإضراب يدخل الطلاب المطعم دون جلبةٍ لتمزيق أرغفة الخبز فقط ويخرجون بهدوء. ويخرِج الطلاب مخزوناتهم من التين المجفف والجوز وأنواع الخبز... ويُشوى الجبن في الخبز على غطاء مدفأة الحطب في الشتاء، ويتناول الجميع وجبتهم تلك. وكثيرًا ما يستمر الإضراب إلى أن يتمَّ تأليف لجنة من الطلاب والإدارة تحسّن الأوضاع وتشرف على تنفيذ الاتفاق.

كل تلك القرارات كانت تُتَّخذ في اجتماعات تجري في غرف المطالعة. أما الإضراب عن الدروس والمظاهرات فتقررها لجان من الطلاب الليليين والنهاريين، والكبيرة منها تشترك في دراستها وتنظيمها المدارس المشاركة الأخرى، إلا أن مركز الثقل والتوجيه يبقيان في التجهيز.

دخلت قوات الحلفاء سورية بعد قتالٍ مع قوات فرنسا (فيشي) لم يدم طويلًا في صيف عام ١٩٤١، وضرب طيران الحلفاء القلعة وبناية كبّابة الحمراء لاعتقادهم بوجود عسكريين ألمان فيهما. إلا أن مخاوف السكان في حلب من ويلات الحروب، جعلت كثيرًا منهم ينزح إلى القرى المجاورة. وآوتْ دارة عزة الكثير من النازحين بعض الوقت، وكان جلّهم من سكانها الأصليين، الذين هاجروا أو هاجر آباؤهم قديمًا إلى حلب طلبًا للرزق. وازدادت الجيوش كثافةً وتنوعًا من بريطانيين حتى الأستراليين مرورًا بالمستعمرات الإفريقية، فاشتد الخوف من انتشار الأوبئة كالتيفوس والجرب، وحَلَّت فرنسا الحرة بقيادة (ديغول) محلَّ فرنسا (فيشي).

وقد زار ديغول قلعة سمعان مارًّا بدارة عزة، وعُرِض على الناس المتجمِّعين أمام مخفر الدرك (الشرطة بعدئذٍ) بدارة عزة بعد غروب الشمس شريط سينمائي عن الحرب القائمة. وكان أول عرضٍ سينمائي فيها.

وبَنَى الحلفاء مطارًا بالقرب من باب الهوى والحدود التركية، وأصلحوا الطريق الذي

يربط طريق حلب أنطاكية بالدانا فدارة عزة فقلعة سمعان فعفرين فحلب، وعبّدوه، وأصبح الطريق من حلب إلى الدانا فدارة عزة صالحًا للسيارات في الشتاء. وتمَّ ذلك بفضل خوف الحلفاء من دخول تركيا الحرب، والاستيلاء على حلب بسهولة عن طريق أنطاكية حلب الدولي. واستخدم الحلفاء - على الشريط الحدودي على الأقل - قواتٍ أهليةً مؤقتةً عرفت باسم "ملّيس" أو ميليشيا، لحفظ الأمن والمساعدة في بعض شؤون مشاريع الدفاع كطرق المواصلات.

في عام ١٩٤٢ انتشر وباء التيفوس، والأوبئة تنتشر بسرعة في التجمعات البشرية الكثيفة كالجيوش والمدارس الليلية كالتجهيز، فاتخذت مديرية الصحة إجراءاتٍ احترازيةً فعقَّمت المهاجع وكل ما فيها من متاعٍ بأجهزةٍ تعقِّم بالبخار، وفرضوا علينا قصّ الشعر بحيث يصبح أقصر من سنتيمترين اثنين. وقد صُوِّرتُ بالشعر القصير وأُرفقت الصورة بطلب قبول تقدمي لفحوص شهادة الكفاءة (البروفيه)، كما صوِّرنا صورة جماعية مع جميع طلاب الصف التاسع وإدارة المدرسة كذكرى لسنة الكفاءة.

بعد انتخاب شكري القوتلي رئيسًا للجمهورية السورية المستقلّة في عام ١٩٤٣ هدأت الإضرابات قليلًا، ثم عادت إلى شدتها المعهودة في عام ١٩٤٤ بعد أن نكثت فرنسا بوعودها، وكان شعار هذه المظاهرات "نريد جيشًا لنا".

وكان أعنف إضرابات هذا العام ومظاهراته في شهر أيار، وبخاصة يوم ٢١ أيار؛ إذ خرجت المظاهرة وفي مقدمتها الأساتذة: الشيخ طاهر الكيالي ووهبي الحريري وشكيب الجابري فاعتقلت السلطات الفرنسية الأساتذة، وانتشر خبر اعتقالهم وضَرْب بعضهم، فثارت ثائرة الطلاب وتوجَّهوا إلى شارع إسكندرون، وبالقرب من بداية الشارع وعلى مفارق أربعة، رُئِيَ ضابطان فرنسيان فانهال الطلاب عليهما رميًا بالحجارة وأصيب أحدهما، فأشهر مسدسه وأطلق منه عدة طلقات أصابت كلًّا من

أحمد قدسي وعبد الحميد زيدي وعبد العزيز حاووط فاستشهدوا، ولكن الطلاب ثأروا لمقتلهم فيما بعد. وقد شهدت بنفسي سيارة عسكرية تحترق في الشارع الرئيسي- الذي تمر منه حافلات الترام، بالقرب من جامع الصديق حاليًّا، وقيل قتل فيها ضابط فرنسي.

وكانت حصيلة شهدائنا في السنوات السبع ثلاثة طلاب وأستاذ، شهدتُ حفلَ تأبينه، ونقل جثمانه إلى دمشق، هو أخو الدكتور أمجد طرابلسي الأستاذ في كلية الآداب. أما مصطفى النعساني فقد شفي بعد سنتين من المعاناة فَقَدَ في أثنائهما النطق، وأحمد قجن، الذي أصيب بطلق ناري في ظهره شفي أيضًا. أما الجرحى فكثر، وكان منهم الدكتور شكيب الجابري. ولن يفوتني الإشادة بأستاذ فرنسي هو جان غولمييه، فقد أسدى لنا خدمات جلّى في ساعات المحنة بمساعيه الحميدة لدى السلطات الفرنسية، فخلّد اسمه في قلوبنا.

بعد هذه المعارك أغلقت المدرسة وعاد الطلاب الليليون إلى مدنهم وقراهم وتركز رجال الأمن على مداخل حلب. وتمركزت على المدخل الغربي بالقرب من المعهد العلمي، دوريةٌ تضمّ منهم المندسّين بين المتظاهرين، مهمتها تفتيش السيارات التي تغادر حلب وتوقيف المطلوبين. فلما مرّت سيارة دارة عزة أنزلوني وسُيِّرت إلى مركز تجمع الموقوفين من الطلاب وجرى تفتيشي فلم يعثروا معي على أكثر من قصائد جديدة كان يرددها الطلاب في المظاهرات، تتناول الإنكليز والفرنسيين وحكامهم، ولم يطل مكوثي موقوفًا أكثر من أمسية يومٍ واحد، وخرجت مع العديد من الزملاء. أما قلّة منا فلم يطلق سراحهم إلا بعد أسبوع أو أكثر.

ثم كانت سنة ١٩٤٥ شبيهة بسابقتها إلا أن الحرب كانت قد شارفت على نهايتها، وأصبح انتصار الحلفاء حقيقةً إذ دعوا إلى اجتماع للأمم المتحدة (ضدّ المحور) في

نيويورك في ٢٥ نيسان، ووسّعوا التحالف، فضمّوا إليهم الدول التي أعلنت الحرب على المحور حديثًا، وكانت سورية ودول الجامعة العربية الأخرى في عدادها. وانتظم المحتفلون بالنصر في حلب، من أنصار السلام واليهود ومن قلّةٍ غيرهم في حلقاتٍ يرقصون ويغنّون صبايا وشبّانًا، وأعرض عنهم الحزانى الذين أغاظهم هذا النصر.

وما هي إلا بعض أيام، ثم عاد الطلاب إلى سيرتهم الأولى، فاشتدت المظاهرات بعد تعرض الطلاب في دمشق إلى عنف الفرنسيين وبطشهم وتوالت وعنفت، فدخل الفرنسيون المدرسة بقوات عسكرية وأغلقت المدرسة. وضرب المجلس النيابي وقتل بعض رجال الشرطة المدافعين عنه، وأعلن في ٢٩ أيار قرار إجلاء القوات الأجنبية. في ذلك اليوم كان قد قرر منع التجول فتوجهتُ مسرعًا حينًا وراكضًا حينًا لأرى ما سيتخذه أخي إبراهيم من رأي في هذه الحال. كانت شوارع حلب الرئيسية مقفرة مخيفة لا يُرى فيها أحد من المارة، ويسمع فيها أصوات طلقات نارية فتقطعه. مررت يومها من شارع بارون، بأبنيته العالية في تلك الأيام، فكان مخيفًا لأنني كنت لا أسمع فيه إلا أنفاسي ووقع قدميّ، يقاطعهما كل دقيقة أو نحوها أصوات الرصاص، ذلك هو اليوم الذي حاول فيه والدي السفر من حارم إلى حلب ليتفقدني، فوقع من على ظهر الفرس التي كانت تحمله من قريةٍ كان يفتي فيها إلى حارم فكسرت بعض أضلاعه. في السنوات التي عشناها في التجهيز أُحدثت شهادة الكفاءة في العام الدراسي ١٩٤٠/ ١٩٤١، وقد ألّف طلاب الصف التاسع أغنيات رقصوا عليها و"دبكوا" وتوارثها طلاب الكفاءة سنوات عدة. كما أُحدث في حلب فقط فرع اللغات إضافة لفرعَي الفلسفة والرياضيات، وانتسب إليه بعض طلاب الصف العاشر في العام الدراسي ١٩٤١/ ١٩٤٢، كان من بينهم الصديق أحمد بعاج الذي يتقدمني سنةً واحدة.

أما حياتنا الدراسية في التجهيز فقد كنّا ننجذب إلى الأستاذ الباشّ، الذي يحسن إلقاء الدرس وتحضيره وانتقاء أهم المعلومات التي يجب تقديمها للطالب بأسلوبٍ واضح لا تعقيد فيه.

كنت أحب الرياضيات وأُتقنها إذا ما كان محمد العالم هو الذي يدرسها. أما إذا كان أستاذ اللغة العربية وآدابها عمر يحيى فلا يزاحم هوايَ درسَه وكتابة ما يطلبه من وظائف مزاحِم. ومن حسن الحظ أن محمد العالم وعمر يحيى كانا يتناوبان في تدريسنا ولا يلتقيان في صفّنا في سنةٍ واحدة.

كانت سبّورة محمد العالم نظيفةً مرتبةً ورسومه منتظمة. كان يرسم بحركةٍ خفيفةٍ وبسيطةٍ دائرةً صحيحة دقيقة لا تحتاج إلى تنقيح، ولا يكتب على السبورة إلا المهم في الدرس مسلسلًا وفق موقعه فيه، وينتقي في درسه أوضح الكلام المختصر وأدقه تعبيرًا عن غرضه، لا تنميق ولا معمَّيات، ويترك للطالب ما يجب أن يفكرّ في حل عقده مما هو في مستواه.

أما عمر يحيى فقد كان في حديثه ينقل إلينا ما يريد إظهار البلاغة فيه، وبإلقائه المعبّر كنا ندرك جمال الوصف أو بهاء الصورة في قصيدة، وما كان إدراكهما ميسورًا لنا من دونه، ثم يعود فيقف على ما يريد أن يلفت انتباهنا إلى روعة الصورة فيها. كان يتوجَّه إلينا في حديثه كما يتوجه إلى زملاء يتذوقون الشعر مثله ويقدِّرون جمال صوره ومواطن روعتها. كان يرتفع بنا في درسه إلى مستواه، فارتَفع بنا إلى مستوى في اللغة والأدب ما كان يبلغه غيره، وما كنا لنبلغه مع غيره.

كنّا نحضر محاضرات نظيم الموصلي عن الثورة الفرنسية في شعبة الفلسفة ولم نكن من طلابها، ونغيب عن محاضراتٍ في شعبة الرياضيات. كان الأستاذ الموصلي يأخذنا معه إلى الثورة، حتى لكأننا نحضر محاورات رجالاتها ونشارك معه فيها ويتقدمنا هو

إلى ساحاتها، ترتسم الانفعالات على وجهه وفي نبرات صوته الذي يبقى خفيضًا، فيبقى الصمت في الصف مخيمًا وكأننا نشهد الثورة بأرواحنا.

وقد أنفق وهبي الحريري في بداية السنة الدراسية عدة ساعات؛ أي عدة أسابيع، لتعليمنا الدقة والإحساس بها في الرسم، بتقسيم مربع طول ضلعه عشرة سنتيمترات إلى مربعات متساوية طول ضلع كل منها سنتمر واحد. كنا نحسبه متزمّتًا مترفّعًا إلى أن رأيناه معنا في المظاهرات منذ ٩ آذار عام ١٩٤١ يشمّر عن ساعديه في ساحة التجهيز ويرمي جند المحتل بما يقتلع من حجارة الممر الذي يصل الباب الخارجي بباب بناء المدرسة، ويتقدم الطلاب مع زملائه، الشيخ طاهر كيالي وشكيب الجابري وكميل عريس في مظاهرة فُدغ فيها شكيب الجابري في جبهته، وأُصيب الطالب مصطفى النعساني بطلق ناري في رأسه وآخر في ساقه.

وأما الشيخ أمين الكيلاني فكان يرسم لنا في درس الديانة مخطط أو خريطة المنطقة التي جرت فيها الغزوة، كغزوة أحد. جبل أحد ومواقع المسلمين قبل بدء المعركة ومواقع الكفار ورماة خالد بن الوليد، وكيف دارت رحى الحرب في الغزوة، وكيف تغيرت المواقع... يحلل المواقف ويبين الأخطاء.

كان الأستاذ واصل حلواني معنا ليل نهار، فهو أستاذ الرياضة نهارًا والموجّه ليلًا. كنت كلما اقتربت منه وهو يؤلف من طلاب الصف فريقًا في كرة القدم، بقصد إدخالي في الفريق، يردني بيده إلى الخلف دون أن يلتفت إليّ ليشعرني بأنني لا شيء في حسابات هذه اللعبة! والحق أن رياضتي الوحيدة كانت المشي، وكنت أمشي من حارم إلى دارة عزة مع استراحة قصيرة في تلعادة، وأمشي مسافات مشابهةً بين خرائب الآثار المحيطة بكثافة بدارة عزة.

لن أسترسل في سرد بعض ما تركه النظّار الموجهون في نفوسنا، فقد كانت مهمة الأستاذ عمر قرقلار مع الطلاب صعبة ومتعبة، ورُفِدت المدرسة في سنواتنا الأخيرة فيها بالأستاذ صالح جمال، وكان مثقفًا دمثًا قريبًا من قلوب الطلاب احتفظ كثير منهم بصورة مع الأستاذ جمال، وقد احتفظت أنا أيضًا بصورة كنت فيها معه ومع الصديق صالح دياغ.

لقد ذكرت أكثر من مرة ما تركه العاملون الآخرون من ذكرى طيبة، الآذن والطباخ وأبو محمد وكاترينا وأحمد البواب... كلهم ساهم في بناء أخلاقيات هذا الصرح فلهم التحية والشكر.

ومع ذلك فقد تخلَّل حياتنا المدرسية مداعبات بريئة لبعض الأساتذة والنظّار بألقاب تناقلها الطلاب عن الأجيال السابقة، وابتكروا بعضًا منها، كمشكيح وشفاتر وسحسول وطيروز وبطابوف، وقد نظموا حول بعضها أهازيج كانوا يرددونها للمزاح. وكل هؤلاء تركوا في نفوسنا ذكريات جميلة تزداد ألقًا مع الزمن.

وكان ينضم إلينا في التجهيز في الصف العاشر أو في صف البكالوريا الأولى طلاب ليليُّون من دير الزور والجزيرة وحماه واللاذقية. وكانت مجموعة طلاب دير الزور التي انضمت إلينا كبيرة نسبيًّا، أذكر منهم جاسم علوان وأحمد حنيدي وصالح كردي وجاسم صفوك وليون يرنوسيان... وكان يتزعمهم محمد علي الساعي، وكان إذا اختلف مع أحد طلاب الصف يأمر أحد أفراد المجموعة بضربه.

ومما أذكر أن جاسم علوان كان لا يستجيب لطلب الإساءة إلى أحد. وكان من زملائنا الوافدين من حماه: سعيد مغربل وعبد الحميد منصور ومحمد الأمير وفاروق دلال... أما من اللاذقية فكان من زملائنا صلاح الأعسر ومحسن الخيّر وفؤاد خوري وأخوه عزيز...

تلك هي مدرسة التجهيز، قضيت فيها سبع سنوات من العمر، دخلتها وكنت لا أقوى على حمل حقيبة حاجاتي من الكتب والألبسة فأجرّها غالبًا، وأحاول حملها بضع خطوات أحيانًا. وأكاد لا أرى طريقي حين أفارق أمي، تحجبه عنّي غشاوة من الدموع، أحرص على إخفائها عنها لأنها كانت سخية الدمع سريعة البكاء.

كانت ليلتي الأولى في التجهيز موحشةً، لا أعرف فيها أحدًا، وبعد مرور بضع ليالٍ أصبح كلٌّ منّا يأنس بعددٍ من زملائه في الصف والمطالعة، ونما عدد الأصدقاء بسرعةٍ فائقةٍ، ونشأت بيننا بيئة ألفة ومودة أحاطتنا بحنان، نحن أحوج ما نكون إليه، فصنعناه دون أن نشعر، والإنسان مطبوع على الألفة.

كنت أشعر في سنتي الأولى في التجهيز، وأنا ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر، بحاجةٍ ملحةٍ إلى الرعاية، إلى شخصٍ أركن إليه يرشدني في هذه الغربة التي أبعدتني عن والديَّ وعن إخوتي الأكبر سنًّا، فانضممت إلى زميل يتمتع بالرعاية وشاركته إياها، إلا أنني أضعتها في السنة التالية، في اضطراب الأوضاع في المحمص، فاضطررت مرغمًا إلى رعاية نفسي بنفسي، وتوطدت ثقتي تدريجيًّا بمقدرتي على الرعاية، وبعد حين أخذت أشعر برغبة شديدة لرعاية الطلاب المستجدين ومساعدتهم على اجتياز محنة الاغتراب عن الأهل في سنٍّ مبكرة، وأصبحت رعايتهم مهمة شخصيةً محبَّبةً طوال السنوات الثلاث التي تلت الكفاءة.

إن ألفة رفاق الدراسة والاغتراب أنشأت في مدرسة التجهيز بيئةً جديدة تنوب فيها عن بيئة الأهل. نذكر في الصيف أيامها التي ساهمت في بناء شخصياتنا بما تركت في النفس والذاكرة من انطباعات شائقةٍ لا تمّحي، وإذا ما عدنا إليها، وقد فتحت أبوابها، وجدنا فيها ما يعين على حفظ ذكر الأهل وتلطيف لوعة فراقهم والحنين إليهم، وجدنا بيئةً تضمنا إليها بحنان.

إنها بيئتها الدائمة التجدد والغنية بأشخاصها من أساتذةٍ وطلاب وموظفين، وما

يثيره كل منهم من أحاسيس القرب من القلب وشعور الألفة والود. حتى زوايا المدرسة وقاعاتها وأروقتها ومهاجعها وباحاتها تشعرنا بالألفة والود، إنها منّا ونحن منها، لقد ساهمنا في إعطائها المقدرة على تكوين شخصيتها، التي يلوِّنها كل منّا بلونٍ من ألوانها البهيّة الكثيرة، حتى لقد أصبحت جزءًا منّا، نحنّ إليه ونفتقده.

لقد عشنا فيها وشعرنا بتكامل البيئة الشخصية لكلٍّ منّا وبيئتها الغنيّة بالانفعالات والمشاهد والطباع والطموحات والإقدام، وخبرنا فيها الحب، حبّ الأم في غربتنا، وتعلمنا التآزر في الشدّة، وعرفنا الكثير من معاني الوطن وازددنا إيمانًا بالدفاع عنه بما أتاحت لنا المدرسة خوضه من تجارب في المظاهرات، وفي الحوارات الحرّة حول ما نطرحه من مشكلات.

لقد ساهمت مدرسة التجهيز في بناء شخصية كلٍّ منا فهيأته ليكون رجلًا له رأي في الحياة. إنها الخطوات الأولى في تكوين شخصيات رجال المستقبل. مدرسة التجهيز هي المدرسة التي احتضنتنا في مرحلةٍ من العمر هي أكثر مراحله حساسية وخطورة في الحياة، وفي مستقبل أجيال وطنٍ وأمّة، ليس بما قدمته لنا من علم وأخلاق فحسب، ولكن بما هيأته لنا من تجارب خاضها طلابها يتقدمهم في الأيام الصعبة أساتذتهم، لقد كانوا الأساتذة في قاعات الدرس وفي ساحات المعارك.

دروس التجهيز كثيرة وثمينة: تعلمنا فيها علمًا وأخلاقًا واكتسبنا خبرات نادرة، وقد أشرت إلى سماتٍ حملت بذور ما اكتسبناه وحبَّبتنا ببعض الأساتذة، إن هذه السمات تختصر في حب المعلم التعليمَ وحب طلابه. فقد كان عمر يحيى يريد أن يصنع منا زملاءه وأصدقاءه، يريد أن نشاركه إعجابه بقصيدة، واكتشاف أسباب إعجابه بها. وكذلك كان شأن محمد العالم أحب طلابه وأراد أن يرى فيهم من يدرك جمال ما يقدم في الدرس وسر نجاحه. إنهما يحبان التعليم ويحبان طلابهما، ومنهم بخاصة أولئك الذين يتجاوبون معهما، ويظهر تجاوبهم في مدى فهمهم الدرس وتعلقهم به وانجذابهم

إلى الأستاذ. إن تقديرهم الأستاذ هو تقدير لنجاحه في مهمته التعليمية. ألم ير محمد العالم أن إنهاء سنة البكالوريا باختفاء طلابه، أصدقائه الذين قضى معهم سنواتٍ من عمره، كوّنهم فيها علميًّا وخلقيًّا وصنع منهم أصدقاء أحبهم وأحبوه؟ ألم ير في ذلك إثمًا؟ أيتركهم ويتخلّى عن وشائج الود والمحبة والاحترام التي سرت فيهم وتغلغلت في كيانه واستقرت في أعماقه؟ أيتركهم يختفون في فلوات الوطن لتبتلعهم دوّاماته ومجاهله دون وداعٍ يبثهم فيه محبته ويودّع فيه أشخاصهم، وجوههم وابتساماتهم وأحاديثهم وآمالهم، ويوثّق في ساعة صفوٍ وصفاء ما يكنّون في قلوبهم له من الود والمحبة والاحترام، وتقدير ما قدمه لهم لتنشئتهم من علمٍ ونصحٍ وأخلاق؟

في الدرس الأخير من سنتنا الأخيرة في التجهيز، قال لنا أستاذنا محمد العالم لن ننهي السنة، بل لن ننهي صحبة عمرٍ في التجهيز دون الاحتفال بما أنجزناه من واجباتٍ علينا جميعًا، في جوٍّ نخرج فيه عن إطار التعليم المدرسي الضيِّق وندخل ربوع الصداقة والود في "المنشية".

طرنا فرحًا إذ وَضَعَنا أستاذنا في مستوى أصدقائه، ورحنا نوزِّع المهام، فكان على بهيج صابوني أن يُحضر من بيته أقراص أغاني أسمهان - وكانت في الأوج -وجهازًا لسماعها، ورتّب مصطفى خرزم توزيع المهام على الزملاء، واجتمعنا بالمنشية في اليوم الموعود، وأسمعنا بهيج أغنية أسمهان "دخلت مرّة بجنينه" والصمت كان مخيمًا، كنا جميعًا منذ بداية اللقاء نترقب بحزنِ نهايته... وألقى خرزم كلمةً عاطفية مؤثرة وتلاه آخرون، وودعَنا أستاذنا العالم وتمنى لنا النجاح في البكالوريا وفي الحياة، وأوصانا ألاّ ننسى هذا اليوم وما علينا من واجبات تجاه وطننا... وقال اذكروني دائمًا...

هذا هو التعليم، وهذا هو المعلم، يحب التعليم ويحب طلابه.

إن أسس تكوين شخصيتي وضعت في مدرسة التجهيز، فلها ولأساتذتي كل المحبة والتقدير والشكر عرفانًا بجميل ما أسدوه إليّ.

٣. دارة عزة في أثناء الحرب

قبل أن أبدأ الكتابة عن صيوف التجهيز والسنة التي تلت دراستي الثانوية قد يكون التذكير بالأوضاع الاجتماعية التي جدّت في دارة عزة في أثناء الحرب مفيدًا.

في أوائل العطل الصيفية صرت أفتقد بعض أصدقائي في القرية، إذ أصبحوا في سنٍّ يؤهلهم للعمل الموسمي برفقة بعض ذويهم فينزحون عن القرية مع إخوتهم الأكبر سنًّا إلى مواسم الحصاد في "الحَصّ"، وعندما يعودون يكون الحصاد قد زرع سمات الشقاء فيهم، الأيادي خشنةٌ دفِن فيها الشوك الذي اندسّ ونما بين سنابل القمح والشعير، والوجوه لفحتها شمس ظهيرة الصيف أسابيع عديدة فغيرت معالمها، وارتسم الشقاء على أجسادهم التي عانت العمل المرهق وسوء التغذية وضنك العيش.

بعد أسبوع أو أسبوعين من عودتهم يحسّنون مظاهرهم بما يبتاعون في حلب، من ألبسةٍ بسيطةٍ لهم ولبعض أفراد الأسرة، وكم تغنّى الشباب في القرية بالصبيّة التي تزينت بالنايلون في ملابسها، وكان جديدًا.

ولقد عمدت السلطات المحتلة إلى نقل معظم المحاصيل الزراعية لسد حاجات جيوشها وسكانها في فرنسا، فأدى ذلك إلى غلاء المواد الغذائية غلاءً فاحشًا، فأخذت القرى تطحن الشعير والذرة البيضاء وتخلط الدقيق بطحينهما، وكان كثير من الناس يكتفون بخليط من طحين الشعير والذرة البيضاء إذا أمكن لهم توفيره.

ونشط الفقراء إلى "اللقاط"، إذ يعمد هؤلاء إلى التقاط السنابل الشاردة من الرجاد أو من رزم الحصاد، وإلى "تعفير" حبّات الزيتون التي بقيت على أغصان الشجر أو تناثرت على الأرض وخفيت عن أصحابها بعد قطاف الزيتون في الموسم، فيقتات الفقراء على "العفارة" أي على ما التقطوه منها.

ولقد حلت الحرب مشكلة النزوح في موسم الحصاد بمشروعات شق الطرق وتعبيدها، وقامت سيارات الجيش البريطاني أو الحلفاء بنقل عمال شق الطريق المارّ من

القرية إلى مواقع العمل وإعادتهم يوميًّا، وأدى ذلك إلى تحسينٍ بسيطٍ في أحوالهم المادية.

وقد شاركت المرأة الرجل في هذه الأعمال في الجزء القريب من القرية من مشروع طريق الدانا – دارة عزة عفرين حلب. كان الجنود الأستراليون وغيرهم يبيعون السجائر الإنكليزية وعُدد سياراتهم والإطارات التي عزّ وجودها في الأسواق. حتى إن بعض سيارات القرى ومنها دارة عزة كانت ترقّع الإطار بأجزاء من إطار تالفٍ وتشده بالجنزير إلى الإطار المعدني (الجنط)، وفي ذلك من المخاطرة الكثير.

وخفف من وطأة غلاء المعيشة، مع مشروعات الطرق، كثافة الطلب على منسوجات أنوال دارة عزة الرخيصة، واشتد الطلب عليها مع دخول الحلفاء سورية، فانفتحت أسواقهم كالعراق، لهذه المنسوجات، وأقام كثير من الناس الذين لم يسبق لهم معرفة بالحياكة ولا مساس بهذه المهنة، نولًا في البيت وتعلّم الأولاد الحياكة ودفعوا بما حاكوه في آخر الأسبوع كغيرهم إلى وسطاء من القرية يجمعون ما تنتجه الأنوال ويبيعون في حلب إلى بيوتاتها التجارية ما يحملون من بضاعةٍ بالأمانة، ويتقاضون نسبةً زهيدة على المبيعات.

وابتدعت ظروف الحرب "الوسطاء"، إذ كان على أحد أفراد الأسرة من قبل أن يحمل ما حاكته الأسرة ليبيعه بنفسه، فوفّر الوسيط على الأسرة ما تنفق في السفر إلى حلب، كما وفّر وقت المسافر ليصرفه على الإنتاج، وأنهى أزمة النقل على السيارات المحدودة التي خصصت يوم السبت من كل أسبوع لنقل البضاعة والوسطاء والمضطرين لأسباب أخرى كالمرض...

٤. صيوف في دارة عزة وصيف حارم

احتضنتنا التجهيز طوال سنواتنا الدراسية، إذ كنا بعيدين عن أمهاتنا. أما في الصيف، فقد كنت أقضي أغلب الصيوف في دارة عزة قرب أمي وإخوتي وأخواتي،

ومع رفاق الطفولة في القرية. انتقلت من التجهيز في الصيف إلى مدرسة إخوتي الأكبر، مدرسةٍ ليس لها برامج معلومة، و موضوعاتها وليدة الظروف، وما لدى كلٍّ من محمد وإبراهيم منها، كنت طالبًا دائم الحضور، وقد يشاركنا ابن عمي أحمد، إذا كان الموضوع على صلةٍ بالموسيقا والغناء، فقد كان ذكيًّا مرهف الحس ولوعًا بهما.

تلك اللقاءات حبَّبتني بالقراءة والثقافة، وانتقى لي أخي إبراهيم بعض الكتب من مكتبته ككتاب تاييس، إلا أنني لم أجد فيها ما يجذبني إليها، وأعطاني أخي محمد كتاب "النجوم في سالكها" فقرأت بعضه، وكان يحاول أن يريني في الليل بعض ما قرأت في السماء: الدب الأصغر والدب الأكبر والعقرب... إلا أن أغلب وقتي كنت أقضيه مع رفاق القرية في الجبال وفي كروم التين والزيتون، وبخاصة في موسم التين إذ ينتقل الناس إلى كرومهم ومعهم أبناؤهم رفاقي.

في الصيف الأول كُسرت يدي اليمنى وعالجني "مجبّر" القرية وكانت جبيرته لزقةً فيها بيض، ولفّها بقطعة من "الخام" النسيج القطني الذي تصنعه أنوال دارة عزة، وعزّزها بأعوادٍ من الخشب وأوصاني بعدم تحريكها وتوسيدها في قطعةٍ عريضةٍ من القماش تعلّق من طرفيها برقبتي.

بعد شهر رجعت إلى المجبّر ففحصها بيديه ونزع الجبيرة والعيدان، وحذّرني من تحميلها أثقالًا حتى حين. إلا أن يدي هذه كُسرت في الصيف الثاني بعد السنة الدراسية التي قضيتها في المحمص، فعدت إلى المجبّر فعالجها بنفس الطريقة.

بعد زهاء شهر رجعت إليه ليفحصها، وكان يرافقني أحد الأصدقاء، ففحصها ورفع الجبيرة وطلب من مرافقي أن يصبّ على يدي المكسورة من إبريقٍ ماءً ساخنًا، وأخذ يدلك يدي برفق بالماء الساخن والصابون وقرّبني منه ثم وضع يدي على ركبته وفاجأني بكسرها فتألمت كثيرًا، فقال لي لا بد من إعادة تجبيرها لأنها معوجّة. عدت إليه

بعد شهر فنزع الجبيرة وقال لي لا يزال فيها اعوجاج لا يمكن إصلاحه لأن الكسر هو كسور في عظام المرفق.

وهكذا بقي في يدي اليمنى بعض الاعوجاج، وأمضيت الصيف كله في تجبير يدي. إن كسر يدي اليمنى في صيفين متتاليين جعلني أتدرب على الكتابة بيدي اليسرى، وبقيَت هذه اليد أقوى من اليمنى.

في الصيف الذي تلا الصف الثامن أخذت من أخي إبراهيم رواية زينب لمحمد حسين هيكل، فقرأتها بنهم وسافرت إلى حارم لأقضي مع أبي بعض الوقت. ووقعت عيني في البيت هناك، على بعض الأدوات التي غاب عني سبب وجودها وأوجُه استعمالها، واستفسرت من والدي عنها، فكانت أدوات تستعمل في تجليد الكتب.

كان والدي يستعمل مثلها في مصر لتجليد كتبه، وبخاصة الكتب القديمة وبعض المخطوطات التي يحصل عليها ويخشى ضياعها. وقد جمّع هنا ما يماثلها ليجلّد الكتب التي تفككت، وليس في حارم من يقوم بهذا العمل، فتعلمت منه تجليد الكتب وقمت بتجليد رواية زينب التي اصطحبتها معي وأعدت قراءتها.

ونظرت في المكتبة فكان جلّها كتبًا دينيةً، كمبسوط السرخسي وفتاوى ابن عابدين وفيض القدير... وفي زاوية منها وقعت عيناي على عدة دواوين كمخطوط ديوان ابن سهل الأشبيلي وديوان بشار بن برد... ومع ديوان بشار قفز إلى ذاكرتي ما كان يردِّده والدي من شعره، وكنت وقتئذٍ في مدرسة حارم، ذلك الشعر الذي نسبه إلى حماره الذي مات، ورآه في النوم فسأله عن سبب موته فتبين أنه العشق، وأنشد شعرًا في معشوقته لا أزال أذكر بيتًا منه:

سيدي خذ بي أتانًا   عند باب الأصبهاني

وفي قافية أحد الأبيات كلمة "الشنفراني"، ولما سئل بشار عن معناها قال أنا لا أعلم ولكنني سأسأل حماري عن معناها إذا ما رأيته في النوم. كان جواب بشار وسرعة بديهته تسرّ والدي وتضحكه.

في هذه الزاوية وجدت كتاب "قلائد العقيان" للفتح بن خاقان، وعلى ورقة العنوان كَتَبَ كلٌّ من إخوتي الثلاثة الكبار أحمد ومحمد وإبراهيم أن الكتاب دخل في ملكه: "دخل في ملك الفقير إليه تعالى فلان شهيد زاده"، فقلت في نفسي لا بد أن يكون كتابًا قيمًا فتناولته وأخذت أقرأ فيه، ورآه والدي معي مرةً فقال لي خذه لك. وأهداني أيضًا مخطوطًا ثمينًا للقرآن الكريم أشير فيه بأحبارٍ مختلفة الألوان باختلاف القراءات، وقد كتب الإهداء بيده في الورقة الأخيرة من المصحف، وقد احتفظت بهما وأضفت إليهما مخطوط ديوان ابن سهل الأشبيلي.

بدأت قراءاتي الأدبية في صيف الصف الثامن؛ أي في صيف سنة ١٩٤١. ومع أني قرأت كتاب كليلة ودمنة في المرحلة الابتدائية، فإن مستوى الاستيعاب، في هذه المرحلة، اختلف كثيرًا. وفي الصف التاسع كان يدرسنا الأستاذ عمر يحيى اللغة العربية، فسرّع استمتاعي بدروسه إقبالي على القراءة، فاشتريت كتاب "فجر الإسلام" لأحمد أمين من مكتبة صغيرة جدًّا في أسواق حلب القديمة، وبدأت قراءته في أوقات الفراغ في أثناء السنة الدراسية، إلا أن أوقات الفراغ تلاشت في زحمة الدروس، وبخاصة ما تتطلبه دروس اللغة العربية وآدابها، ممّا يمليه الأستاذ عمر يحيى علينا من الوظائف، التي ألجأتنا إلى المكتبة الوطنية للبحث عن المراجع ومطالعة ما يطلب فيها، فتعلمنا كيف نبحث عنها في المكتبة أيضًا.

كانت المكتبة الوطنية تشغل حيِّزًا مناسبًا فوق المحلات التجارية في الأبنية التي قام عليها البناء الضخم المعروف اليوم باسم "العبّارة". وكانت تطلّ من الجنوب على شارع رئيسي تمر منه حافلات الترام، ومن الغرب على امتداد شارع بارون في اتّجاه العزيزية، فكان الوصول إليها ميسّرًا، والخدمات فيها جيده. لذلك كنت أقضي فيها معظم أيام الجمعة والمتاح من أيام الخميس والاثنين، وأختتم المطالعة في المكتبة أحيانًا بحضور عرض فيلم، ودور السينما قريبة منها.

وهكذا علّمنا الأستاذ عمر يحيى البحث عن المراجع والرجوع إلى ما يلبّي حاجتنا منها، وعدم الاكتفاء بما يلقى علينا في الدرس، أو بالأحرى علّمنا الاعتماد على أنفسنا في اكتساب المعرفة، وعلمنا بدايات أصول البحث.

ولقد أفدت من ذلك كثيرًا وبدأت أعتمد على نفسي للاستزادة من المعرفة والثقافة، وشرعت أبني مكتبتي، فاشتريت كتاب مروج الذهب للمسعودي وضحى الإسلام والمعلقات والعديد من سلسلة الروائع كالمتنبي والحطيئة والخنساء... جمعتها تدريجيًّا وأخذت أقرؤها في الصيف، وأحفظ ما يعجبني فيها من الشعر واستعرت مجلة الرسالة من مكتبة أخي إبراهيم فكانت أنيسي ومتعتي في الصيوف الأخرى، وامتدت يدي إلى كتاب عصر المأمون من مكتبته، وإلى كتاب معجم البلدان من مكتبة أخي محمد، ونصحني إبراهيم بقراءة البيان والتبيين وأدب الكاتب والكامل، فاستبعدت الأخير وآثرت متابعة قراءة مجلة الرسالة وهي متوفرة لديه كاملة منذ صدورها.

في الصيف الأخير صيف عام ١٩٤٥، وقد أنهيت الدراسة في التجهيز وحصلت على البكالوريا (الثانية)، بدأت مرحلة قلقٍ وحيرة امتدت حتى تشرين الثاني من العام التالي ١٩٤٦، وكان أمامي خيارات صعبة: الأول: متابعة الدراسة في الجامعة السورية، وكانت تتألف من كليتَي الطب والحقوق، ولا أجد في نفسي رغبة ولا ميلًا للدراسة في أيٍّ منهما.

وكان الخيار الثاني الهجرة إلى بلد أعمل فيه وأتابع دراستي الجامعية في الفيزياء، فإن لم تتوفر ففي الرياضيات. هذا الخيار يملي عليّ العمل في الوطن لأتقن لغةً أجنبيةً هي الإنكليزية الأوسع انتشارًا والتي لاقت دعايةً ودعمًا أمريكيَّيْن في أواخر الحرب وما بعدها، فانتشرت الكتب الأمريكية، تدعو للولايات المتحدة وتعرِّف بها، واشتريت كتيبًا باللغة العربية عنوانه أمريكا لعلّي أجد فيه ما يعينني على الهجرة،

واشتريت قاموسًا أمريكيًّا للغة الإنكليزية في أمريكا؛ أي في الولايات المتحدة، وهو كل ما يوجد في الأسواق منها، واستكملت العدّة اللغوية باقتناء مجموعة "ريدرز" لتعليم اللغة الإنكليزية، وتتألف من خمسة أجزاء. هذا الخيار يعتمد على الخيار الثالث وهو العمل في جهةٍ ما، لأن والدي لم يعد قادرًا على الإنفاق على تعليم أيٍّ منّا بعد الحادثة التي تسببت في كسر أضلاعه.

والخيار الثالث المذكور هو الانصراف إلى العمل في إحدى جهات الدولة، وهي متنوعة وكثيرة، لكثرة حاجات الدولة المستقلة الفتيّة بعد جلاء المحتل. لذلك فقد بدأت بتعلُّم اللغة الإنكليزية من دون معلم معتمدًا على مجموعة "ريدرز" والقاموس، لنقُل الإنكليزي، الذي يشرح الكلمات باللغة الإنكليزية.

لقد أحرزت في تعلّم اللغة الإنكليزية نجاحًا أرضاني، وقلّ رجوعي إلى القاموس في الجزء الخامس من المجموعة. كنت أتابع أيضًا ما يعلن في الصحف عن المسابقات لوظائف الدولة، وتقدمت إلى مسابقة للعمل في السجل العقاري بحلب، ونجحت فيها وباشرت العمل في مديرية السجل العقاري في أواخر ربيع عام ١٩٤٦.

وكنتُ عملت قبل ذلك معلمًا وكيلًا في المدارس الابتدائية كان من بينها مدرسة النجاح في حلب، وساعدت أخي محمدًا في تعليم طلاب القرية في دورات صيفيةٍ مجّانيةٍ. كان أخي يريد بهذه الدورات رفع مستوى الطلاب والمدرسة لتكون أهلًا لاستكمال الصف الخامس فيتقدم طلابها لامتحانات الشهادة في حلب، وهو يحبّ دارة عزة ويكره مفارقتها وسمى إحدى بناته عزة كما سمّى ابنه إيادًا. أما أنا فوثقت في هذه الدورات من ميلي للتعليم وحبّي له.

أما أوقات فراغي فكنت أقضيها مع الأصدقاء بين الخرائب الأثرية وما حولها من طبيعةٍ خلاّبة، إذ يزهر النرجس في الشتاء في الأراضي الوعرة فيحيلها مروجًا تعطّر

الجبل والقرى المحيطة به بأريج المضعف، يتلوه إزهار الخزامى وشقائق النعمان. وقد أتقن سكان القرية زراعة النرجس وتكثيره في الجبل وفي دورهم، وجعلوا من محصوله تجارةً رابحة.

وفي أواسط فصل الربيع اتفقت مع صديقين على الإعداد لجولة صيدٍ في جبل الشيخ بركات المطلّ على القرية من الغرب، وتكفّل الصديقان بتهيئة ثلاث بندقيات ثنائية (جفت)، تُحشى طلقاتها يدويًّا بكريات الرصاص (الخردق)، ويشعل الطلقة البارود الناعم بالضغط على الزناد فيقدح المشعل.

خرجنا في الضحى بعد إعداد بندقياتنا وتزودنا بالذخيرة، وصعّدنا في الجبل، كنت لا أرى في تحويمي غير العصافير التي لم تكن غرضي، فقد كنت أحلم باصطياد أرانب أو حجلٍ أو ما هو من هذا القبيل، إلا أنني لم أعثر على شيء منها وقد انتصف النهار وقطعت أكثر من نصف المسافة إلى قمة الجبل. عندئذٍ قررت اصطياد أي طير ولو كان عصفورًا، بعد قليل رأيت قبّرةً على صخرة كبيرة فسدّدت عليها وضغطت على أحد الزنادين، فقدح المشعل، ولكن لم يسرِ في البارود فضغطت على الزناد الثاني فقدح ولكنه لم يسر في البارود أيضًا ولم تطلق البندقية.

كنت في أثناء ذلك أسمع صوت من يتنفس بعمق، فظننت أن أحد صديقيّ خلفي، فالتفتّ إلى الخلف لأشكو سوء البارود، ففوجئت إذ لم أجد أحدًا، وجلت في نظري بسرعةٍ خاطفة أفتش عن مصدر النشيش، فوقعت عيناي على ضبعٍ أمامي في ظل الصخرة التالية، فانتابني خوف شديد، وأسرعت في رفع الزنادين ووضعت مشعلين وأنا أصرخ بصوتٍ عالٍ داعيًا صديقيَّ لإنقاذ الموقف.

سمعني رجل بعيد عنّي وعن المنحدر الذي كنت في أعلاه، وكان هو في مستوى أدناه، وعلى الطريق العام الصاعد من القرية إلى القمّة، ولوّح لي بيده، فأدركت أن

صديقيَّ قد بلغا القمّة أو ما حولها، أي غرب موقعي، وحال الهواء الغربي دون سماعهما صراخي...

كنت في هذه الأثناء أتفقد حركة الضبع وتأهُّبه، أذناه صغيرتان متجهتان مع وجهه نحوي، يتفحّصني بعينيه ويتأملني، فنظرت إلى فمه فوجدته نظيفًا ليس عليه أثر دمٍ أو ذباب، ولم تتغير وقفته المتأمّلة، ضخم وممتلئ لونه برتقالي فاتح أو مشمشي كلون باطن الصخرة الذي لا يرى الشمس فلوّنه المطر الممتزج بالوحل بهذا اللون الذي ساعد على التمويه على وجود الضبع، أما الخطوط السوداء على جلده فكانت متباعدة يتخللها قليلًا شعره البرتقالي.

لم يُطِل، بعد أن رأيتُه وقفتَه التأملية، ولكنه بدأ يتحرك مبتعدًا إلى الجنوب، يخطو خطوةً ويقف فيعيد النظر إلي متأملًا. بعد أن ابتعد عني عدة أمتار صعّدت أنا في الجبل غربًا أفتش عن زميلي، وقلت في نفسي لا بد أن يكون هذا الضبع لضخامته أنثى في أيام حملها الأخيرة فآثَرَت الابتعاد عني، وحمدت الله على إخفاق المشعل في الوصول إلى البارود، إذ كانت الطلقة الموجهة إلى القبّرة ستثيرها وتفجؤني بهجومها.

ثابرت على الركض مصعّدًا في الجبل إلى أن بلغت القمّة، فرأيت صديقيّ يتسامران بانتظاري على مرجٍ من العشب الأخضر، فصرخت ولمتهما لومًا شديدًا وقلت لهما كان يمكن أن يفترسني الضبع، ولو كنتما قريبين لعدنا إلى القرية بصيدٍ تفاخرون به، ثم ما هذه البندقية الخَرِبة، ألم تجدوا أحسن منها، ورميتها بقوةٍ من يدي على مرج الحشيش أمامهما، فانفجرت منها الطلقتان وارتفعت فوّهتاها في الهواء وأخمصها في الأرض على المرج الأخضر، إن ارتفاع الفوّهتين الشديد أنقذني من مأساةٍ مرةً أخرى، من مأساة إصابة الصديقين أو أحدهما بأذىً قد يودي بالحياة.

* * *

في الجامعة طالبًا

كانت الجامعة في مخيّلتي هي قبلتي في العلم، وكان يثبّت هذا الاعتقاد في نفسي بعض أساتذتي في التجهيز، كمحمد العالم ووجيه السمان والدكتور يحيى الهاشمي، وما يرويه أخي إبراهيم عن أساتذته العلماء في كلية الحقوق، وما يردده عما يتمتعون به من احترام في جميع الأوساط الثقافية والسياسية والشعبية، فمنهم في كلِّ تشكيلةٍ وزاريةٍ وزير أو أكثر، ومنهم من يرفض المنصب لرأي له أو لجماعته في الحكم، وعلى أكثرهم أبّهة تميزها عربةٌ جميلة يجرها حصان تقلّ مالكها الأستاذ إلى الكلية وتقف أمام المبنى على ضفاف بردى، أو هالةٌ من الطلاب تحيط به منذ دخوله حرم الجامعة.

هذه الصور انطبعت في ذاكرتي التي كانت تخزِّن كل ما يجذبني إلى الجامعة ينبوعِ العلم والمعرفة. وكان المعهد العالي للمعلمين طريقي إليها، وهو الذي أُحدث لإعداد معلمين للتعليم الثانوي بتعاونٍ وتنسيقٍ مُحْكَمين مع كليتَي العلوم والآداب المحدثتين معه في دمشق.

وكنت أعلِّل نفسي بأن الإعداد للتعليم الثانوي يضعنا على أبواب العلم والمعرفة، وما على من يشاء منّا الاستزادة إلاّ التقدم بثباتٍ من تلك الأبواب ليفتحها مستعينًا بما تعلَّم في الجامعة، وستنفتح الأبواب إذا كان يعي حقًّا ما تعلم فيها جيدًا. ألم يتابع العلم من قبل "بالمر" وهو يقوم بمهمته معلمًا في ثانوية، واكتشف سلاسل الخطوط الطيفية المعروفة باسمه؟!

دخلت الجامعة بنجاحي في انتقاء طلابٍ للمعهد العالي للمعلمين الذي سيُفتتح بهم. كان الانتقاء يجري في لقاء بلجنة من مؤسِّسيه، أذكر منهم الدكتور خالد شاتيلا والأستاذ توفيق المنجد وثالث لا أذكر اسمه.

كان المتقدمون للانتقاء من أعمارٍ مختلفة، فقد سُمح للمعلمين التقدم للدراسة في المعهد مهما كانت أعمارهم، فتقدم في حلب أحمد بعاج رحمه الله وكان يسبقني في التجهيز، والتقيت في المعهد بعد افتتاحه زملاءَ يكبرني بعضهم بخمسة عشر عامًا، فكان تقدمهم للمعهد مجازفة تدل على صدق العزيمة وصلابة التصميم وقوة الشخصية والإرادة وحب العلم.

دخلت المعهد وباشرت الحياة الدراسية فيه بعد عدة أشهرٍ من العمل موظفًا في مديرية السجل العقاري بحلب إثر نجاحي في مسابقة، واكتسبت في أثناء عملي فيها، تحمل المسؤولية فيما يوكل إليّ من مهام، وفي مسيرة حياتي الشخصية، والقناعة بضرورة تكوين رأيٍ فيما يطرح عليّ من مشكلات بعد دراسةٍ وتمحيصٍ، أعمل بهديه وأدافع عنه، فازددت بعدًا عن شخصية التلميذ المتلقّي.

دخلت المعهد العالي بهذه المكتسبات من الوظيفة، تحدو بي آمال ثرّة إلى فهمٍ عميق لما توصل إليه العلم من قوانين تفسر الظواهر الطبيعية وتحكمها، كالرؤية وكنه الضوء والمغناطيسية...

افتُتح المعهد يوم ١٦ أو ١٧ تشرين الثاني من عام ١٩٤٦ في مبنى معهد الحقوق، الذي أصبح كلية الحقوق في أواخر الربع الأول من القرن الماضي. وهو مبنى جميل على ضفاف بردى أصبح اليوم مقرًا لوزارة السياحة بعد أن توالت عليه كل من وزارة التربية فمديرية تربية دمشق.

خُصِّص فيه الجزء الغربي من الطابق الثاني للإدارة: مدير المعهد الدكتور خالد شاتيلا والمحاسب وغرفة للمحاضرات. وخصص الجزء المطلّ على النهر شريطًا متصلًا لنوم الطلاب، ومثله الجزء الشرقي نظير الجزء الغربي. وقاعة كبيرة خلفهما جنوبية تدخلها الشمس يجتمع فيها طلاب المعهد من كليتي العلوم والآداب في

محاضرات التربية وأصول التدريس المشتركة، وتستعمل في المساء قاعة مطالعة للطلاب أو للنشاط الثقافي، يجتمع فيها الطلاب والطالبات. واستؤجرت دار ليست بعيدة عن المعهد لسكن الطالبات.

كان يلقي الأستاذ توفيق المنجد محاضرات الفيزياء ويحاول كل منّا تسجيل ما يمكن أن يلتقط من المحاضرة، ولكن الأستاذ المنجد كان يقدم في نفس اليوم محاضرته منقّحةً بعد إلقائها، فنجتمع طلابًا لكتابتها، وترسل نسخة منها مما كتبناه إلى زميلاتنا في دارهن ليقمن بنقلها. أما دروس الكيمياء فكانت في المخبر.

لقد قسمت واجهة التكية من القباب المطلّة على النهر إلى ثلاثة أقسام متطاولة: الأول الملاصق لحديقة المعهد خصص لمكتبة الجامعة، وإلى الغرب منه أكبر الأقسام الثلاثة لمخبر الكيمياء، والثالث المطلّ على المتحف الوطني خصص للعلوم الطبيعية. وحل محل المكتبة وهذه المخابر فيما بعد المتحف الحربي.

كانت لا تزال التكية تطعم الفقراء يوم الجمعة، وتنمو في حديقتها أزهار البنفسج التي كنّا نجمعها في الصباح بعد الإفطار قبل مجيء رواد التكية. كان يُعَدُّ طعامنا في مطبخ المعهد ويُنقل إلى دار الطالبات ما يكفيهنّ منه.

وكان الأستاذ ماهر كيلاني يشرف علينا ليلًا بما يشبه ما كان يقوم به النظّار (المراقبون) في التجهيز، ولكن بأدب جمّ. كان يقوم في الواقع بتوفير الخدمات التي يحتاج إليها الطلاب مستعينًا بما لديه من موظفين. كان دمثًا يعمل بإخلاص، ولكن لم يكن التوفيق حليفه في كثير مما يقوم به، وقد أوفد إلى سويسرا لإكمال دراسته وتحضير الدكتوراه، إلا أنه توفي هناك، قبل إنهاء دراسته.

كانت أعمال ترميم الثكنة الحميدية ناشطة منذ الصيف أو بعيد استلامها من الفرنسيين. وكانت كلية الحقوق هي الأولى في التمركز في الطابق العلوي من الواجهة

الشرقية من الثكنة فتطل على مدخلها وهو مدخل الطلاب والأساتذة. وكان الطريق إلى المدخل معبّدًا، برصيفٍ يحاذي سور إدارة الجامعة ودار التوليد القديمة، أما بمحاذاة النهر فكان لا يزال ترابيًا. وبدأت أعمال رصفه مع ترميم الثكنة وإصلاحها. وخصص لكلية العلوم جزء يمتد من منتصف الواجهة الجنوبية إلى منتصف الواجهة الغربية ولها باب الواجهة الجنوبية الداخلي.

كان الأستاذ توفيق المنجد عميد الكلية (أو مديرها) المسؤول عن إعداد الجناح الجنوبي الغربي المخصص لها للتدريس. كانت أحذية الجنود العثمانيين فالفرنسيين المثقلة بالمسامير والحديد، قد حفّرت بلاط الجناح (وبلاط الثكنة كلها) فتقعّرت البلاطات، فجُدِّد البلاط. وكان مخبر الفيزياء أول ما أنجز ترميمه من جناح الكلية وتوالت بعدئذٍ المنجزات كإدارة الكلية ومدرج ابن الهيثم للفيزياء.

كان يساعد الدكتور مجدي الشوا السيد مالك اليوغوسلافي المسلم الهارب من حكم تيتو وطغمته، وكانا في البدء يتفاهمان باللغة الألمانية. وكان الدكتور عبد الحليم سويدان يدرّس مواد (مقررات) العلوم الطبيعية (الحيوان والنبات)، محاضرًا من وزارة الزراعة، ولم ينتقل إلى كلية العلوم عضوًا في هيئة التدريس إلا في عام ١٩٤٩. لقد كنّا نتّبع في دراستنا منهاج ساطع الحصري، فندرس في السنة الأولى، الفيزياء والكيمياء والرياضيات والعلوم الطبيعية. ولا أزال أحتفظ ببعض أوراق الدروس العملية للعلوم الطبيعية، التي منها دراسة مقطع من ثمرة كوسا وقشرة البصلة...

انتقلنا تدريجيًّا من التكية إلى كلية العلوم بعد عام كامل، جُهزت في أثنائه مخابر الكيمياء في الطابق العلوي من الجزء الغربي من جناح كلية العلوم، ومخابر العلوم الطبيعية تحت مخبر الفيزياء.

لا شك أن تدريس بعض المواد أصابه تأخير سبّبه التأخر في أعمال الترميم، كعملي الفيزياء ومحاضرات الرياضيات التي كان يلقيها الأستاذ أنطون جناوي.

كانت المهمة الأساسية لكل من كليتي العلوم والآداب تعليم طلاب المعهد، ولكنّهما ككليتين في الجامعة قَبلتا طلابًا لا علاقة لهم بالمعهد العالي، وكان على كلٍّ من هؤلاء أن يدفع تكاليف الدراسة أقساطًا للجامعة، ولم تكن الدولة مسؤولةً عن تشغيلهم، وعدد هؤلاء ظلّ قليلًا في صفوف كلية العلوم بالنسبة إلى طلاب المعهد العالي، أذكر منهم: موفق نوري وسعيد طنطاوي.

أما طلاب المعهد العالي فغير مطالبين بأقساط، والدولة ملزمة بتعيينهم في التعليم الثانوي وهم ملزمون بخدمة الدولة في التعليم، والمعهد مسؤول عن إطعامهم وإسكانهم ويدفع لكل منهم مرتبًا شهريًّا بسيطًا يستعينون به على قضاء حاجاتهم الثانوية.

عندما شارفت السنة الأولى على النهاية، كان سير التدريس في الأبنية المقبّبة من التكية والمشرفة على النهر، ناجحًا جدًّا، كما أن العمل في ترميم الثكنة الحميدية وإعدادها لاستقبال كليتَي العلوم والآداب كان حسنًا، رغم قلّة عدد المسؤولين عن تأسيس المعهد والكليتين.

كان الدكتور خالد شاتيلا على رأس فريق المؤسِّسين، وكان معه في كلية العلوم الأستاذ توفيق المنجد مدير الكلية والأستاذ نادر النابلسي في قسم الرياضيات والدكتور مجدي الشوّا في قسم الكيمياء والأستاذ انطون جناوي يدرس الرياضيات للفيزيائيين وهو فيزيائي. وباستثناء مجدي الشوّا، ليس في فريق المؤسسين من يحمل شهادة الدكتوراه. هؤلاء تصدوا لإنشاء كلية العلوم وتخريج مجازين منها في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية، وهي الإجازات التي حصلوا عليها منذ أكثر من عقدٍ من الزمن، لم يمارسوا في أثنائه سوى التعليم الثانوي.

إنها حقًّا مغامرة وجرأة كبيرة ومجازفة بمستقبلهم ومستقبل جيل، وبفاتحة مسيرة مشروعات الاستقلال.

لقد كانت حصيلة السنة الأولى مؤشرًا ساطعًا على نجاح المؤسِّسين. كان خالد شاتيلا يُعنى بتوجيهنا وتثقيفنا وتربية شخصيةٍ واعيةٍ متوازنةٍ في كلٍّ منا لمواجهة عصر جديد، عصر الاستقلال، الجديد على الأمة منذ قرون. كان يُكْثر من الندوات الثقافية التي تجمعنا بنين وبنات، ويشجِّع حفلات السمر، ويدعو المدرسين على قلتهم إلى حضورها والمشاركة فيها. كان يشجعنا على حضور عروض أفلامٍ يراها مفيدة ثقافيًّا، ويقول لنا لقد حضرت عرض هذا الفيلم مع زوجتي أو سأحضر عرضه معها اليوم، ويذكر لنا بعض إيجابيات حضور عرضه. كان يناقشنا فيما يرى فائدةً في تنشيط النقاش فيه، وإدارة النقاش على وجهٍ نتعلم كيف يجب أن يجري النقاش وندرك من سياقه ضوابطه السلوكية.

في أواخر السنة الدراسية (الأولى)، قلنا له في آخر الدرس إننا نريد التوقف عن تلقّي محاضراتٍ أخرى لنتفرغ للاستعداد للامتحانات. فدار بيننا نقاش هادئ طويل، ولما أحسّ بتخوفنا من التجربة الأولى في امتحانات المعهد، ترك لنا تدارس الوضع واتخاذ القرار الذي نراه الأصلح، ونبهنا بتخوّفه من إرهاق أنفسنا بالانقطاع المبكّر لتحضير الامتحانات.

كنت من أشدّ الداعين للانقطاع عن تلقي المحاضرات، وقد توقفنا فعلًا قبل زهاء شهر من موعد الامتحان، وكنت ممن شعر بالإرهاق بعد أسبوعين فقط.

تركنا الدكتور خالد شاتيلا فجأة بعد إنهائه السنة الدراسية إذ عيِّن سفيرًا لسورية في بلجيكا، وترك سفره في نفسي جرحًا لما أصاب صورة الأستاذ الجامعي لديّ. لقد كنت أعتقد أن عضوية هيئة التدريس في الجامعة أرفع في نفوس الناس من هذه المناصب، فكيف رضي الدكتور خالد شاتيلا استبدال السفارة بمشروعه الذي قاده بنجاح وتخلّى عنه قبل أن يصل به إلى تخريج الفوج الأول من طلابه، وقبل أن يرى وقع

استقبال أفراد الفوج في أسرة التعليم الثانوي طلابًا ومعلمين، وهل كانوا سيحققون فيه التطوير الذي كان يرمي إليه هو وساطع الحصري؟

لقد خطر في ذهني وأنا أكتب هذه المذكرات احتمال آخر للحدث، إن إخلاء المبنى لتحتله وزارة التربية، وتخصيص جزءٍ صغير جدًّا في كلية الآداب في الثكنة الحميدية لإدارة المعهد العالي، وتوزيع سكن طلاب المعهد على مبانٍ صغيرة خلف مبنى الإدارة المركزية للجامعة، كانت مخصصة للخدمات، هذا كله تقويم للمشروع يعطي انطباعًا عن تقدير المسؤولين في الدولة ومنهم وزير التربية بخاصة، تقديرًا مهينًا للمشروع ومن ثَم لمؤسِّسه، وكانت السفارة لترضيته وإبعاده. هذا يعني أنه كان في ذهن خالد شاتيلا مشروع أكبر، ليس أقل من كلية تربية تتابع الإشراف على كليتي العلوم والآداب.

هذا النحو لتفسير غياب الدكتور شاتيلا المفاجئ، يبرره انتزاع وزارة التربية دارَ المعهد التي هي ملك الجامعة تاريخيًّا، وعدم زيارة الدكتور شاتيلا فيما بعد المشروع، ولاسيما التخلي في العام الدراسي التالي (١٩٤٧ – ١٩٤٨) عن فلسفة ساطع الحصري في التعليم الجامعي، واعتماد نظام الشهادات الفرنسي، وإحلال الدكتور رفيق الفرّا محل مؤسس الكلية توفيق المنجد. هذه كلها مؤشرات تدلّ على نيّاتٍ مبيّتةٍ تحت ستار الإصلاح، الذي يهدف في الحقيقة إلى التخلص من ساطع الحصري ومشروعه ومؤازريه في تنفيذه، خالد شاتيلا وتوفيق المنجد.

أُبعد الدكتور خالد شاتيلا سفيرًا، أما إبعاد توفيق المنجد فيوفّر ستارُ الإصلاح له سببًا؛ إذ يزدان بالانتقال إلى المؤهلين للتعليم الجامعي حملة الدكتوراه، كلمة حق أريد بها باطل! هكذا سوِّغ إبعاد توفيق المنجد.

لم يستسغ الطلاب هذا الانقلاب، بل هذا التلاعب الذي لم يُفتضح أمره لهم وقتئذٍ، فأضربنا احتجاجًا على انقلاب المفاهيم والنظام في أثناء السنة الدراسية. حقًّا

كان قادة هذا التغيير ساهين عن القواعد التربوية عندما قرروا هذا التغيير في قلب السنة الدراسية، بل إنهم لم يقيموا للأساليب والقواعد التربوية أيَّ اعتبار، وهم، كما يفترض، دعاتها وحماتها.

توجهنا في مظاهرة متواضعة لا يزيد عدد طلاب الكلية في سنتها الثانية عن مئةٍ إلا قليلًا، فأطل علينا الوزير الدكتور منير العجلاني من شرفة الغرفة التي كان يشغلها الدكتور خالد شاتيلا، وقال لنا، إذ عجز عن الإجابة عن تساؤلنا لماذا فاجأتمونا بهذا التغيير في قلب السنة الدراسية؟ قال: سنقودكم إلى الجنان مكبّلين بالسلاسل!

وكانت تلك السنة الدراسية سنةً قاسيةً مضطربةً كادت تعصف بالمشروع وتودي به لولا تكاتف الطلاب مع أساتذتهم وإصرارهم جميعًا على النجاح، وقد حققوه رغم أن الأساتذة لم يكونوا من حملة الدكتوراه! لقد أدركوا منذ قبولهم العمل في المشروع، أن ليس أمامهم خيار آخر غير النجاح، فأعدوا العدّة له، ولو بالتعليم والتعلّم مع الطلاب. لقد مرّوا بتجربة التعلّم سابقًا قبل عقدٍ أو أكثر من الزمن، بإمكانهم إذن أن يستعيدوا رسم معالم الطريق المؤدي إلى معالجة القضايا موضوع المحاضرة، وأن يعملوا على حلّها بالتفاعل والتعاون مع الطلاب. وهذا هو الأسلوب الأمثل للتعليم اليوم.

وواقع الحال أن الأساتذة مهّدوا الطريق أمام عددٍ كبيرٍ من الطلاب للنجاح، بقدح أفكارهم في الدرس، وأفسحوا المجال للنابهين منهم للسير على مدارج النبوغ، وضربوا لهم المثل بتواضعهم العلمي والمسلكي والأخلاقي فازدادوا من طلابهم حبًّا واحترامًا وشجعوهم على اتباع ما سنّوه لهم في التعليم من التواضع العلمي والأسلوب التفاعلي مع طلابهم في المستقبل.

أما نحن الطلاب فقد كنّا نستعين على تذليل الصعاب بتجميع الجهود وتكثيفها في مجموعات لحل المسائل أو لفهم المعقّد من الدرس، كل مجموعة من ثلاثة طلاب أو

أربعة. يجتمع أفرادها اجتماعًا أوليًّا يحددون فيه العقد التي تحتاج إلى تكثيف الجهود لتذليلها، ويعودون للاجتماع في موعدٍ يحددونه.

وفي الموعد المحدد يأتي كل منهم بما توصل إليه، تناقش الإنجازات وتقود بمجموعها وبما يجري من تدقيقٍ وتنقيح إلى الحل المناسب. يعيد كل فردٍ من أفراد المجموعة ترتيب الحل وتشذيبه على الوجه الذي يراه الأنسب، وكنت في مجموعة تضمّ فاروق السلكا وعدنان المحاسب.

ولّما أزف وقت الامتحانات كانت أعصابنا جميعًا متوترةً وبخاصة أعصاب زميلاتنا. وفي صباح يوم امتحان الرياضيات الكتابي لطلاب شعبة الرياضيات، وقف الأستاذ نادر النابلسي بعد قراءة التفقد، ورفع بيده مغلّف الأسئلة وشرع يفتحه، فاندفعت زميلاتنا من القاعة يبكين بصوتٍ عالٍ وخرجن مسرعاتٍ إلى الدار، فأوقف الأستاذ النابلسي الامتحان وأرسل بعض زملائهن لتهدئة روعهن. هذا ما كان من النتائج المباشرة السريعة للتغيير المفاجئ الذي أقحم في أواسط السنة الدراسية. أما آثاره البعيدة فحملها الترقيع والتعادلات التي أجريت للانتقال من نظامٍ إلى آخر وذهب ضحيتها عدد من الطلاب.

إلا أن مراعاة حالات الطلاب النفسية استمرت سنواتٍ عدّة. أذكر أن برنامج الامتحان عدِّل في سنتنا الدراسية الأخيرة بعد أيام قليلةٍ من إعلانه، لخللٍ ظهر فيه. وبدأ الأستاذ المنجد امتحان مادته (مقرره) يتفقد طلابه، فتبيّن له غياب أحمد ذو الغنى عن الامتحان، وهو طالب دمشقي، فكلّف الأستاذ المنجد طالبًا من حارته إحضاره وأوقف الامتحان. عاد به الطالب (سعيد طنطاوي) بعد أكثر من نصف ساعة والقبقاب يصدح في رجليه وفي يده طاس فارغ، دخل القاعة يلهث وهو لا يزال بثياب البيت، ولما سئل عن تغيّبه، قال إنه لا يعلم بما طرأ على البرنامج من تعديلات.

كانت مراجعنا الأجنبية فرنسيةً لأن أغلب المراجع الأجنبية في مكتبة الجامعة كانت فرنسية. وكانت تلقى محاضرات إحدى المواد (المقررات) بلغةٍ أجنبية، هي اللغة الفرنسية أيضًا لأنها اللغة الأجنبية التي تعلمها طلاب جيلنا في المدارس الابتدائية والثانوية.

وكان بين طلاب الفيزياء في الكلية من يجيد الترجمة العلمية من الفرنسية، وقد كلَّف بعضُ أساتذتنا بعضَ هؤلاء ترجمة فصولٍ من كتب فرنسيةٍ في الفيزياء ألَّفوها في مرحلة دراستهم الجامعية، ينقح الأستاذ المحاضرة المترجمة بعد تدريسها ويعتمدها للطلاب.

في أواخر السنة الدراسية وقعت الكارثة الفلسطينية بإعلان الصهاينة قيام دولتهم إسرائيل في فلسطين وغطّت أمواج الغضب الشعب العربي في كل مكان ولاسيما في سورية التي يعتبر شعبها فلسطين جزءًا من وطنه سورية، وتطوع طلاب وعسكريون ومثقفون وعمال وفلاحون، ومن جميع فئات الشعب وأعراقه في جيش الإنقاذ.

وتقرر إخلاء مبانٍ جامعية خلف مبنى إدارة الجامعة، منها ما كان مخصصًا لإسكان طلاب المعهد العالي إثر نقلهم في بداية السنة الدراسية من معهدهم الذي أصبح مقرًا لوزارة التربية، وصرف تعويض سكنٍ لكل منهم، فقُضي بذلك على ميزات النظام الداخلي الذي يجمع الطلاب في بيئةٍ واحدة، في بيت واحد وأسرة واحدة، أخلاقًا وشعورًا وتعاونًا وفهمًا عامًا واحدًا لما يدور حولهم من الأحداث.

كان أهم ما حافظنا عليه في سنتنا الثانية، هو اجتماعنا طلابًا لتناول وجبات الطعام الثلاث. فقد خُصِّص لنا الطابق الأرضي من الواجهة الشرقية من الثكنة الحميدية، تحت كليّة الحقوق، خصص جزؤه الذي يقع على يمين الداخل في مبنى الثكنة مطعمًا لطلاب المعهد. وكان أستاذنا توفيق المنجد مدير كلية العلوم يكثر من زيارتنا فيه

فيتفقد أحوالنا، كما كان يتفقدها الدكتور خالد شاتيلا، مع أنه لم يحل محله في إدارة المعهد. وكنا نقدر اهتمامه ونعتزّ به أمام طلاب المعهد من كلية الآداب.

أما الجزء الثاني الذي يقع على يسار الداخل مباشرةً، فأقيمت فيه ندوة تولاها السيد شمسي زمنًا طويلًا، وانتقلت إلى يمين الداخل فيما بعد أيضًا، تليها قاعة كبيرة للمطالعة لطلاب المعهد وطالباته، ولكنها لا تتسع على وجهٍ مريحٍ لهم جميعًا ولا تتسع بخاصة لطلاب كلية الآداب المجاورة من غير المتسبين للمعهد، إذ لا تكون غايتهم المطالعة، وكنا لذلك نطردهم.

كان الطلاب يسارعون بعد طعام الغداء لامتلاك مقعدٍ في الندوة ليدخنوا فيها سجائرهم مع فنجان القهوة على صوت محمد عبد الوهاب في النهر الخالد وكانت هي أغنيته الجديدة، ويستعيدون ذكريات يومهم الجميلة، وجوّ الندوة يعبق بروائح الدخان الذي ترتسم الأحلام وتتوارى في سحبه.

أصبح حي الشعلان – السبكي مأوى للطلاب الجامعيين من جميع الكليات، ومأوى لطلاب المعهد العالي والطب خاصة، ذلك لأن طلاب الحقوق لا يلتزمون بحضور المحاضرات بدقة، ولأن طلاب كلية العلوم الذين لا علاقة بالمعهد العالي كانوا قلّة. ونشأت مطاعم في الحي زبائنها هم هؤلاء الطلاب.

استأجرت مع وداد طرابيشي غرفة تطلّ على حديقة السبكي، وكان هو ومحمد الراكان يشاركاني في غرفةٍ في المباني التي قضينا فيها سنتنا الماضية خلف الإدارة المركزية للجامعة.

أما تطوير كلية العلوم فقد أضحى بطيئًا مضطربًا بسبب تغير نظام التدريس وتغير قيادة الكلية، وبُعد القيادة الجديدة عن نشأة الكلية وما رافقها من برامج تطويرها وخططه، ودواعي اعتماد تلك الخطط التي كانت محفوظةً في ذاكرات المؤسسين.

كانت سنتنا الثالثة في الكلية، هي السنة الأكثر اضطرابًا وضياعًا. وكان استكمال مخابر الكلية هو الأكثر إلحاحًا، فالكلية لا تزال ناشئة، تفتقر إلى الكثير من المخابر في العلوم الطبيعية، وبعض مخابر الكيمياء التي لا غنى عنها "لشهادة الكيمياء العامة" في النظام الجديد، فاستعان قسم الكيمياء بمخابر الكيميائي سهيل مشاقة، رئيس جمعية الكيميائيين السوريين، وتعاقدت معه محاضرًا في قسم الكيمياء لتدريس طلاب شهادة الكيمياء العامة جانبًا من المنهاج العملي للشهادة. فعرض على القسم تدريب الطلاب في مخبرٍ خاصٍ ينشئه في بعض أركان مخبره الواسع في مبنى العابد بالمرجة، تقدمةً منه بلا مقابل.

كنّا نتدرب في هذا المخبر الجديد بكثير من الحرّية، ونشعر فيه بالبحبوحة واليسر، على حين كنّا نشعر في مخابر الكلية كلها بالضيق والحرج، خشية كسر بعض الأنابيب والدوارق الزجاجية، إذ غالبًا ما يتوقف العمل في تجربةٍ إلى ما بعد إحضار المتسبِّب بدلًا مما كسر. أما الكيميائي مشاقة فكان إذا رأى زجاجًا مكسورًا، أو سمع صوته في أثناء تكسّره يسرع ليطمئن الطالب أن البديل متوفر في مستودعاته وسيقدّم له في دقائق معدودة بلا مقابل ماديّ، كان يقول دائمًا: "كسّروا الزجاج فهو موجود بوفرة لتتعلموا".

وفي سنتي الأخيرة في المعهد (١٩٤٩–١٩٥٠) استأجرت مع وداد أيضًا غرفة في حيّ الفواخير، أي في الجادات العليا في المهاجرين، وكنت أخشى تكسّر عظامي الهشّة بالانزلاق في الشتاء على طرقها الشديدة الانحدار.

عنصران لعبا دورًا حاسمًا في سيرتي الجامعية طالبًا، الأول منهما هو عملي موظفًا في السجلّ العقاري عدة أشهر، وقد ذكرت من قبل أنه أبعدني عن شخصية التلميذ المتلقي، والثاني هو تسليمي بأن دخولي الجامعة بكلية العلوم، قد حقق أمنيتي فوضعني

على عتبات بيت الحكمة، وأنّ عليّ أن أنقطع إليه. والانقطاع إليه يعني عندي الابتعاد أيضًا عن لهو الشباب الذين هم في مثل سنّي، وهذا ما يفسر زجري الزملاء إذا تراكضوا بين مقاعد الدرس ليمسك أحدهم بزميله الهارب منه، أو طردي من قاعة المطالعة طالبًا ليس من طلاب المعهد أو آخر أزاح كتب وأوراق طالبٍ خرج من القاعة ليدخن سيجارته فاحتل مكانه...

وكان لي موقف مشابه مع الأساتذة: أذكر أننا تجمعنا أمام باب مخبر الفيزياء في السنة الأولى، ولم يَسمح لنا المحضِّر بدخول المخبر لعدم وجود الأستاذ، فالتفتّ إلى زملائي قائلًا: بئس الجامعة تلك التي نستأذن فيها المحضِّر لدخول المخبر، اتبعوني فهذا لا يناسب كرامة جامعي. فخرجنا جميعًا مضربين عن دخول المخبر، فلقينا الأستاذ المنجد وأعادنا إلى المخبر بكلمة طيبةٍ منه. وإنني إذ أعيد النظر في الموضوع اليوم أقدّر صحّة موقف المحضّر، إلا أن إحساسًا بخدش الكرامة من جهة، وعجز المحضّر عن انتقاء الكلمة المناسبة، من جهةٍ ثانيةٍ قادانا إلى ذلك الموقف.

وكان لي موقفان مشابهان أحدهما مع مدير المعهد العالي والآخر مع أحد أساتذة الفيزياء في كلية العلوم، وكلاهما كان شديد القسوة لارتباطهما بالعنصر الأول. أما تداخل العنصرين فيظهر جليًّا في حياتي الدراسية. فقد كنت أتقدم في كلية العلوم باستمرار، وبنهم متزايد للمعرفة.

خصصت الجزء الأكبر من وقتي لمطالب الدراسة في كلية العلوم وللثقافة العلمية، ويبدأ الاهتمام بشؤون التربية والثقافة العامة من فلسفةٍ وشعر وأدب بعد منتصف الليل، فيتجدد نشاطي بهذا التغيير، ويمدّني سكون الليل بطاقات جديدة ساعةً أو أكثر أقضيها مع الشعر والوجدانيات، واستيقظ في السابعة صباحًا متجدد النشاط أيضًا.

بدأت أشعر بتقدمي في البيئة التعليمية التفاعلية التي ذكرت، والتي ساعدت على

تنمية مواهب الطلاب، فكان الأستاذ جناوي الفيزيائي يعلمنا الرياضيات في السنة الأولى، وقف مرةً يتأمل تكاملًا أو حل معادلة تفاضلية، وكان كلٌّ منا يحاول حل العقدة التي وقف عندها، فاقترحت عليه اتخاذ التابع (الدالّة) متحولًا والمتحول تابعًا (دالة) فحلّت المشكلة. عندما يتكرر مثل هذا الموقف، يزداد الطالب ثقة بنفسه، كما تزداد ثقة الآخرين به بمن فيهم الأستاذ، وقد تودي هذه الحالات بالطالب إلى الغرور إذا لم يكن حذرًا.

بعد سنة كان أستاذ الرياضيات الأستاذ تقي الدين لبنانيًّا متعاقدًا، إذ أُوفد الأستاذ جناوي إلى سويسرا لتحضير الدكتوراه، وكان الأستاذ تقي الدين يلقي علينا في أثناء الدرس تمارين لها علاقة بمحاضرات سابقة، إضافة إلى علاقتها المباشرة بمحاضرة اليوم أو أمس.

طرح مرةً علينا تمرينًا في اللامتناهيات في الصغر، وتقدم أحد الزملاء لحلّه، فتعثر الحلّ، وساعد الأستاذ تقي الدين الطالب، فطال التعثر واقترحت حلًّا استعنت فيه بقاعدة أوبيتال فحُلَّت العقدة وحُلَّ التمرين، فقال لي الأستاذ، لقد استعنت بقاعدة أوبيتال وهذه قاعدة الكسالى فسكتّ.

في الدرس التالي طرح الأستاذ تقي الدين تمرينًا آخر فاقترحت حلًّا له بيّنته على اللوح، وبعد أن أنهيت الحل قلت له الآن سأقدم حلًا آخر سترون أنه مختصر وجميل ولكنني سأقدمه لكم مستخدمًا قاعدة الكسالى. كان موقفي ذاك لاستيقاظ العنصر الأول فيَّ والذي ذكرته قبل قليل، لأنني شعرت أن الأستاذ قد مسّ كرامتي ولو مسًّا قد يكون لم يقصده في المرة الأولى، فكان ردّي السريع في المرة الثانية.

كان إنشاء مخبرٍ لزهاء خمسةٍ وعشرين طالبًا، وتقديمه هديةً للكلية، والإنفاق على تسييره، كان إنشاء ذلك المخبر، حدثًا جديدًا في التعليم الجامعي، حلّ فيه مخبرٌ خاصٌّ

محل مخابر الدولة بنجاح باهر، فكان يزورنا فيه كيميائيون وأساتذة جامعيون ليطّلعوا على مشروع الكيميائي مشاقة الناجح، وعلى غنى مخبره ومستودعاته وكرمه وخبرته العلمية والتنظيمية.

ومرّ بجانبي من هؤلاء الزوّار الدكتور صلاح الدين الكواكبي، وكان من رجال العلم المعدودين، فهو أستاذ الصيدلة في كلية الطب، وعضو المجمع العلمي العربي، مجمع اللغة العربية اليوم. فسألني، ليقدِّر مدى فهمنا ما نقوم به في مخبر الكيميائي مشاقة، فأجبته "أظنّ كذا" فقال لي فورًا "ليس في العلم أظنّ". فأجبته قبل أن يتمّ كلامه "تعلمنا من أساتذتنا التواضع، وبخاصة في موقفي معك، فأنا الطالب وأنت الأستاذ، وقدّرت أنه لا يليق بي أن أقول غير ما قلت، ولكنني إذا قلت أظن في قضيّةٍ علمية، فأنا أعني أثق جازمًا بما أقول، وما كنت أحسب أن ذلك يمكن أن يلتبس عليك، ماذا تعلمون أنتم طلابكم". فتركني ولم يعد يسأل أحدًا، فقد لمس في لهجتي استهجانًا لما قال. والواقع أنني استهجنت حكمه... كان ذلك أيضًا من تيقّظ العنصر الأول فيَّ.

كان الوضع في الفيزياء مشابهًا، حتى في الامتحانات الكتابية كنت أناقش كيفية طرح السؤال وأقترح على ورقة الامتحان صيغةً أخرى، وأنا في مثل هذه الحالة أعتمد على ثقتي العلمية بنفسي وعلى ثقتي برحابة صدر الأستاذ، بل بسروره بثقة طلابه بأنفسهم وبمستوى فهمهم ما تعلموه منه. وكم من مرةٍ قدمت حلولًا قبلها الأستاذ والزملاء ثم اكتشفت خطئي فيها وصححته في درسٍ تالٍ، حتى لقد أخذت أردد في نفسي: إن الله أودع الإنسان قبسًا من نوره، ومن يهتدي إلى ذلك القبس وبه ينكشف له الطريق إلى الحقيقة الكبرى، إلى الله هذا الطريق هو الحب، وفيه الهداية وبذلك القبس لا يمكن أن يضل طريق الهداية في كل شيء، في العلم والخير والحب.

لقد حظينا بعونٍ أخلاقي كبير من أساتذتنا، أخذ منّا عنهم التواضعَ مَن في قلبه

مكان للخير، فترسّخ مكان الخير في قلبه وعبق به الحب. لقد كانت سنوات دراستي الجامعية هي أمتع مراحل العمر وأدركت هذه الحقيقة في أثناء تصوير فيلم عن كلية العلوم، كان يصورنا المصور عندما أدركت أنني أمرّ بأجمل مراحل حياتي.

لقينا أستاذنا الدكتور إسحق الحسيني بعد امتحان مادته، فدار الحديث حول الامتحان وتصحيح أوراقه، فقال كيف تريدني ألّا أتأثر بحال الطالب في أثناء سنته الدراسية، فإذا وقعت ورقة عدنان المحاسب التي أعرفها من رسمه الأشكال بالحبر الصيني، هل يمكن تجاهل وضعه الدراسي المرموق في أثناء السنة كلها، ومحاسبته فقط على أخطاءٍ وقعت في الامتحان؟ لا، لا يمكن.

أذكر أيضًا يوم امتحان عملي الكيمياء التحليلية في السنة الأولى. كان من عادة أستاذنا الدكتور مجدي الشوّا أن يضع محاليل الامتحان في أنابيب بعدد الطلاب ويرقّمها ويسجّل محتوى الأنبوب المرقّم في ورقةٍ تحفظ لديه، ويضع وريقات تحمل كل منها رقمًا بعدد الأنابيب، تطوى الوريقات ويسحب كل طالب وريقة، ويسلَّم الأنبوب الذي يحمل الرقم.

جرى الامتحان، وبعد مدةٍ أخذ الطلاب يسلّمون نتائج تحليلهم، وأنا في المخبر أعيد البحث عمّا في أنبوبي، وقلق الدكتور الشوّا عليّ وأخذ يحوم حولي ويقول "اسبح يا عبد الله في ماء مالح". كنت أظن أنه يريد أن يقول لي لا تفكّر كثيرًا ولا تقلق ولا تحاول الغوص في الأعماق.

انتهى الوقت ولم يبق في المخبر أحدٌ غيري، فتقدمت أسلمه نتائج تحليلي والقلق بادٍ على وجهي، فقال لي، لقد توصلت إلى محتوى أنبوبك في وقت مبكر، وخشيت عليك أن يقودك إصرارك البحث عن غير الملح في أنبوبك إلى الوقوع في تصورات خاطئة، فقلت لك أسبح في ماء مالح. لم يخطر في بالي، ولا يخطر أبدًا أن الأستاذ الشوا يطمئنني

خشية أن يوقعني إعادة التحليل مراتٍ عديدة إلى ارتكاب خطأ يسيء إلى موقعي الذي وضعني فيه عملي في أثناء السنة الدراسية، فحام حولي مراتٍ ليطمئنني وليقول لي كفى، الملح هو كل ما في أنبوبك.

من عادتي، منذ المدرسة الابتدائية، كره حفظ معلومات لا رابط يربطها بمنطق أو دليل مقبول. ولما كانت قوانين الظواهر الفيزيائية الفرعية مستنبطة من قوانين أساسية كبرى يربطها بتلك الظواهر التأمل والتحليل الصحيحان، فقد كنت أحفظ القوانين الأساسية الكبرى واستنبط منها القوانين الفرعية. إلا أن هذه الطريقة تجعل ما أحتاجه من الوقت لحلّ مسألة، في الضوء مثلًا، أطول بالمقارنة بالزمن اللازم لشخص يحفظ القوانين الفرعية المناسبة، ولكنه يكون عرضةً لاستعمال القوانين الفرعية غير المناسبة، وللخطأ في حفظها. كما يكون أقلّ مقدرةً على دراسة الحالات المختلفة التي يمكن أن تتفرع من المسألة. مغالاتي في هذه العادة أكسبتني سرعة الاستنباط، ولكنها أضعفت مقدرتي على حفظ معلومات لا أجد بيسرٍ روابط تربطها في ذاكرتي، وإذا كانت الروابط معقدة كانت المعلومات عرضة للنسيان بسرعة. وهذا ما جعل الكثير من المعلومات في الكيمياء تدخل في تيه صحراء النسيان بعد أقل من سنة. أما الرياضيات والفيزياء فلا تزال معارفها راسخة شكلًا ومضمونًا في ذاكرتي.

قَلَقُ أساتذتنا على مصائرنا في جميع مراحل دراستنا، في أثناء السنة الدراسية أو في الامتحان، وحرصهم على تحقيق التوازن بين نقل أكبر قدرٍ من المعرفة إلى طلابهم، وطاقات استيعابهم، كان هاجسَهم المؤرق.

في كل سنةٍ من سنوات دراستي الجامعية كانت تزداد حاجة كلية العلوم لأعضاء في هيئة التدريس، إذ يستجد فيها صف أو شهادة على الأقل في كلٍّ من فروعها الأربعة الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية، لذلك اجتمع فيها السوريون

والفلسطينيون واللبنانيون والمصريون، وكانوا متحابين متعاونين. وكان لبعضهم شعبيةٌ بين الطلاب، كالأستاذ جميل العلي الذي علَّمنا فصولًا من الميكانيك التطبيقي.

كان يخرج في نهاية الدرس إلى الباحة الداخلية للثكنة يحيط به طلابه، يدخن المدخنون منهم سجائره الإنكليزية، ويتحدثون في كل شيء غير الرياضيات، وكان مثقفًا وكريمًا. منهم أيضًا الدكتور إسحق الحسيني الذي كان يدعو مرافقيه من الطلاب إلى بيته لتناول الشاي المبرَّد ومتابعة الحديث هناك... وكان هذا الجمع من الأساتذة المختلفي المشارب الثقافية يثري ثقافة الأساتذة بتلاقح ثقافاتهم فيثري ثقافة الطلاب أيضًا.

أما دروس التربية في المعهد فقامت بها مجموعة من المدرسين الجدد الذين حصلوا على الدكتوراه في فرنسا في أثناء الحرب، ومجموعة من الأساتذة المصريين المتمرسين بتدريس مختلف المواد (المقررات). لم أشعر أنني أفدت من محاضرات المعهد العالي بقدرٍ يقارن بما جنيت من فائدةٍ من محاضرات الأساتذة في كلية العلوم.

في سنتنا الأولى كنا نكتب محاضرات الأساتذة نقلًا عما حضّروه أو نقلًا عما يلقيه الأستاذ مباشرة ثم نطوّر ما كتبناه بمقارنة ما حصل عليه كل منا. ثم انتشرت طباعة الأمالي على الجستتنر، وتطوّرت فأصبح بعض الطلاب يحتكر طباعتها وتوزيعها.

أما حياتنا الاجتماعية فكانت محصورة في بيئة كلية العلوم أولًا، وبيئة المعهد العالي ثانيًا، وتتأثر تأثرًا محدودًا بالبيئة الجامعية.

ففي كلية العلوم أولانا زملاؤنا الدمشقيون عناية ورعاية وكرمًا. أذكر أن زميلنا فاروق السلكا دعا جميع زملائنا إلى عشاء في داره (دار ذويه) في القنوات، وبعد أكثر من عام دعا زميلنا بديع سلاخ جميع زميلاتنا في دار ذويه، وفي الدار أخواته.

وفي ربيع عام ١٩٤٧ نظّم لنا زملاؤنا الدمشقيون نزهةً يوم الجمعة إلى قمة الهضبة المطلة على الربوة التي شيّد عليها فيما بعد ما سُمِّي قصر الشعب، وكانت تعرف قمتها

بقلعة "غورو"، وهو الذي ضرب المنطقة المعروفة اليوم باسم الحريقة من قمة هذه الهضبة. وصلنا إلى القمة بعد أن ابتلّت ثيابنا بالعرق، فجلنا حولها وتأملنا دمشق ووادي الربوة والجامعة ودمر، فاشتد عطشنا وكانت دمّر الأقرب إلينا فتوجهنا إليها طلبًا للماء، فلما بلغنا النهر (بردى) قال زملاؤنا الدمشقيون هيا اشربوا، توسدوا الأرض ووجوهكم إلى النهر واشربوا منه بأيديكم أو بأفواهكم مباشرة. شربنا وابتلت عروقنا وكانت مياه النهر صافية لا يعكرها شيء.. كان ذلك في ربيع عام ١٩٤٧.

وفي الثمانينيات من القرن الماضي دعاني بعض الأصدقاء إلى مقصف(!) في الربوة فكانت الروائح التي تفوح من مجرى النهر كريهة قاتلة. فاجتزنا المجرى إلى المقصف بعيدًا عنه فجلسنا بعض الوقت وروائح المجرى كانت لا تزال نفّاذة. لم يبق نهر في المجرى، وأصبح المجرى لأوساخ البشر.

ولبردى في الربوة حديث آخر، كنت في أوائل السبعينيات مع وفد سوري في "دوشانبه" عاصمة دولة طاجيكستان، والتقينا هناك رجلًا يسمونه المعلم الأكبر، وهو الذي استبدل الحروف الروسية بالحروف العربية فكنت لا أحبه. دعانا هذا الرجل يوم الأحد (يوم العطلة الأسبوعية) لنزهة في وادٍ يجري فيه نهر، كان ذلك في أيلول من السنة. ولما وصلنا حيث يريد أخرج من كيس كبير كان يحمله بطيخًا أصفر وسكينًا وراح يوزع علينا ما نأكل من البطيخة. وقال بلغةٍ عربية صحيحة لا تخلو من لكنة "ألا يذكِّركم هذا الوادي ببلدكم، ثم روى شعرًا ذكر فيه بردى والربوة. فقال، تأمل الشاعر (وذكر اسمه) بردى في وادي الربوة فتذكر وطنه وهذا النهر (يريد النهر الذي كنا معه على حافاته) فارتجل هذه القصيدة.

لم أشأ أن أقول له إن بردى اندثر كما اندثرت أنهار في أسيا الوسطى كان يعيش حولها بشر أقاموا حضارات، وكانت تمرّ بهم قوافل الحرير من الصين إلى حلب.

أحزنني ذلك ولمت نفسي كيف فاتني تسجيل ما قاله والشعر الذي رواه، وأخذت أتحين الفرص لعله يزورنا في وفدٍ ثقافي. ثم كان أن عدت في وفدٍ آخر إلى دوشانبه في أواخر صيف ثمانية وثمانين، فكان المعلم الأكبر هو أول من سألت عنه فيها، فقيل لي إنه مات، فحزنت لحظي العاثر.

ثم كانت دمشق عاصمة الثقافة العربية عام ثمانية وألفين واقترحت جمع الشعر الذي قيل في دمشق وضواحيها، فقيل لي جمعه الأستاذ محمد المصري ونشر، ولا أزال أفتش عنه ولم أعثر عليه.

في سنتي الدراسية الأخيرة انتقى لنا زملاؤنا الدمشقيون بقعة من الغوطة الشرقية تجري فيها مياه "عين فاس ريّه" وهي مياه فيها شيء من الدفء، قد تكون كبريتية. وكان فاروق السلكا يصورنا في هذه النزهة وفي أغلب غيرها. بعض صور هذه النزهة نشرها ابن زميلنا أحمد ذو الغنى على الشابكة (الإنترنت) وأفتش في هذه الأيام عن "عين فاس ريّه" فلا أجدها، ولم أعثر على أحدٍ يعرف هذه العين، ويبدو أنها اندثرت منذ زمنٍ بعيد! المشاهدات في هذه النزهات هي صور عن التغيرات السريعة التي أصابت الطقس في بلادنا.

وكان لنا رحلات مع طلاب كلية العلوم من مختلف الصفوف والفروع إلى مزيريب، كان نجمها رفاه قسوات، والجميع كانوا يرددون على أنغامه بعض أغاني فيروز، وكانت في بداية صعودها.

هذه الرحلات كانت برعاية أستاذنا وجيه القدسي وبصحبته، وكان لا يزال عازبًا يحب طلابه ويحب صحبتهم، ولم يتغيّر حبّه لطلابه بعد الزواج.

من هذه الرحلات كانت رحلة إلى بيت الدين في لبنان مرورًا ببيروت، رحلاتنا هذه مميزة بتألق الأستاذ وجيه القدسي، وكان يرافقنا فيها من الأساتذة، الأستاذ فتحي

قدورة والدكتور إسحق الحسيني وثنائيات لا تتغير، كرفاه وفلك، تعطِّر هذه الرحلات بأريج الحب الطاهر.

يكمّل النزهات والرحلات، المحاضرات الثقافية وحفلات السمر وما يرتبط بها من تجمعات ثقافية كلها مظاهر مختلفة للنشاط الثقافي، تقتصر فيه النزهات والرحلات على طلاب الكلية أو المعهد العالي.

أما المحاضرات الثقافية وحفلات السمر والتجمعات الثقافية فهي لطلاب الجامعة كافة، وكان الإقبال على اللقاءات الثقافية شديدًا فلا يفوّت الطلاب حضور حفلةٍ في قاعة المحاضرات بالجامعة (التي أصبحت فيما بعد مدرج الجامعة) للشاعرة طلعت الرفاعي أو للشاعر محمد الحريري، أو حفلة سمر يستمعون فيها لموسيقيين من الطلاب ويسمرون فيها على تمثيلية أو يستمعون فيها لبعض أعضاء جمعية "هز وغربل" التي تنشر أفكارها الساخرة في نشرةٍ توزعها على الجامعيين تبدأ بهذين البيتين:

لقد سُئلنا كثيرًا عن مبادئنا   هذي مبادئنا يا قوم فافتونا
فنحن معشر فوضى لا نظام لنا   وفي سبيل العلا نمنا لياليــنا

وهي كما يوحي اسمها وهذان البيتان، نشرة ساخرة لا تهدف إلى التجريح وإنما تهدف إلى التسلية.

إلى جانب هذا كله، فإن المحاضرات الثقافية تتناول موضوعات ثقافية عامة، ترصد اهتمام الطلاب والمجتمع، ويحاضر فيها أساتذة الجامعة وطلابها. وفي جميع اللقاءات كان يتسابق الطلاب إلى حجز مقعدٍ لهم فيها.

تغيرت الحال تدريجيًّا فبعد عقدٍ من الزمن أصبحت المحاضرات ذات الطابع الإيديولوجي أو العقائدي مسرحًا لتكتلات من المستمعين من مشارب عقائديةٍ مختلفةٍ تعترض أو تصفّق للمحاضر كلما جاء في محاضرته بكلامٍ لا يعجب بعضًا منهم ويروق سماعه لبعض آخر.

ثم تطورت الأحوال مع الأيام فكادت تخلو قاعات المحاضرات الثقافية في المراكز الثقافية وكليات الجامعة من الحضور. وأخذ المحاضر يلجأ إلى أصدقائه ليملؤوا بعض مقاعد الصفوف الأولى. وكأن الناس انصرفوا عن الثقافة، لم تعد تستهويهم. وهم قد انصرفوا عن القراءة أيضًا، فما الذي غيرهم؟

كان يستهوي طلاب الجامعة حضور الاحتفالات السياسية التي يحاضر فيها أقطاب الدعوة للمذاهب السياسية الكبرى كمصطفى السباعي وميشيل عفلق وصلاح البيطار... وكنّا نحب الاستماع إليهم، ونستمع للانطباعات التي خلفتها كل محاضرة في نفوس الحاضرين من الطلاب، نناقش بهدوء وكل منّا يصل إلى رأي وينتهي به العديد من المحاضرات إلى قناعةٍ بسلوك الطريق في اتجاه من الاتجاهات التي يطرحها الأقطاب، وهكذا تشكلت تدريجيًّا نوى الأحزاب في الجامعة.

وللأحزاب كلها أخلاقيات ومبادئ تهدف إلى إشاعة العدالة بين الناس والأخذ بيد الضعيف وتوحيد الصفوف... إلا أنها قد تختلف في تعريف العدالة والضعيف، وتوحيد صفوف مَن؟...

والمفروض أن الانتساب إلى أي حزبٍ من الأحزاب لا يكون إلا بعد فهم مبادئه وأبعادها وأخلاقياته والإيمان بها جميعًا. إلا أنني كنت أرى أن أفعال الكثير من الطلاب المنتسبين إلى الأحزاب لا تعبر عن امتثال للمبادئ التي ينادي بها الحزب الذي ينتمون إليه، ولا تتوافق أعمالهم ولا أقوالهم مع أخلاقياته.

ونشطت في تلك الأيام الصحافة في دمشق فأخذت تسأل الطلاب عن توجهاتهم السياسية، وعن آرائهم في العمل الحزبي، وكنت من جملة مَن توجهّت إليهم صحيفة ألف باء الدمشقية، وسُئلت عن رأيي بالمنتسبين من الطلاب إلى الأحزاب، فكنت صريحًا وقلت خلاصة ما ذكرت قبل قليل، قلت إنني أعتقد من ملاحظاتي على سلوك

كثير من هؤلاء، أن الانتهازية وجّهتهم فركبوا موجة الحزب الذي قدَّروا له النجاح أو الغلبة في مستقبل الأيام. وهذا ما جعلني بعيدًا عن الانتساب إلى أي حزب.

لا شك أنني كنت أناقش هذا الموقف، ولقد كدت، لثقتي ببعض من أُجلّ من أساتذتي، أن أنزلق منه إلى دخول حزب منها. إلاّ أن حضوري اجتماع وحدةٍ من وحداته مرة فقط، جعلني أشد تمسكًا بموقفي الرافض.

أعيد النظر اليوم في موقفي الرافض ذاك فأقول ما خلاصته، يجب ألَّا تُخلَّى ساحة العمل السياسي للانتهازيين، ويجب ألَّا يَترك الساحة المخلصون الذين تمرّسوا بالعمل السياسي وأحبّوه، وعلى من لم يدخل هذه الساحة أن يعمل في مجالٍ من المجالات الأخرى، فجميع المجالات التي تقوم عليها نهضة الوطن تتآزر وتتكامل في بناء صرح قوي للأمة اقتصاديًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا ودفاعيًّا وسياسيًّا.

ولا يعني ذلك أن من يعمل في أحد هذه المجالات يسقط عنه واجب العمل في المجال السياسي، يجب أن تكون أذهان الجميع وعيونهم مفتّحةً على ما يجري في كل المجالات. وانتهيت إلى أن التطورات السريعة المعقدة التي تقع في هذه الأيام في كل مجالات الحضارة يندر أن تسمح لمن يريد أن يعمل بجدٍّ، بالتخصص في أكثر من مجال من مجالاتها الأساسية.

وهكذا ظلّت قناعتي راسخةً بأن اختياري التخصص بالعمل في المجال العلمي، حجب عني التخصص بالعمل السياسي والانتساب إلى أي حزب من الأحزاب السياسية.

ومع ذلك فقد كان الحوار السياسي بين الطلاب حوارًا يقوم على الحجّة والإقناع، وقد يخلّف شيئًا من عدم الرضا والامتعاض من أسلوب المحاور، ويزول ما خلّف بعد قليل من الوقت.

أذكر أن وداد طرابيشي كان يدرس مع زميل له، يقول وداد إنه كان يساريًّا، وكان وداد أقرب إلى صفوف اليمين، فكانا يتحاوران في قضايا يكون أحدهما فيها على الطرف النقيض من الآخر. فإذا أعياهما النقاش غنّى وداد وصلةً لأم كلثوم فيطرب زميله ويعودان للدراسة.

لقد نشأت الصداقة بيني وبين وداد طرابيشي بالسكن المشترك، بدأ بغرفة مشتركة في المعهد العالي في السنة الثانية وكان شريكنا فيها محمد الراكان وهو من زملائي في التجهيز. كان كثير الكلام في الغرفة، يرى أن مكان الدراسة هو غرفة المطالعة، وأن غرفتنا المشتركة هي للنوم والراحة، ولا تتم الراحة إلا بما يحدثنا ويرويه من القصص القصيرة المسلية. ثم اكتشف وداد أن زميلنا ينام في الساعة العاشرة ليلًا وأنه يسأل عن الوقت ولا ينظر في ساعته، فأخذ وداد، إذا ما أراد التخلص منه، يلتفت إليّ قائلًا: يا أخي واثق الوقت ينسلّ من بين أيدينا هاربًا، لقد تخطت الساعة العاشرة والنصف! فيندسّ زميلنا في فراشه وينام فورًا دون أن ينظر في ساعته، فنغتنم ساعة إضافية للدراسة. تمتّنت أواصر الصداقة مع وداد في السنتين التاليتين وبخاصة في سنتي الدراسية الأخيرة، التي قضيناها في حيّ الفواخير، والتي كان يزورنا فيها ابن عمه ممدوح - وهو ضابط صفٍ في الجيش - حاملًا معه سمكًا من بحيرة طبريا.

بعد عودتي من الإيفاد إلى فرنسا لقيت ودادًا في دمشق وحدثني عن إنجازه دراسةً عليا في الرياضيات في مصر وأنه ينوي متابعة الدراسة والحصول على الدكتوراه، وقد أنفذ نواياه وعُين عضوًا في هيئة التدريس في جامعة حلب. التقينا عدة مرات، وكانت ترافقه زوجه أم فهد، في زيارة صديقٍ مشترك هو الأخ هاشم هاشم آغا زميلي في تجهيز حلب. والتقينا عدة مرات في وزارة التعليم العالي، وكان يشكو من تجلّط الدم فيقول في أثناء حديثه: لقد مرت الآن جلطة... فأقول في نفسي ما هذا الكلام! توفي رحمه الله

بجلطة، وكان قد أدخل ابنه فهدًا كلية الطب وتخصص بأمراض القلب أو بجراحته. كان وداد عذب الصوت معجبًا بأم كلثوم ويغني بعض أغانيها. وكان عصاميًّا طيب القلب.

أما أحمد بعاج فقد عرفته من قبل في تجهيز حلب طالبًا ليليًّا يسبقني فيها سنةً واحدة وقد يكبرني بأكثر من سنة، دخلنا المعهد العالي معًا، هو في شعبة الرياضيات وأنا في شعبة الفيزياء. وفيٌّ، وفي طباعه شيء من القسوة الظاهرية خلَّفتها فيه بيئته، مثقفٌ أتقن الفرنسية في التجهيز، ودخل فيها شعبة اللغات.

تعلَّمت منه التدخين بالسجائر التي كان يقدمها إلي كلما دخّن، فاضطررت لوضع علبة سجائر في جيبي لأقدم له سيجارة كلما التقينا وأدخن معه سيجارة. وهكذا تعلمت التدخين وأدمنت عليه أكثر من ثلاثين عامًا. لقد استمرت صداقتنا حتى وفاته.

من رفاقي في دمشق فاروق السلكا وعدنان محاسب وموفق نوري وسيف الدين بغدادي. كان موفق نوري طاهر القلب وفيًّا تصدق فيه الآية الكريمة: ﴿ونزعنا ما في صدروهم من غلٍّ﴾ [الأعراف ٤٣] عصاميًّا بقي بعيدًا عن الأضواء طوال السنوات الأربع في الكلية، لم يكن من طلاب المعهد العالي، لفتت إليه الأنظار نتائج امتحانات السنة الأولى إذ كان بين الأوائل.

علّم سنتين في ثانويات دمشق ثم سافر إلى باريس لدراسة الهندسة الكهربائية، وقد استقبلني في باريس مع زوجتي وابننا الرضيع زياد، وقدم لنا فيها مساعدات ثمينة.

عاد إلى سورية وعمل في مؤسسة كهرباء دمشق، فوزارة الكهرباء، وكان آخر موقع له في الوزارة معاون الوزير، هاجر بعدئذٍ إلى كندا، وآمل أن أهتدي إلى ما يصلني به لأتفقد أحواله وألقاه. حياة موفق مثلٌ على الرجل العصامي الكفء الذي لا يلقى ما يستحق من التقدير، لأنه ربأ بنفسه عن الظهور أو التزلّف.

أما عدنان محاسب فكان فنّانًا يصوّر مستعملًا بعض أساليب التصوير، وبخاصة التصوير الزيتي، وأحتفظ منه بصورتين لي، إحداهما بالزيت في فرنسا. وكان من الطلاب النابهين، بل الأول لعدة سنوات، كان يكره أن يرى من يسبقه، وكلّنا فينا عيوب قد تكون عنّا خافية.

كان صلاح أحمد قريبًا مني، أو كنت قريبًا منه في كثير من الرأي في القضايا الاجتماعية والبيئة الاجتماعية، فكلانا ترعرع في بيئةٍ دينيةٍ وكلانا شغل في بيئته الدينية موقعًا في الصدارة.

دخل كلية الهندسة بحلب، ثم تركها ودخل كلية العلوم بدمشق، شعبة الرياضيات، وكان ألمع زملائه وأوسعهم ثقافةً وعلمًا، اجتمعنا في عام ١٩٤٩-١٩٥٠ في شهادة الميكانيك العقلي، فازدادت صداقتنا قوةً وثقافتانا تقاربًا وثراء. وكنا نتناول في النقاش المذاهب الإسلامية، وما تفرع عنها في الزهد والتصوف، وما أضاف كل منها إلى الحضارة العربية الإسلامية من مآثر.

كان يحب الشعر وينظمه بسهولة ويحفظ منه الكثير، ولا عجب فأمه فتاة غسان وخاله بدوي الجبل. كان يجمعنا الشعر والهوى والشباب والجذور الثقافية المتقاربة والعلم، فازددنا قربًا مع الأيام.

أصبحت أنا معيدًا وهو في سنته الدراسية الأخيرة في شهادة التفاضل والتكامل. كريم الخلق شديد الذكاء واسع الثقافة. سأتحدث عنه فيما بعد، فقد كنّا رفيقي الدرب في التعليم وفي الحياة، خسرت بوفاته أخًا عزيزًا، وسندًا أركن إلى حصافة رأيه وصدق نصحه، وسأذكر هنا ما كان موضع اهتمامنا المشترك قبل الإيفاد إلى فرنسا.

كنّا نتنقل في حديثنا عن التعليم، من واقعه وفلسفته إلى طرق إصلاحه. وكنا ندرك أن أساتذتنا يعملون بإخلاص، وأن مسألة تعريب التعليم الجامعي أخذت شكلًا

جديدًا، يدور حول كتابة المعادلات والرموز الرياضية والكيميائية، هل يجب أن تعرّب مكوناتها واتجاه كتابتها، وهل نبقي على الرموز التي أبقت عليها أمم أخرى، كالاتحاد السوفيتي واليابان.

نعرّج في هذا الموضوع على ما قام به أجدادنا في فجر النهضة العربية الإسلامية، وما قام به الغرب لدى ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية. وننتقل من مشكلات التعليم إلى ما طوره العلماء المسلمون من فكرٍ وفلسفةٍ تسطع فيها عقائدهم أو تخبو، وقد يقودنا ذلك إلى التاريخ والأدب، حيث تكون فلسفة المذاهب وميول المؤلف واضحة جليّة.

ولا بد أن ينتهي بنا الحديث أيام الخميس والجمعة إلى شارع بيروت الجديد الفسيح بمساراته المخصصة، رصيف في طرف الشارع للبشر يتنزهون فيه بجانب النهر ما بين أطراف دمشق الغربية والربوة مرورًا بكيوان، يليه مسار للخيول فثالث للدراجات على اليمين، ونظيرها على الشمال يتوسطها مسار عريض للسيارات الخارجة من دمشق والداخلة إليها، والتي قلّما تُرى سيارتان تمران فيه معًا. وكأن هذا الشارع قد أنشئ لنا خصيصى، لشباب الجامعة.

وينتهي بنا الحديث أيضًا إلى بعض هؤلاء: الحلاج ورابعة وجلال الدين الرومي وابن عربي والمعري والتوحيدي، نستعرض بعض آرائهم، والحب الذي قادهم جميعًا إلى الله، وأدركوا بالحبّ وفيمن أحبوا عظمة الله في جمال خلق الكائنات، وبفيض منه أدركوا أن الطريق إليه هو الحب وأنهم خلقوا متحابين فيه.

أعود إلى نفسي بعد كل جولة فأرى أن المخلوقات سواسية، طريقهم واحدة إليه وإن اختلف صعودها والتفافها. ألا يبني الطير عشّه ويحنو على صغاره ويرعى تنشئتهم بالحبّ؟ فيشارك في نشر سنة الله بإعمار الوجود، ألا نستشفّ حتى في روائع أنغريد برغمان أو غريغوري بك أو غيرهما، أنها تتوجه إلى الله بإخلاص سالكةً إليه

طريق الحب، وتقترب من نعيم رحمته بقدر نجاحها في دفع الناس في ذلك الطريق والتسليم إليه وتحابّهم فيه. وكم في ابتهالات أم كلثوم، ومناجاة الخيّام في رباعياته من حبٍّ صادق لله وكشوفٍ وفيوض!

كم كان من الشباب من يدخن سيجارته في السينما تأهبًا للالتحاق في الفيلم بتجربة المحبين سابحًا في رؤاه لاهيًا بها عن عالم الحضور، بعضهم تيهًا وبعضهم انسلابًا. يولد الحب معنا وينشأ على صدور أمهاتنا وترويه قلوبهنّ، وبتشبيك عيونهنّ بعيوننا يشب الحب ويستقر في قلوبنا. ألا نرى أن عيني الطفل معلّقتان بعيني أمّه وهو على صدرها يرضع الحب من عينيها مع الحليب من ثدييها. هذا بعض ما كانت تقودنا إليه اجتماعاتنا وأحاديثنا أنا وصلاح.

وفاة والدي

عاش والدي سنواته الثلاث الأخيرة متنقلًا بين حلب ودارة عزة. أستأجر دارًا في حلب يقيم فيها عندما توجب حالته الصحية القرب من الأطباء. إلا أنه كان أغلب أيامه في دارة عزة. وكان إذا ما شعر بتحسن طلب أن يرافقه أحد أصهاره إلى الجامع يوم الجمعة. شعر بتحسن كبير في صيف عام ١٩٤٧، فطلب مني إعداد الفرس ليركبها إلى الجامع، فأحضرت الفرس. ولكنني لا أعرف كيف أضع السرج عليها وكيف يثبت الحزام، فأشار إلى أحد الحاضرين ليساعدني، وجاء دور اللجام، فلم أحسن وضعه في فم الفرس، فقال مغتاظًا ماذا تتعلمون في مدارسكم، لا خير في مدارس يُقبل فيها طلابٌ لا يجيدون ركوب الخيل والرماية بالصيد، فأتم إعداد الفرس للركوب نفس الشخص، فركب والدي الفرس ورافقه أحد الحاضرين إلى الجامع. أما أنا فقد أسفت لهذا النقص في نشأتي التي كنت بعيدًا فيها عن أيام شباب والدي وكهولته.

كنت قريبًا من والدي في الصيوف، واشتد مرضه في صيف عام ١٩٤٨، فكنت لا أفارقه، إذ كنت أخشى وفاته في غفلة منّا. كان يناديني كلما شعر بضيق فأصب الماء على يديه ليتوضأ وليلاقي ربّه مصليًا. وفي كل مرةٍ يناديني كنت أخشى أن يفارقنا للقاء ربّه. إلى أن كانت ليلة التاسع من تشرين الثاني من عام ١٩٤٨ قبل منتصف الليل، وكنت مستيقظًا فناداني يريد أن يتوضأ، فساعدته على الجلوس في فراشه، ووضعت طستًا أمامه وبين يديه، وأخذت أصب الماء على يديه من إبريق في يدي، فلاحظت أنه لم يعد قادرًا على الجلوس فحاولت مساعدته، ولكنني شعرت أنني لن أقدر على إبقائه جالسًا، فناديت أمي فجاءت لمساعدتي، ولكنها وجدته قد فارق الحياة.

لم ننم تلك الليلة، وفي الصباح بدأت مراسم الدفن وتم الدفن، كما أوصى في المقبرة الشمالية الغربية في قطعةٍ منها مخصصة لأسرة خاله التنّار، وبذلك نكون قد تركنا مقبرة الأجداد الغربية لأسرتَيْ عمينا عارف وبشير وأبناء عمّنا شلّوح.

في ليلة العاشر من تشرين الثاني نمنا متعبين. كنت حزينًا لفقده، وإن كانت وفاته متوقعة، لقد أصبحت يتيمًا. لم يبق لي منه إلا الذكرى، ذكرى الأيام التي كان فيها سندي. كان مهابًا محترمًا في قضائَي (منطقتَي) حارم وجبل سمعان. كنّا نسير خلفه، فإذا مرّ بجمع من الناس، وقفوا احترامًا له وتقديرًا وإذا اختصموا إليه رضي الجميع بحكمه وفتواه. إذا اشتكى أحدٌ إليه من جبل سمعان وهو في حارم حمّله رسالةً شفهية إلى المشتكى منه، فينصاع لحكمه ووصاياه. ثم إنني بوفاته أصبحت مسؤولًا تجاه أمي عن البيت، وعن أختي وأخي كمال. نمت تلك الليلة حزينًا مهمومًا، وقد يكون للحزن والهموم دور في الرؤيا التي حلمت بها تلك الليلة، ولكن الرؤيا هامة.

لقد رأيت أن الأرض قد فَقدت كثيرًا من جاذبيتها فأصبحنا نتحرك على سطح الأرض فنعلو قليلًا إذا ما خطونا عليها ونترجّح كجسم خفيف، كفلّينة مثلًا على سطح ماءٍ جارٍ، قد يكون ذلك تعبيرًا عن هلعي لوفاة والدي وعن هموم المستقبل.

إلا أن المهم هو تتمّة الحلم. فقد رأيت القمر فوق صافيتا وصافيتا في دارة عزّة تقع في الشمال الغربي من أفق جبل سمعان (الشيخ بركات) كما يرى من دارة عزة، رأيته على بعد ما بين قامةٍ أو قامتين من المغيب، وقد تصدع وظهر فيه صدع كشقٍ كبير في صحن وفي الشمال الغربي من أعلاه. ولا يحلّ القمر فوق صافيتا ولا بقربها أبدًا.

وعندما أفقت من النوم، فكّرت طويلًا بهذا الجزء من الحلم. وكنت على ثقةٍ بأن فيه إشارة إلى حدث كبير. واستقر فكري على أنه يشير إلى حدث عظيم، حرب مدمّرة مثلًا في الشمال الغربي من سورية وذهب ذهني إلى أن توحيد الألمانيتين قد يكون سببًا لها، فألمانيا الشرقية تقع في الشمال الغربي من سورية. ثم كان عام ١٩٩٠ وانهيار الاتحاد السوفيتي بسبب اضطرابات العمال في بولونيا، فكانت بولونيا سبب الزلزلة وليس ألمانيا الشرقية، وهي أيضًا في الشمال الغربيّ منّا مجاورة لألمانيا الشرقية.

بعد أيام من الحلم حلمت (تحت وطأة حدث وفاة والدي) أن طيرانًا حربيًّا كثيفًا دخل علينا من الشرق. لا أذكر اتجاه تحرّكه من الشرق، وقد يكون في جوٍّ ماطر، لست متأكدًا من المطر.

بعد وفاة والدي اتخذت لي مكتبًا متواضعًا في القرية صرت آوي إليه معظم أوقاتي فيها ونظمت وقتي، وأصبحت زيارات رفاق القرية محددة في أوقاتٍ ضيقةٍ يوميًّا. وكنت أصطحب معي غالبًا كتب الرياضيات ككتاب فِسّيو ومونتيل أو كتاب شازي في الميكانيك لأنها لا تحتاج منّي إلى صفاء الجوّ حولي، وبخاصة في أوقات حل مسائل الرياضيات والفيزياء.

حلول المسائل التي أنجزتها في مكتبي هذا وفي دمشق، جمعتها في مجموعتين إحداهما للرياضيات والأخرى للفيزياء، وجلّدت الأولى في مجلد ضخم أهديته. وخصصت وقتًا لغير العلوم في الليل، أقضيه غالبًا مع الشعر وكتابات الصوفيين.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

في كلية العلوم معيداً

جرت الامتحانات وتخرج أول فوجٍ من كلية العلوم، فخرجنا من فئة الطلاب، ولكن عشَّش في قلبي حبّ هذه المرحلة من الحياة، مرحلة الشباب بقوّته وآماله وطموحه، وعُيِّنت مدرسًا في تجهيز حلب كما اخترت، تجذبني إليها ذكريات الحياة الليلية وصداقات الفتوّة الخصبة، التي جعلت من الصبية رجالًا، ولكن لم يبق في المدرسة من رفاق الأمس أحد.

أما دمشق، فلا تزال كلية العلوم تزهو بأساتذتنا وزملائنا وكثير من الطلاب المستجدين الذين دخلوا الكلية في سنتنا الأخيرة فيها. فيها الشبان المشرقة وجوههم والعامرة صدورهم بالآمال والأحلام، يبنون بها صورة المستقبل الوضاء، والحب ينبض في قلوبهم فيملأ دنياهم مرحًا ودروبهم بشائر خيّرة. فهنا في دمشق ذكريات الأمس القريب وإليها الحنين إلى الشباب بآماله وأحلامه.

فلما أعلنت كلية العلوم عن مسابقة لانتقاء معيدين في قسم الفيزياء تقدمت إلى المسابقة مع زميليّ الناجحين في الدورة الأولى. فنجحت وزميلي عدنان المحاسب، وعدت إلى قسم الفيزياء معيدًا. كان تفقدي الغرف التي كنّا نجتمع فيها طلابًا لتلقّي الدروس، هو همّي المحبب إلي، إنها ذكريات تهزّ النفس شوقًا إلى تلك الأيام التي كنت لا أزال فيها طالبًا. لقد ولّت ولن تعود، وأبقت لي الذكريات.

في كليةٍ فتيّةٍ لم يكن للبحث العلمي فيها دور، فلم يقم أحد من أساتذتها السوريين ببحثٍ علميٍّ في الفيزياء باستثناء بدايات الأستاذ توفيق المنجد في فرنسا. ثم إن مهام التدريس تثقل كواهلهم، وكنت لذلك أقوم بتوجيه نفسي، واستمع بشوق إلى ما تبقّى في ذاكرة أستاذنا الدكتور إسحق الحسيني عن التوابع (الدوالّ) الخاصة والقيم الخاصة في الميكانيك الموجيّ، الميكانيك الجديد (في أيام دراسته في ألمانيا).

كنت أستمع إليه، وأعود للأستاذ فتحي قدورة فأنتقي من كتالوج مكتبة بلاكويل، الذي لديه، كتابًا في الميكانيك الموجيّ، الميكانيك الجديد الذي حدثني عنه أستاذي الحسيني. ابتعت كتابًا من بلاكويل لم أفد منه كثيرًا، ولا يزال في مكتبتي. وآثرت العودة للغة الفرنسية، فاشتريت عدة كتيّبات من منشورات أرمان كولان، كانت جميعها عن الإشعاع وانتقال الحرارة والإحصاء، وقد أفدت منها كثيرًا، وكنت من قبل قد ألِفتها في كتابة رسالة التخرج عن الأشعة السينية. كذلك حاولت مرافقة صلاح أحمد في دراسة شهادة التفاضل والتكامل، وأنهيت معه جزءًا هامًا من موادها (مقرراتها).

كنت آوي صباح كلِّ يوم إلى قسم الفيزياء فأبو محمد الرجل الوديع الذي لا تفارق الابتسامة محياه، ينتظرني في زاويته الصغيرة في الطابق الثاني مع بيضتين نيِّئتين وكمونًا وملحًا أمتصّ ما فيهما قبل فنجان القهوة والسيجارة. وأطلّ من النافذة على الحديقة الخلفية المحاذية للطريق العام، الذي سمي شارع فلسطين، لعلّي أرى أبا عدنان المكلف برعايتها وبزراعة الأزهار فيها، الذي كان يقدم لي بعضًا منها لأهديه بدوري، فيما مضى من الحياة الطلاّبية... إنه دائمًا يستريح في ظل الشجرة المعمّرة في أقصى الحديقة من الغرب، ذات الأزهار الجميلة الليلكية التي تشبه أزهار "السكّورا" اليابانية. وكلاهما أبو محمد وأبو عدنان هما من رموز الكلية، فقد دخلاها معنا، وأسفت كثيرًا على مغادرتهما الكلية لبلوغهما سنّ التقاعد وحزنت أيضًا.

زرت أبا محمد في بيته برفقة أخيه إسماعيل التركماني المحضّر الآذن في القسم. كان سروره بزيارتي كبيرًا، وسررت أنا أيضًا إذ رأيت أنّ الابتسامة ما فارقت محياه.

تزوجتُ ابنة عمي مريم بشير شهيد في ١٩ نيسان من عام ١٩٥١ واستأجرت غرفة لدى السيدة أربينيه زوجة انترانيك بوغوكيان ضابط الصف الموفد إلى فرنسا في بعثةٍ لمصلحة إدارة المساحة العسكرية، كانت السيدة بوغوكيان سيدةً محترمة، منها

تعلمت زوجتي الكثير. كانت صورة زوجها بلباس جيش الإنقاذ تتصدّر غرفة الاستقبال، وكانت أمه تفاخر بتطوعه في جيش الإنقاذ، وتقول، سورية وطننا لقد آوتنا بعد أن شتت شملنا الأتراك وطُرِدنا من لواء إسكندرون بتآمرهم مع الفرنسيين.

يقع بيت بوغوكيان في مبنى في شارع الباكستان، وخلف المبنى شارع خلفي ضيّق، فيه كثير من الأسر الأرمنية التي هاجرت من لواء إسكندرون، ويتفرع الشارع الخلفي من شارع الباكستان عند مقهى إسكندرون، وهو مقهى بواجهةٍ على شارع الباكستان وأخرى على الشارع الخلفي. هذه الأسر الأرمنية كانت على تواصلٍ وثيق وتعاطفٍ فيما بينها. تعلمت منهم بعض العبارات، كعبارات الترحيب والتوديع والاستحسان... ومقاطع من بعض أغانيهم، وأحببت الأرمن بمعيشتي بينهم أكثر من سنتين، فلقد كانوا ودودين مستقيمين. ومن قبل في التجهيز توجهنا في مظاهرة إلى أحيائهم في حلب، وكان معنا طالب ليلي أرمني خطب فيهم وذكّرهم بموقف الفرنسيين في قضية اللواء فانضمّوا إلى المظاهرة مؤيدين.

أما في فرنسا فقد التقت زوجتي بعض النسوة الأرمنيات في بازار حارتنا فسررن بلقائها وحدثنها عن ذكرياتهن في سورية وتفاخرن بما يحفظن من الأغاني العربية الشعبية. وفي مدرسة المعلمين العليا في شارع أولم في باريس نبّهني باحث مصري أرمني بأن علينا أن نلبس في المختبرات ثياب العمل لنتجنّب تعليقات الباحثين وانتقادهم. والتقيت في مطار يريفان بعد ذلك في السبعينيات، في طريقي إلى موسكو، كثيرًا من الأرمن الذين كانوا في سورية، فاستُقبلنا بالترحيب ورفض باعة العصير السوريّو الأصل من الأرمن في المطار قبول ثمن ما شربناه. حقًّا إنهم يحفظون الود.

انتقلنا إلى غرفةٍ على سطح المبنى، تمهيدًا لاستقبال مولود. كان يزورنا في هذه الغرفة زملاؤنا الذين عُينوا في ثانويات دمشق. كانوا يحملون معهم في زياراتهم

مشكلات حلول المسائل التي ستطرح على الطلاب. كانوا جميعًا في البدء من الفوج الأول من الخريجين، كتوفيق أبو شنب، ثم صحبهم بعضٌ من الفوج الثاني.

كانوا يشقون طريقهم في التعليم الثانوي، هدفهم إثبات كفاءاتهم وإمكانات تطويرهم التعليم، فكانوا يتبارون فيما بينهم في التجديد والتطوير، ولجؤوا إلى المجلات الفرنسية الخاصة بالتعليم الثانوي، فإذا اختلفوا فيما بينهم اجتمعوا عندي على السطح نستعرض الحلول المختلفة ونناقش نقاط الخلاف... وعلى السطح أيضًا كنت أناقش مع طلاب شهادة التفاضل والتكامل ما أنجزتُ دراسته من رياضياتها. أما ما أدرسه من الفيزياء فلم يكن لي من يناقش أو من يسأل.

في سنتي الثالثة معيدًا في الكلية، كنت وزميلي عدنان نلحّ على إيفادنا لأننا لا نجني من وجودنا في الكلية فائدة كبيرةً، ولا نقدِّم للكلية أيضًا فائدة ذات شأن. كنا نقوم بمحاولات لتحسين الدروس العملية في الفيزياء. إلا أن عنايتنا يحدّها كون وظيفة المعيد وظيفةً عابرةً في مرحلة عابرة. فنحن سنعود بعد تحضير الدكتوراه أعضاء في هيئة التدريس.

كان واجب المعيد القيام بالعبء الأساسي من التعاون مع الطلاب في فهم التجربة وهدفها، وما يجب أن يجري في أعماق الفيزياء التجريبية العملية من تطوير. إلا أن وظيفة المعيد مرحلة من الحياة عابرة. ولا بد من هيئةٍ تهتم بالجزء العملي من كل مادة (مقرر)، يعَدّ أعضاؤها إعدادًا مناسبًا ولا يغادرون هيئتهم، وتطور إمكاناتهم ولا يشاركهم أو يزاحمهم في أوجه تطويرهم أعضاء هيئة التدريس. فيحصر التدريب على التجهيزات العلمية فيهم، ويدرّبون، على إلقاء محاضرات في العلوم التجريبية (الفيزياء التجريبية للعاملين منهم في قسم الفيزياء)، وعلى اقتراح تجارب يقوم ببنائها الطلاب وفق توجيه المختص منهم أو بإشرافه... هذه الأفكار هي الأفكار الأولية التي دفعتني فيما بعد لإحداث الهيئة الفنية والهيئة المخبرية في الجامعات وفي مراكز البحوث.

مما لاحظناه أن بعض المهندسين كانوا يتقدمون للعمل في الجلسات العملية للفيزياء، أما المجازون في الفيزياء فكانت حاجة المدارس الثانوية لا تترك لهم مطمحًا للمشاركة في الجلسات العملية. وأقام كثير من خريجي المعهد العالي معاهد خاصة للتعليم الثانوي، كانت تدرّ عليهم أرباحًا وفيرةً. أي إن سورية كانت في الخمسينيات أحوج إلى معلمين في التعليم الثانوي منها إلى مهندسين. ولم يطرأ على هذا الواقع تغير ملموس إلا في الستينيات.

تعرضتْ صورة الأستاذ الجامعي مرةً أخرى للاختبار، فقد طلب أحد الزملاء من أستاذنا نادر النابلسي، أن يساعده في خطبة فتاةٍ جامعية من ذويها، فأعدَّ الأستاذ النابلسي العدة للخطبة، فاصطحب معه صديقًا لوالد الفتاة من القضاة. رحب والد الفتاة بالضيفين، وبعد أن شربوا القهوة سألهم عن عمل العريس، فقال له الأستاذ النابلسي مفاخرًا: إنه أستاذ في الجامعة، فقال والد الفتاة: "تعني معلم، أنا ما عندي بنت أزوجها لمعلم" ولم يخجل من المعلم الأستاذ النابلسي!

هذه صورة الأستاذ الجامعي وموقع مهنة التعليم في المجتمع. ومن قبل فضّل سليم عادل عبد الحق إدارة الآثار على التعليم في قسم التاريخ، ورضي خالد شاتيلا سفيرًا في بلجيكا بديلًا عن متابعة إدارة المعهد العالي للمعلمين.

أما اليوم فالأمثلة أكثر من أن تحصى، فزالت هالة الأستاذ الجامعي التي كونتُها، وانهارت صورته التي رسمتها الأوهام وتحطمت.

اشتد إلحاحنا على الإيفاد في سنتنا الثالثة، ووقفت إدارة الكلية ومجلسها معنا في الاستجابة لإلحاحنا. إلا أن بعضهم كان يدّعي أن توسع الكلية وزيادة عدد طلابها يوجب بقاءنا في القسم، فحسم مجلس الكلية الخلاف واتخذ قرارًا بإيفادنا لتحضير الدكتوراه في جامعة باريس في مدة أربع سنوات.

دعانا عميد الكلية الأستاذ توفيق المنجد وبلَّغَنا قرار المجلس، وقال: في الكلية أساتذة يشكّون في مقدرتكم على النجاح، وقال لنا (أنا وزميلي عدنان المحاسب) إنني لن أمدّد إيفادكما يومًا واحدًا، فكرا في الأمر وأعلماني قراركما خلال أسبوع. كان جوابنا أن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من التفكير، إننا نقبل القرار بكل تأكيد وسرور.

كان الأستاذ الكناني ممن لا يحبذون إيفادنا، فأخذ يحدثنا عن صعوبة تحضير الدكتوراه في الفيزياء في الصوربون، جامعة باريس. قال لنا إن زميلةً فرنسيةً له قررت تحضير الدكتوراه في بداية الأربعينيات، وأنه في زيارةٍ حديثةٍ التقاها في باريس وقد نبت الشعر في ذقنها، وأنه عندما سألها متى ستنهين أطروحتك قالت مَن يعلم؟

في هذه الظروف قررت المضيّ بتنفيذ المهمة: زوجة وطفل، وقرار حازم من عميد الكلية بوجوب تحضير الدكتوراه في أربع سنوات لا تمدد يومًا واحدًا، ولا تمنحني الدولة نفقات سفر الزوجة والطفل.

ولّما كنت سأترك أمي وأختي وأخي الصغير فلم ألجأ إلى مدخرات أمي، واستدنت مبلغًا أستعين به في الغربة، على أن أعيده خلال عام، وحولت سفري جوًّا إلى سفرٍ بحرًا لأوفر بذلك نفقات سفر الزوجة والطفل. وركبت البحر لأول مرة في حياتي.

انطلقنا في السيارة إلى بيروت مع حملٍ ثقيل من الألبسة والمؤونة، وغادرنا بيروت على الباخرة التركية صامسون. أخذنا نبتعد عن بيروت دون أن نشعر بحركة الباخرة، ولكننا كنا نرى بيروت تبتعد عنّا إلى أن غابت وغاب النهار عنا واختفى. وما إن وصلنا الإسكندرية حتى رست الباخرة، وسمح لنا بالنزول لزيارة المدينة. تركنا طفلنا في الباخرة ورحنا نتجول في الإسكندرية وعدنا في الوقت المحدد إلى طفلنا الذي تركناه يفترش محفظة ثياب. أتساءل الآن: كيف أجزنا لأنفسنا ترك الطفل في الباخرة؟!

مررنا في طريقنا إلى مرسيليا ببركان إتنا ليلًا ووصلنا إلى مرسيليا في أول الليل من

اليوم التالي، انتظرتني زوجتي مع الطفل زياد على مقعد من المقاعد المبثوثة في المرفأ ورحت أنا أسعى في نقل متاعنا إلى باريس في شركة من شركات النقل. عدت إليها مع ما تيسر لي شراؤه من عنب وجبن وخبز، فقد كنا نتحاشى اللحم والطبخ استبعادًا لمنتجات الخنزير. ثم ركبنا القطار إلى باريس فوصلنا إليها مع شروق الشمس.

كان موفق نوري ينتظرنا في المحطة فرافقناه إلى غرفته في الشاتليه وكان قد هيأ لنا غداءً من طبخه، ثم صحبنا إلى فندق بسيط في شارع مسيو لوبرانس في الحي اللاتيني، وثابر موفق على مرافقتنا إلى المطعم فرادى إذ لا بد من وجود واحد منّا مع الطفل في الفندق. ووفِّقت أخيرًا باستئجار شقة صغيرة مؤلفةٍ من غرفةٍ كبيرة ومنافعها في ضاحية جميلة هي بورلارين، كانت مؤجَّرة من قبل لزوجة الأستاذ حافظ الجمالي.

أذكر أن الأجر الشهري للغرفة تجاوز ثلث راتب الإيفاد. وعليّ أن أعيش مع زوجةٍ وطفلٍ بما تبقى وأن أوفر منه في سنةٍ ما استدنته. في هذا الشارع، شارع إيفون كان جاريّ صالح أشتر زميلي في المعهد وعبد الحميد الحسن زميلي في الوزارة فيما بعد، فأنست بهما.

وفي انتظار إخلاء الشقة الغرفة استأجرنا غرفةً لمدة شهرٍ في دارة (فيّلا) للسيدة كوبو القريبة من الشقة التي ننتظر شغورها، وكان يشغل غرفة في دارة السيدة كوبو السيد عيسى بلبلة الجزائري الذي يعمل سرًّا مع مصالي الحاج، لذلك كنّا لا نلقاه إلا قليلًا فكانت أغلب أوقاتنا في دارة السيدة كوبو معها ومع كلبَيْها المدلَّلَيْن شوكي وباتاشو اللذين كانا يقفزان على صدر الضيوف تحبُّبًا وترحيبًا ويأكلان مع السيدة كوبو. فوجئت زوجتي بهذا الواقع فكانت تطرد الكلبين "النجسين" بما يشبه القسوه مسببّة بكاء السيدة كوبو التي لم تفهم أسباب زوجتي التي كانت تساعدها في البيت وتقوم بغسل الصحون احترامًا لسنّها.

وكان يُغضب السيدة كوبو طريقتُنا بفتح صنبور المياه طوال مدة غسيل الصحون تقريبًا، فتقول مخاطبةً زوجتي: أنت تهدرين المياه، إن لها ثمنًا، سدّي المغسلة واغسلي الصحون فيها بملئها فقط من الماء، فذهلت زوجتي وقالت لي تنظيف الصحون في فرنسا الأكثر أمطارًا ومياهًا جاريةً من سورية لا يلقى فيها العناية التي يلقاها في وطننا، فلنعجل في الانتقال إلى شقّتنا الغرفة المستقلّة بعيدًا عن الكلاب وعن الرقابة على الماء في تنظيف الصحون، وسأقوم بنفسي بتنظيف الشقة. لقد كان درسًا تلقيناه من السيدة كوبو نحن نهدر المياه وهي قليلة نسبيًّا في بلادنا.

انتقلنا إلى الشقة الغرفة ولقينا فيها بعض الصعوبات في تنظيف أوساخ القطة التي كانت فيها، لقد انتقلنا من معاناة مشكلات الكلاب إلى معاناة مشكلات القطط لبعض الوقت إلا أن السيدة كوبو استمرّت تزورنا أحيانًا، أما صوتها في توجيه كلبيها في نزهتهم اليومية في أول الليل فلم يغب عنّا أبدًا. أمضينا سنتنا الأولى مع أصحاب الدارة الجديدة وأطفالهم بهدوء خفف عنّا مصاعب الحياة والغربة في سنتنا الأولى.

كانت سنتي الأولى في باريس صعبة جدًّا، فالأوضاع المعيشية قاسية كشروط الإيفاد المالية، والشروط الزمنية منها بخاصة. إلا أن لوحات الإعلانات تملأ أبهاء الصوربون وأروقتها في المقر الرئيسي وفي الأبنية الملحقة بها كمعهد الإحصاء ومعهد كوري، وكلها تتحدث عمّا كنت أحلم بالاطلاع عليه وتعلمه، فاخترت عددًا منها، أخذ يزداد في البداية، فشمل بعض شهادات الرياضيات كالإحصاء والاحتمالات وبعض شهادات الفيزياء كالنسبيّة وفيزياء الجسم الصلب والطرائق الرياضية (أو الرياضياتيّة) في الفيزياء. ودورات اللغات واللغة الروسية بخاصة لأن كتبها العلمية رخيصة الثمن، وبها ندخل بابًا جديدًا للمعرفة.

وكان لي صديق في باريس يهوى العلم ويميل في حقوله الواسعة حيث يميل به

الهوى وعلى ما يشتهي منها في حاضره، فملت معه على ما يشتهي وقلت في نفسي أربع سنوات زمن طويل، ثم رأيت أنني لا يمكن أن أوفّي هذه الفروع العلمية حقَّها حتى لو أهملت الغرض من إيفادي، ورأيت أيضًا أن التوسع في الشهوات العلمية لا بد وأن يقود إلى الضياع، فالصديق حمزة رسول، قاده النهم إلى التوجّه إلى تاريخ الأكراد فباع مجموعة رياضيات البورباكيين. فأيقنت عندئذٍ ضرورة تنظيم الوقت واختيار ما يمكن أن يفيدني في تحضير الدكتوراه من الشهادات والبرامج التي تقدمها جامعة الصوربون ومعاهدها وبالقدر الذي يتوفر له الوقت. فأبقيت في برنامج توسعي العلمي شهادة الطرائق الرياضية في الفيزياء مع الأستاذين شوارتز ورو، والنسبيّة مع الأستاذ سوليّيه، وعلى أن اتّبع محاضراتٍ في الجسم الصلب بعد إنهاء سوليّيه محاضراته.

لمست في شهادة الطرائق الرياضية في الفيزياء أن المستوى الذي حققناه في دمشق جيد، فقد كنت كثيرًا ما أتولى شرح بعض النقاط المعقدة والمسائل في الرياضيات على الطريقة التقليدية التي اتبعت في دمشق، وذلك على الرغم من ضعف تعبيري باللغة الفرنسية.

وعدت إلى إيلاء موضوع الدكتوراه اهتمامي وعنايتي، وركّزت على ضرورة اختيار الموضوع والأستاذ، فقصدنا رئيس قسم الفيزياء في الصوربون الأستاذ أوجين دارموا فرحب بنا قائلًا لدي معيدان مسيحي ويهودي، وأنتم لم تمارسوا البحث، واليهودي هو القوي الخبير فما رأيكما. فقلنا له كما ترى أنت. طلب الأستاذ دارموا من المعيد إبلبوان أن يضمنا إليه، إلا أن زميلي تركه.

كان إبلبوان صريحًا وأعطاني بعض نشراته العلمية، وعليها اسمه الكامل إسرائيل إبلبوان، وقال لي أنا أبحث في موضوع تقليدي، في المفعول الجلدي (لتيار كهربائي يمر في سلكٍ مثلًا)، وأطروحة الدكتوراه هي بحث منهجي، إذا أحسن الباحث وأتقن

منهج البحث العلمي نال الدكتوراه، أي نال الاعتراف بمقدرته على القيام بالبحث العلمي وفق المنهج العلمي للبحث. فالدكتوراه ليست اختصاصًا، فأنت عندما تعود للأناضول بعد نيل الدكتوراه، قد يقولون لك هذه حفنة من الرمال ابحث عن كيفية الاستفادة منها.

لم يلاق كلامه عن الأناضول ورمالها وقعًا حسنًا في نفسي فتركته أيضًا، وكان عليّ أن أشكر رئيس القسم الأستاذ دارموا الذي استقبلنا استقبالًا حسنًا وحضرت بعض دروسه، وأن أعلمه بأنني سأترك دون ذكر هذه الأسباب.

توجهت مع زميلي عدنان إلى مدرسة المعلمين العليا الشهيرة (الأيكول نورمال في شارع أولم)، ورئيس قسم الفيزياء فيها الأستاذ روكار عالم مشهور، قرأنا في بعض مؤلفاته في دمشق، له صلة بالجيش الفرنسي، فاستقبلنا وأعدنا عليه ما كنا نتلوه على غيره من الأساتذة: "نحن معيدان في قسم الفيزياء في جامعة دمشق، أوفدنا إلى باريس لتحضير الدكتوراه في مدة أربع سنوات فقط". وكنا نقابل الأساتذة بأحسن ما لدينا من الألبسة. نظر الأستاذ روكار إلى ما نلبس فقرع الجرس، فحضر شخص فقال له: "خذ الأمراء وأرهم قصورنا".

ونبّهني باحث مصري أرمني، إلى أن الباحثين لا يرتدون للعمل في مخابر البحث ومكاتبه أفخر ما لديهم من الملابس، وأن ارتداء الملابس الفاخرة لا يدلّ على الجدّية التي يتحلّى بها الباحث، فشكرته وكنت أظنّ أن حفظ كرامة الوطن تفرض علينا الظهور بأحسن مظهر، وعملنا بما أشار علينا الأخ الكريم عندما قابلنا الأستاذة كوري التي تحدثت معنا بلطف، وعندما أكدنا أنَّ مدة إيفادنا هي أربع سنوات فقط، قالت إن تحضير الدكتوراه لا يخضع لتوقيت كما تخضع الدراسة في صفوف التعليم عامة، فقد يحضّر شخص أطروحته في ثلاث سنوات، كما قد يثابر على العمل بجدٍّ سنواتٍ عديدة دون أن يصل إلى نتائج ملموسة تسمح له بكتابة أطروحته.

تعلمنا أيضًا أن طالب الدكتوراه يفتش عن الأستاذ المناسب للإشراف على بحوثه في موضوعٍ يقترحه هو على الأستاذ الذي يدير بحوثًا في مواضيع مختلفة في المجال الذي يقع فيه اقتراحه. وكانت كلية العلوم بدمشق قد اشترطت علينا أن نوافيها بموضوع الأطروحة في مهلةٍ لا تتجاوز شهرًا.

استجاب الأستاذ غريفيه لهذا الطلب وكتب لي موضوعًا كنت أضحك في أواخر العام الجامعي عندما أقرؤه. استقر عملي عند غريفيه في المدرسة العليا للمعلمين، وكانت أهم مجالات البحث لديه في المسرّعات الخطية. كان المشرف المباشر على عملي شاب حصل على الدكتوراه قبل سنةٍ أو أقل. وهو الذي نبهني إلى أن عليّ إيجاد الموضوع المناسب لبحثٍ للدكتوراه، وقال لو كان لديّ موضوع لعملت أنا فيه. كان عليّ أن أقرأ الأعمال التي أُجريت في المخبر والأعمال المشابهة لعلّي أجد منها كوّةً مضيئةً استنير بها وأقع على الموضوع المناسب.

وقبل دخول حزيران توصلت إلى نشر بحثٍ في مجلة أكاديمية العلوم في طريقي لبناء موضوع حوله، واستبشرت خيرًا واختفى الإرهاق النفسي أو كاد. وكنت فيما فات من السنة الجامعية قد مرضت شهرًا أو زهاءه من الإرهاق الجسمي والنفسي والحاجة إلى الشمس، فكنت كلما آنست قوة ونشاطًا في جسمي أذهب إلى المخبر فأنتكس فأمكث في البيت، لقد كانت أيام الشتاء وأواخر الخريف ممطرة والسماء تلبدها الغيوم، ومرضت زوجتي أيضًا. وكنت مصرًّا على التوسع في المعارف التي لم تكن في متناولنا في دمشق، انتسبت إلى شهادة المناهج أو الطرائق الرياضيّة في الفيزياء وثابرت على حضور دروس الأستاذ سوليّيه في النسبية... إلا أن تحضير أطروحة الدكتوراه كان يؤرقني، وكلما كنت أبعد عنه ساعيًا في طلب الجديد من العلوم ينبهني شيء في داخلي إلى ضرورة العودة بالدكتوراه إلى الوطن. إن قرار الإيفاد والتحذير بعدم تمديده ووجود الزوجة والطفل، كلها ضيعت علي فرصة العمر في تحقيق آمالي العلمية.

وما كاد الإرهاق النفسي يريحني قليلًا، حتى بدأت تنقلات المخبر ترهقني وترهق الباحثين فيه. فقد ساءت علاقة الأستاذ غريفيه رئيس مخبر الإلكترونيات الضيف، بالأستاذ روكار رئيس قسم الفيزياء المضيف، بسبب قبول غريفيه طالبًا نابهًا ترك مخبر الفيزياء ومديره روكار وانتقل إلى مخبر الإلكترونيات، وقيل إنه شيوعي طرده روكار بإساءة التعامل معه. وأدى ذلك إلى إنذار غريفيه بإخلاء أبنية القسم في أواخر السنة الجامعية. فقضينا السنة الجامعية التالية (١٩٥٤-١٩٥٥) في مباني الأيكول نورمال – سانكلو. وهناك قضينا سنة جامعية فقط، وانتقلنا مرةً ثانيةً إلى مباني كهرباء فرنسا في فونتني أورروز.

وكانت سنتي الثانية هي الأشد إرهاقًا في المخبر. كنت أقضي في الوصول إلى المخبر زهاء ساعة، ومثلها للعودة. لذلك كنت اصطحب طعامي معي. ولم استفد من تسهيلات المخبر وتجهيزاته إلا في السنتين الأخيرتين.

حتى في فونتني، ومع أن مترو خط السّو ينقلني مباشرة من جانتيّي إلى فونتني، إلا أن الطريق من محطة المترو إلى مباني كهرباء فرنسا كان وعرًا وطويلًا، لاسيما في الشتاء. وكنت غالبًا أسافر إلى باريس، ومن هناك استقل باصًا ينقلني إلى مباني كهرباء فرنسا في فونتني. إلا أن المسافة والزمن كانا طويلين!

في السنة الجامعية الثانية، استقر رأيي على موضوع الأطروحة واستحسنه الأستاذ غريفيه مدير المخبر وانتقل الإشراف على عملي إلى الأستاذ برتان مدير أعمال المخبر، وفي السنتين الثانية والثالثة نشرت عدة نشرات في مجلة أكاديمية العلوم بباريس ورشحني المخبر لإلقاء محاضرة عن أعمالي فيه في مؤتمر دولي، فألقيتها بنجاح.

نظر الأستاذ برتان في حصيلة ما قمت به، وكان وقع المحاضرة التي ألقيتها عن بحثي الأخير في الأوساط العلمية من المختصين حسنًا، فسرّ بالنتائج، وقال لي،

يمكنك الآن الشروع بكتابة الأطروحة، وإن العمل العلمي الذي قمت به يتكامل في أطروحة دكتوراه في العلوم. فشرعت أكتب الأطروحة وأنشر في مواضيع جانبيةٍ أخرى أيضًا.

كان الأستاذ برتان يتفقدني إذا غبت عن المخبر عدة أيام. وجاء مرةً إلى البيت فرأى علامات الإرهاق على وجهي، فحذّرني وقال لي سأعود يوم الأحد مع زوجتي وسأصطحبكم جميعًا في نزهةٍ خارج باريس، وكانت تلك نزهتنا الوحيدة في الأرياف.

تقدمت بأطروحتي في حزيران من عام سبعة وخمسين، أمام لجنة من الأساتذة، ونلت الدكتوراه بمرتبة مشرف جدًّا. ولكنني كنت أعِدُّ هذه المرحلة لأكثر مما حصلت، كنت آمل الاستزادة من الرياضيات التي لفتت انتباهي إليها شهادة المناهج الرياضية في الفيزياء، وفي ما كان يعرف في تلك الأيام في بلادنا العربية باسم الرياضيات الحديثة، ذلك لأنني كنت أرى ضرورة الاعتماد على الرياضيات للتعويض عن النقص في التجهيزات في الوطن بسبب كلفتها الباهظة، ولحاجتها لكثير من الأطر الخبيرة بها. يضاف إلى الرياضيات الكثير من الجديد عليّ في الفيزياء، كالميكانيك الموجيّ والانصهار النووي والعدسات الإلكترونية والمجهر الإلكتروني... وكنت أطمح لتعرُّف الجديد من طرائق تدريس الفرنسيين لعلِّي أجد فيها ما يحسن اتِّباعه.

وقد كنت في سنتي الأولى أحْضُر محاضرات كثير من الأساتذة، كشوارتز، ورو، وسوليّيه طوال السنة، وهؤلاء كانوا غالبًا كأساتذتنا في دمشق من حيث طرائق التدريس، وإن كانوا يولون عنايتهم المستجدّ في العلم، وما يرون له أهمية خاصة في المحاضرة.

كذلك حضرت بعض محاضرات دارموا، ومحاضرتين فقط من محاضرات لوي دوبروي حامل جائزة نوبل. أما دارموا فكان يقلّب صفحات كتابه فيشير فقط إلى ما

استجد في الموضوع فيتجاوز مضمون المحاضرة عشرات الصفحات. وأما لوي دوبروي، فكثيرًا ما كان يحدّث نفسه ولا يحدث الناس، وكأن به شرود.

كانت سنوات الإيفاد لباريس هي فرصة العمر للنجاح في تحقيق أمانيَّ العلمية التي كنت أطمح إلى تحقيقها بدخولي كلية العلوم. لقد كادت أن تصبح أحلامًا تذروها رياح الواقع المرّ. كنت على الأقل بحاجةٍ إلى سنة أو سنتين من التفرغ للعلم في باريس.

قال الأستاذ برتان: الآن أنت في بداية مرحلة العطاء، بقاؤك معنا يفيد المخبر جدًّا، ويفيدك ويفيد جامعتك. ولما لم ينه زميلي أطروحته، فكّرت في تمديد الإيفاد سنةً، وحدثته بذلك. قلت لعلّ في طلبي التمديد مساندةً فعليةً ومعنوية له، فرفض وألحّ عليّ بالعودة لأن عودة أحدنا تخفف العبء في القسم على الأعضاء فتشفع له بتمديد الإيفاد سنة أخرى. فعدت إلى الوطن في ١٨ تموز من عام ١٩٥٧.

في السنوات الأربع التي عشناها في فرنسا، لم نغادر باريس إلا مرتين، الأولى في صيف عام ١٩٥٥ إلى (فورا)، وهي بلدة صغيرة على البحر، فقد نصحنا الطبيب الذي كان يشرف على زوجتي في أثناء مرضها بقضاء بعض الأيام على البحر، واستأجرت لنا زميلةٌ غرفةً بمساعدة جدها في (فورا). وبالقرب من (فورا) أقام زعماء الثورة الجزائرية إقامةً جبريةً بعد اختطافهم بطائرتهم في عام ١٩٥٦ قبل حرب السويس.

أما الثانية فكانت في صيف عام ١٩٥٦ في هولندا، فقد نصحنا الأصدقاء بالتوجّه إليها لقضاء أسبوعين مثلًا على البحر وشراء بعض الألبسة وتوفير نفقات السفر بالقطار بالمبلغ المخصص لهذين الأسبوعين في باريس. سافرنا وقضينا أسبوعين فيها بمخصصات أسبوعين في باريس.

التقينا هناك أسرة ألمانية من سيدة وابنتها وأختها، فلما علمت بأننا سوريون عجبت وقالت يكتب إلينا شخص يهودي كان يعمل مع زوجي، واختفى فجأةً في أثناء

الحرب، حدّثنا في رسالة أنهم يعملون على اكتشاف البلاد المحيطة بهم والتي تسكنها قبائل متخلِّفة في الشرق وأخرى متوحشة في الشمال. قلت لهنّ نحن من سكان سورية ومواطنيها، نحن من سكان شمال فلسطين، وفي ألمانيا كثير من السوريين، هذه دعاية رخيصة في أوربا، والشعب الألماني مثقف يكشف زيفها بسرعة.

وقد وقفت في لاهاي أمام متجر ألبسة لعلنا نشتري منه، دخلنا المتجر وأنا أتحدث بصوت خفيض بالعربية مع زوجتي عن بعض المعروضات، فرحب بنا صاحب المتجر قائلًا تفضلوا نحن أبناء عمومة، فانسحبت مع زوجتي قائلًا: لقد اكتفينا الآن بالنظر وسنقارن ما رأيناه بالمعروضات في متاجر أخرى وقد نعود، فأمسك بيدي وقال بعد نقاشٍ غاضب: اسمع لن تخرج من هذا المتجر وسأبيعك بأقل ربح، وكن واثقًا بأنني لو لم أربح منك أكثر من فلوران واحد، فإن ما أربحه سيذهب إلى إسرائيل. هذا نموذج آخر من الحملة الصهيونية علينا قبيل حرب السويس.

في بدايات الثورة الجزائرية، في أواخر خريف عام ١٩٥٤ اشتدت حملة الفرنسيين المستعمرين في الجزائر على الثورة وعلى الثوار. وكان قد عاد أحد الباحثين في المخبر من الجزائر حيث يقيم مع ذويه من المستعمرين فيها، وأخذ يردد الحملة الدعائية ضد الثورة والثوار، ورحت أدافع عن الثورة بلغةٍ تنقصها المفردات المناسبة، فانبرى شخص من الحاضرين للدفاع عن الثورة بنجاح. بعد أن انفضّ الجمع وبقي الشخص الذي آزرني في الدفاع عن الثورة تقدمت إليه وشكرته، فقال لي أنا مصري وأكتب بالعربية، وشرع يكتب على ورقةٍ بيضاء، وقال اسمي "بابولار". قلت في نفسي لا بد أنه من أصل يوناني. كان كلما نشر بحثًا يقدم لي نسخةً عنه. وبعد أن أنهى دراسته في عام ١٩٥٥ جاءني قائلًا: لقد عرض عليّ الفرنسيون البقاء والعمل في مخبر بحث مناسب ومنحي الجنسية الفرنسية فما رأيك. فأجبته إن بلدك بحاجةٍ إلى أمثالك فعد إلى

مصر وستلقى فيها التكريم. لم أعد أره بعد ذلك اليوم، وسيكون لي حديث آخر عنه فيما بعد.

أُبعد أديب الشيشكلي عن الحكم في سورية بعد اشتداد المقاومة لحكمه، وكانت قد بدأت المقاومة السرّية قبل إيفادنا إلى فرنسا. وكم أفقنا في الليل على تفجير القنابل بقرب المبنى الذي كان يسكن فيه، وهو قريب منّا، كان يسكن في أول مبنى يلي السبع بحرات في أول شارع بغداد على يسار المتقدم في الشارع، وقد أزيل ذلك المبنى وأقيم المبنى الحاليّ محله.

حاول الشيشكلي إقامة علاقات طيّبة مع اللواء محمد نجيب في مصر إلا أن عبد الناصر أبعده عن الحكم في نفس وقت خروج الشيشكلي من سورية تقريبًا، في أوائل ربيع عام ١٩٥٤. وقد كرهت خروج محمد نجيب، وكرهت عبد الناصر في تلك الأيام. ثم أخذ رأيي يتغير فيه، ومع أحداث تأميم القناة تغير موقعه في نفسي وبدأ يصعد في نفوس أكثر العرب، وناصره العرب في حرب السويس في كل مكان.

كانت الصحف الفرنسية تضع أخبار عبد الناصر في صفحاتها الأولى، فوجِّهت بتغييب ذكره عن الصفحات الأولى. واستمرت جميع الصحف تخصص أكثر من صفحة لشؤون العرب والسويس.

وكان العرب في تلك الصحف شعوبًا متفرقة، تجمعهم طبول الحرب (وفي هذه الأيام لم تعد تجمعهم طبول الحرب). وقفت سورية حكومةً وشعبًا إلى جانب مصر وعبد الناصر واستشهد جول جمال عندما ضرب السفينة الحربية الفرنسية جاندارك. واستنفرت سورية عندما هددتها تركيا من الشمال مؤازرةً منها للتحالف الثلاثي. وتوعدت الثورة الجزائرية فرنسا بالانتقام، وعلى غرارها فعلت ثورتا المغرب وتونس.

ولما قطعت سورية علاقاتها مع فرنسا، وترك كثير من السوريين فرنسا، زارني في

بيتي في جانتيّي أصدقاء جزائريون ومغاربة لشدّ أزري ولتقديم كل عونٍ مادي ومعنوي، ثم عادوا بعد أيام وفي ذروة الأزمة فعرضوا عليّ من قيادة الثورة نقلي مع أسرتي إلى مواقع الثورة على الحدود المغربية فأكون هناك في موقع آمن، أعلّم أبناءهم اللغة العربية والحساب والعلوم.

أما السوريون، فقد ترك كثير منهم فرنسا بعد قطع علاقاتنا معها أو تواروا عن الأنظار، وجاءنا من الجامعة السورية كتاب تطلب منّا فيه البقاء في فرنسا ومتابعة دراستنا. وما كنت ألتقي في باريس إلا عددًا قليلًا من زملائنا: صلاح أحمد وعدنان محاسب وأسعد تقلا: كنّا نستغرب مجيء سوري في هذه الظروف إلى باريس، وعلمت من صلاح أن أحد الحزبيين المرموقين جاء إلى باريس، وعندما سأله كيف تأتي في هذه الظروف، وكيف تركت الوطن وما هي أحواله، أجابه ببرود لقد تركنا البلاد في أيدٍ أمينة!

أيام الأزمة كانت قاسيةً في الغربة وفي بلدٍ معادٍ، كانت أيام محنةٍ طويلةٍ، تلبّدت السماء بالغيوم، فلم تشرق علينا الشمس، في أثناء حرب السويس، ولو دقائق طوال أكثر من عشرة أيام، وكانت الرطوبة والمطر الخفيف المستمر قد جعلت أنفاسنا رطبةً وبخارًا، فضاقت أنفاسنا في الصدور. ومسلسل ادعاءات الفرنسيين وحلفائهم الإنكليز والإسرائيليين السخيفة أمرضني، وكنت قد انقطعت عن الدوام في المخبر ولزمت الفراش فلجأت زوجتي إلى جارنا الذي استأجرنا الغرفة منه، وهو طبيب روسي أبيض (أي قيصري) من جورجيا، فطمأنها ونصحها أن تطعمني لحم خيل مفروم نيئًا وأن تخلطه ببعض التوابل والخضار لأتقبّله. والفرنسيون يأكلون لحم الخيل ولديهم لحّامون مختصون بلحم الخيل.

وجاء الفرج بإنذار الاتحاد السوفيتي الدول المعتدية لتوقف اعتداءها وتنسحب،

وصدرت الصحف الفرنسية وصفحاتها الأولى مكللة بإطار أسود إشارة إلى نذر الحرب والتخوف من ضربات الاتحاد السوفيتي، تلاه أيضًا إنذار من الولايات المتحدة بضرورة الانسحاب لعدم إعلامها بما اتفق عليه الحلفاء الثلاثة المعتدون. فكانت نهاية حرب السويس دمارًا للساسة الإنكليز والفرنسيين وانسحب إيدن محطمًا من الساحة السياسية في إنكلترا. وتنفسنا الصعداء وتحسّن وضعي الصحي بتحسن الوضع النفسي.

عدت إلى المخبر، فجاءني مدير المخبر الأستاذ غريفيه فتلقاني بصوته العالي المجلجل قائلًا: "أين كنت غائبًا عن المخبر كل هذه المدة؟ كنت مع الجزائريين؟ كلكم لا تتورعون عن حمل رشاش ورمينا به تاتاتا... أخرج من هذا المخبر واذهب إلى أصدقائك...". فقاطعته غاضبًا وقلت له: "كنت مريضًا.. تهاجمون بلادنا وتحتلون أرضنا وتريدني ألَّا أنفعل وأن أعمل في المخبر بانتظام.. كيف تتصرف أنت لو احتُلَّت أرضكم؟"، وجمعت أغراضي وخرجت. فلحق بي أكثر الباحثين قائلين: يا سيد شهيد إن السيد غريفيه طيب القلب وصوته عالٍ مجلجلٌ بطبيعته، ثم إن الفرنسيين ليسوا غريفيه، نرجوك أن تنتظر قليلًا وألَّا تلصق بالفرنسيين تهجّم غريفيه. ولكنني كنت مصرًّا على ترك المخبر، وتابعت خارجًا من المبنى كله وهم ورائي، ثم وقف أحدهم قائلًا اسمح لي بأن أرافقك إلى المنزل ويمكننا أن نحمل متاعك بسيارتي...

بعد أيام قليلة جاء الأستاذ برتان إلى البيت، وبكلمةٍ منه لطيفة واعتذار عما جرى عاد بي إلى المخبر.

وفي أواخر حزيران قدم الباحثون في المخبر وهم فرنسيون جميع الخدمات والأعمال اللازمة لحفلة دعم الأطروحة، كعرض الصور والمخططات وتوزيع الشراب ونابوا عن السوريين في حضور الحفل والابتهاج بنجاحي.

صورة أخرى عن غالبية المثقفين الفرنسيين الذين عرفتهم، أعرض مواقف الأسرة التي سكنّا في الطابق الأرضي لديهم في بورلارين. كان النقاش مع الجار حول عبد الناصر يجرّنا إلى خلافات حادة، كان يسميه هتلرًا صغيرًا يمكن أن يجرّ المنطقة كلها إلى الدمار، وكنا قد انتقلنا من بورلارين إلى جانتيّي في صيف عام ١٩٥٤، وانقطعت مناسبات الجدل السياسي. فلما وقعت حرب السويس بعد سنتين، جاءنا الجار وزوجته يحملان الزهور، ليقولا إنهما يستنكران موقف الحكومة الفرنسية ويعرضان تقديم كل عونٍ ماديٍّ ومعنويٍّ لنا ويؤازراننا في محنة هذه الحرب.

أما مواقف الجزائريين والمغاربة عامةً فكانت واضحة وصريحة ضد تصرّفات الحكومة الفرنسية، وكانت البلاد المغاربية كلُّها في حالة ثورة على الحكم الفرنسي، انتهت في تونس والمغرب بالاستقلال وخروج الفرنسيين في عام ١٩٥٦، ووجّهت قوة الضغط الفرنسية على الثورة الجزائرية.

وكنت التقيتُ جزائريين اثنين في بيتٍ استأجرنا فيه غرفة لمدة شهر أو نحوه، في دارة (فيّلا) السيدة كوبو، بانتظار سفر زوجة الأستاذ حافظ الجمالي وإخلاء القبو الأرضي الذي استأجرته في بورلارين. كان أحدهما يعمل مع مصالي الحاج قبل الثورة واسمه عيسى بلبلا (أو بلبله) حاولت بعد عودتي إلى الوطن الاتصال به فلم أوفق، انضمّ إلى الثورة وانتظم عمله ما بين الجزائر وفرنسا، وحصلت على عنوانه في الجزائر من صديقه وهو الجزائري الثاني براكا (بركات)، وهو لا يتكلم العربية مطلقًا، كان يبكي في بعض الأحيان عندما يسمعنا نتكلم العربية ونحن ننظر إليه، ويقول رغم أن الفرنسيين ربطوا لساني فإن قلبي مسلم يكرههم. وهو الذي كان صلة الوصل بيني وبين الجزائريين في فرنسا، واصطحبني مرةً للقاء مجموعةٍ منهم، وكان يصحب الجزائريين الذين زاروني في أثناء حرب السويس. لم أجتمع به بعد الحرب، أو في سنة ١٩٥٧.

كنت كلما طلبت منه عنوانه يقول لي، لا عليك سأكون قريبًا منك دائمًا، وكنت لا ألحّ عليه لعلمي أنهم يتناوبون في الغرفة الواحدة نوبات، النوبة الواحدة عدة أشخاص.

ومن السوريين صلاح أحمد وعدنان محاسب، وقد حضرا الحفل واصطحبني صلاح وزوجتي إلى بيته في أنطوني. فقد هيأت لنا أم ياسر الغداء الذي نحب مجدّرة البرغل والعدس التي افتقدناها زمنًا طويلًا. وقضينا ساعات في الحديث عن السفر والإعداد له، وعن المفاجأة التي أعدّها لنا صلاح، سماع أغاني محمد عبد الوهاب بما تركه له محمد محفل الذي طرد من فرنسا لتعاونه مع الثورة الجزائرية.

أما أسعد تقلا فقد عرفته في بدايات عام ١٩٥٧، وتوثقت صلتي به بعد عودته إلى الوطن، وقد اشتريت منه قبل سفري، أول آلة تصوير جيدة، ولا تزال محفوظة لدي.

وأما موفق نوري، فقد أنهى دراسته في أوائل صيف ١٩٥٤. وأما حمزة رسول، فقد اشتريت منه مجموعة بورباكي في الرياضيات قبل سفره.

وقد جاء موفدًا من الجامعة عددٌ من الزملاء في كلية العلوم ، منهم: محمد أبو حرب وزوجته نجاح بيرقدار ومصطفى حداد وأسعد درقاوي وعبد الرحمن حميده... وسبقنا إليها حسن كمال من مديرية الآثار، ومن قبل نهاد رضا. أما رضا رضوان وزوجته الألمانية، فقد حلّا محلنا في الغرفة التي استأجرناها في جانتيّي، إلا أنني لم أر أحدًا منهم في حفل الدفاع عن الأطروحة.

جمعتنا الغربةُ في باريس بالعديد من السوريين، كان منهم أصدقاء مذ كنّا في دمشق، كصلاح أحمد وزوجته وابنهما ياسر. أُوفد صلاح بعدي بسنةٍ واحدةٍ فقط، وقد كنت تركته في دمشق يعدّ نفسه للانتخابات، وكان نجاحه مضمونًا، يدعمه موقعه الاجتماعي في محافظة اللاذقية، ومركزه الثقافي والعلمي في الجامعة. إلا أنه التحق بنا في

باريس، وقد تغير توجهه في الحياة، فهل جرى ذلك بتأثير التغيرات السياسية التي وقعت في الوطن وما رافقها من تغيراتٍ فكريةٍ يحملها دعاة أكفاء، بعضهم على اتصال وثيق بصلاح، كالمهندس عبد الرزاق قدوره.

جاء صلاح إلى باريس بفكرٍ تقدميٍّ واضح، وبيَّن لنا أن الأفكار أصبحت الآن واضحةً أيضًا في سورية. هناك اتجاهان أو تياران عريضان فقط، إما ضد الإمبريالية أو معها. وعاد صلاح في صيف عام ١٩٥٥ إلى الوطن ليصطحب أم ياسر وياسر إلى باريس، وكان التياران في الوطن يتعاظمان، وكل منهما يجرف ما تبقى من التيارات أو التوجهات الضعيفة.

جاءنا بصورةٍ عمّا استجد في الوطن، فالمعركة تحتدم في تلك الأيام بين التيّارين، واشتد الصراع على تمثيل دمشق في مجلس النواب، وبخاصة بين ممثّلَيْ التيارين، رياض المالكي ومصطفى السباعي، وكان ذلك بعد اغتيال عدنان المالكي. قرأنا عن المعركة وكيف انتصر التيار التقدمي بنجاح رياض المالكي، وهذا يعني أن علاقاتنا توطدت، أو هي في طريقها إلى التوطيد مع الاتحاد السوفيتي، فهو رأس المعسكر المضاد للإمبريالية.

وصلاح شاب اجتماعي مثقف، التفَّ حوله في باريس الكثير من الشباب العرب التقدميين وأنشأ صداقات قوية مع المصريين بخاصة. وتأثر به بعضهم إعجابًا به. فغيّر مثلًا توجّه رشدي راشد من القانون والعلوم الاقتصادية إلى الرياضيات وأصبح من أبرز علماء تاريخ وفلسفة العلوم الإسلامية عالميًّا، وترأس هذا الفرع في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي. وتعمقت صداقتهما، ويعترف رشدي بفضل صلاح في توجُّهه.

لم يتّبع صلاح في دراسته ما نصّ عليه قرار الإيفاد، فكان أجرأ مني، فقد أُوفد وكان في وضع مماثل لوضعي، زوجة وطفل، واتخذ قراره بتفضيل بناء شخصيته

العلمية على تنفيذ ما نص عليه قرار الإيفاد بتحضير الدكتوراه في أربع سنوات، فاستمر ينهل من باريس علمًا ثماني سنوات.

كانت اجتماعاتنا كثيرة رغم تباعد موقعَي العمل، كان كثيرًا ما يقصّ علي أنه أنجز عملًا علميًّا عرضه على أستاذه فأقرّه عليه واستحسنه، وطلب من صلاح إعداده للنشر. بعد عدة أيام يزورني في البيت ويقول لي مبتسمًا، لقد اكتشفت الخطأ في العمل أثناء إعداده للنشر، وسأعرضه غدًا على الأستاذ. يذكرني حديثه بما كان يجري بيني وبين الأستاذ تقي الدين وزملائي في شعبة الفيزياء بكلية العلوم.

اضطرت زوجتي مريم إلى الانتساب إلى مدرسة الأليانس لتتعلم الفرنسية على وجهٍ حسن، فكانت كل يوم تضع ابنها زيادًا في دار حضانة بعيدة، في كرملين بيسِّتر، لأن أجورها تتناسب مع دخل الأسرة، ذلك لأن بلديتها شيوعية.

كان زياد في الثانية من عمره، وَلوعًا بأمه، وما إن تتركه وتبتعد عنه قليلًا، حتى يبدأ بالبكاء فتسيل دموعه غزيرةً على خديه. أما أمه فتولِّي مبتعدةً ودموعها تجري على خديها، وتنتظر الباص لينقلها في طريقه إلى المدرسة، وأخذت إمارات الحزن ترتسم على وجه زياد في صوره في الحضانة، واستمرت أمه تبكي يوميًّا وتتابع دروس اللغة الفرنسية.

في سنتي الأخيرة في باريس دخل في بيئة صداقتنا المهندس أسعد تقلا، وكان يسكن قريبًا من صلاح في أنطوني، لذلك كان لزوجاتنا خططهنّ الخاصة لاسيما في توفير حاجات الطبخ النادرة، كالبقدونس لصنع العجة والتبولة، وهو موجود ومعروف في فرنسا ويوزعه اللحامون بمقادير رمزية، فكن يذهبن معًا إلى سوق الهال لشراء حاجتهن منه، كما كنّ يقطفن ورق العنب من الدوالي المنتشرة كثيرًا في الضواحي. سألهن مرةً رجل عمّا يصنعن به، فوصفن له استعمالاته بإسهاب، فرأينه بعد أسبوع يقطف ورق الدوالي.

في سنة ١٩٥٧ أقيم حفل عيد الجلاء في السفارة الباكستانية ودُعينا فحضرنا، والتقينا أكثر زملائنا الذين افتقدناهم في أيام الشدّة، وقد سعدنا بلقائهم، وأطلنا المكوث بينهم في السفارة، واحتفظنا بالعديد من الصور، وتنوعت أحاديثنا عن الحرب والشوق إلى ربوع الوطن، وصمَّم بعضنا على ضرورة تواصلنا فيه.

لم يكن أجمل من لقائنا في عيد وطني بعد طول تفرق وغياب، وفي سفارة دولةٍ إسلاميةٍ هبَّت لنصرتنا مرارًا، كان الشوق قد ارتسم على وجوهنا، والحنين ينبض في قلوبنا، ويتدفق سلسًا على شفاهنا كألحانٍ موسيقية، ودفء الأمن والأمان في هذا الركن يعمر صدورنا.

في هذه الليلة أدركت أن من أهم معاني الوطن، أنه يجمع مواطنيه ويؤلف بين قلوبهم، ولا يَظهر ذلك جليًّا إلا في ديار الغربة وفي أوقات الشدّة.

لم يكن البعد عن الوطن وعمّن فيه هيِّنًا، ففي سورية أحبّة لا يفارقنا ذكرهم، منهم أمّي، وأحبة عشنا معهم أجمل أيام العمر وأخلدها ذكرًا، والأهل الذين قضينا معهم ما فات من العمر. تصلنا رسائلهم تحمل نسماتٍ من الوطن، تحرك فينا الشوق والشجن، وتذكِّرنا بعهدٍ مضى، وبما مرّ من زهرة العمر وآماله التي ضاعت سدى.

ونتساءل متى نعود؟ وهل يزهر العمر ويزهو بآماله من جديد، أم أنّ الرياح لا تزال تجري بما لا تشتهي السفن.

كنّا في غربتنا لا نطمح إلى أكثر من الرسائل. كان أخي إبراهيم يحمِّل رسائله صورًا ضوئية متنوعة، أمي في تلعادة تمشي بين "حبال الجبس"، وقد حان وقت قطافه، أو صورًا من نزهة صيدٍ في جبل الشيخ بركات، وفي الرسالة ريشة صغيرةٍ ناعمةٍ أقرب ما تكون لزغب الطير... ما كنّا نطمح إلى أكثر من ذلك.

ولكننا حظينا مع قناعتنا بهذا القليل، بزيارات أنعشت الآمال وسررنا بها أيما

سرور. فقد زارنا من الوطن الأخ الدكتور محمود رستم معه زوجته وأختها، والصديقان إيليا عبسي ومصطفى الأيوبي، وزارنا في باريس أستاذنا توفيق المنجد في أثناء إيفاده بمهمة اطلاعيّة إلى فرنسا، وزارنا فيما بعد الأستاذ نادر النابلسي في مهمة أخرى له، فذكّرانا بالكلية وبأجمل شطرٍ من حياتي الذي مضى وانقضى فيها.

بعد حفل الدفاع عن الأطروحة، بدأ الإعداد للعودة إلى الوطن: اصطحاب وثيقة بنيل الدكتوراه، وحملة على توديع باريس باستكمال المراجع والكتب في الترموديناميك، لأنني سأكلف تدريسه بعد أن أُنهيَ عقد الدكتور الحسيني، فهي أكثر مواد الفيزياء تنظيرًا وأقلّها جاذبية للطلاب والأساتذة ولا يُعقل دفعها لزملائي الذين كانوا أساتذتي بالأمس. وعليّ استكمال المراجع في الميكانيك الموجيّ والفيزياء الذرية والنووية والإلكترونيات... والرياضيات والنشر والتنظيم... هذه الجبهة العريضة في الفيزياء والرياضيات التي فتحت منذ سنتي الأولى في باريس، ما كان بالإمكان توفير المال لشراء بعض الكتب الهامة في بعض ميادينها إلا بالاعتماد على شراء نسخٍ مستعملة، فكنت أقضي وقتًا طويلًا في المكتبات المتخصصة في بيع وشراء الكتب المستعملة.

كان لنا جار هو الطبيب دوندوا، وهو روسي قيصري من جورجيا أرسله ذووه لدراسة الطب والإعداد لها في باريس، وبعد عام من دخوله كلية الطب، بدأت الحرب العالمية الأولى، وانتهت بسقوط الحكم القيصري في روسيا، فاضطر الطبيب دوندوا للبقاء في باريس، وتزوج فتاةً فرنسية توفيت قبل أن تنجب. وكان يحبّها فلم يتزوج بعد وفاتها، فعاش وحيدًا، كانت زوجته ميسورة الحال، فالدار التي يسكن في غرفةٍ منها ويؤجّر ما تبقى هي ملكها، ومخزن التحف الأثرية والأشياء القديمة الذي يقضي يومه فيه هو ملكها أيضًا. لا تزال قبعتها على مكتبها فيه، كما وضعتها عليه آخر مرة. لا يغيّر شيئًا في ترتيب محتويات المخزن، فأصبح المخزن، أثريًّا بما فيه.

كان يتدفأ في الشتاء في المكتب على ما ينشره مصباح زيت الكاز من حرارة. أما في غرفته حيث ينام، فلا يعرف فيها أيّ وسيلةٍ من وسائل التدفئة، ويسدّ منخريه تحاشيًا للبرد بالقطن، ويرتدي معطفين، أما كم يرتدي تحتهما فالله أعلم.

كان لا يسمح لأحدٍ بدخول غرفته، ويستثني زيادًا من هذا المنع، وكان بين الثانية والرابعة من عمره. وكانت زوجتي تضيّفه إذا ما صنعت طعامًا يعجبها، وكان يحبّ مرق تلك الأطعمة (كالكبّة المطبوخة)، وأظنّ أنه كان في أواخر الستينيات أو في أوائل السبعينيات من العمر.

لقد ألفناه كما كنا نعطف عليه، ولمس هو ألفتنا له، فأخذ يحبِّب إلينا البقاء في فرنسا، ولم يكتم عنّا بأنه أصبح يشعر وكأنه يعيش في أسرة. حزنت أنا وزوجتي لفراقه ولشقائه في وحدته، وأوصيت الصديق رضا رضوان، الذي حلّ محلنا في الغرفة، خيرًا به.

ودّعناه بصورةٍ على درج الطابق الأرضي، وكانت دموعه تبلل لحيته البيضاء، وعيناه محمرّتين. ما أصعب الفراق، هذا الشيخ عاش معنا، كثيرًا ما كنت استيقظ في الليل على سعاله، كما كان يقلقني حاله إذا لم يستأذن يومًا ما ليدخل غرفتنا ولو قليلًا. وكثيرًا ما كنّا نرسل إليه مع زياد شيئًا لاستطلاع حاله. لدى مغادرتنا باريس في القطار إلى مرسيليا لم تفارقني صورته وهو يبكي على الدرج. كنت كلما عزمت على الكتابة إليه في دمشق، أكبح جماح نفسي، وأقول ستنسيك الأسرة والأصدقاء التفكير فيه بعد إرسال الرسالة، أما هو فستنكأ رسالتك جراح غربته ووحدته، فلا أكتب وهذا خطأ.

كان صلاح أحمد وزوجته حياة في وداعنا، فقد استأجرنا سيارة إلى محطة القطار، وكنت أودع باريس بالنظر متأملًا شوارعها ومبانيها، لا أذكر سبب مرورنا بشارع سان ميشيل العظيم في الحي اللاتيني. إلا أنني كنت أودعه وداعًا أخيرًا.

في القطار تزاحمت الأفكار وما يرافقها من صور، بلادي وأهلي وأمي منهم

بخاصة، تختلط بها فجأةً صور جزء من الحياة ولّى ولن يعود، حياة التلمذة والاستزادة من العلم، وجمال قسوة الحياة والشعور في خضم المعركة بحلاوة النصر المرّ. هل وداع هذه المرحلة هو وداع للشباب وحيويته وعنفوانه، وداع للإبداع والابتكار، ودعت مرحلةً مشابهة في نهاية مرحلة الدراسة الجامعية الأولى، وها أنا اليوم أودع مرحلة ثانية. كأن الإنسان يكره الاعتراف بانقضاء مرحلةٍ من عمره، فيحاول خلق ما يشابهها في مرحلةٍ أخرى ويودّع ثانيةً هذه، وهو يودع عمره ووجوده مقسّطًا على مراحل.

أبحرنا في مرسيليا على يخت الملك فاروق الذي دخل في خدمة الدولة، فمرّ بنا على جنوة ونابولي اللتين زرناهما في طريقنا من بيروت إلى مرسيليا، وكأن البتزا كانت في بداية انتشارها عجينةً بحجم الكفّ وعليها أنواع من السمك الصغير.

كان فرحنا بالعودة إلى الوطن هو المسيطر في هذه الرحلة، كلما اقتربنا من الوطن تزداد الانفعالات إغداقًا علينا بالتصورات، كيف سنلقى أهلنا وأصدقاءنا بعد أربع سنوات في فرنسا.

أما المفاجأة فكانت في اليونان، فالصورة التي رسمتها الصحافة في فرنسا، هي أننا نجونا مما دبَّروا لنا من المكايد. وأما في اليونان، فكان الترحيب بنا يفوق تصورنا، قوبلنا بترحيب ما كان في حسباننا، كانت كلمة الترحيب ناصر، ناصر، إنه ترحيب بالمنتصرين، وكأنهم شركاؤنا في الحرب والنصر. لقد أصبحنا نشعر في اليونان بالنصر ونزهو به، قدموا لنا الشراب في مطاعمهم وجعلونا نشعر بالفخر في كل مكان. يكفي أن يشكّ جمعٌ من الناس إذا مررنا بهم أننا عرب حتى يبادروننا بتحيتهم المعهودة ناصر ناصر.

في شوارع أثينا شاهدنا الدرّاقن أكوامًا على العربات، كل عربةٍ يدفعها صاحبها مصطحبًا ميزانًا كموازين أمثاله في دمشق أو حلب، فاشترينا درّاقنًا من إحدى العربات وأكلنا منه ما شئنا دون غسله ودون إزالة ما فيه من زغبٍ شائك، وبعد أن

أكلنا عددًا مما اشترينا منه شعرنا بحرقة في شفاهنا، ذكرتنا أكوام الدرّاقن على العربات بالوطن فرحنا نلتهمه دون تبصّر.

وصلنا بيروت وكان الأهل في انتظارنا في المرفأ يلوحون بأيديهم، عمي وإخوتي إبراهيم ومحمود وأصهارنا، وكان كمال هو الوحيد الذي تغيّرت ملامحه عليّ كثيرًا عمّا كان عليه يوم سفرنا إلى فرنسا. عدنا معهم مباشرةً إلى حلب فدارة عزة لأرى أمي وأخواتي ولترى مريم ذويها أيضًا. تركتُ مريم وزيادًا في دارة عزة، وسافرت إلى دمشق لأستأجر بيتًا آوي إليه مع الأسرة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

في كلية العلوم مدرسًا

بعد عودتي من الإيفاد، كان همي الأول في دمشق، استئجار بيت، وشراء الحاجات الضرورية، من سُرُرٍ، وخزانة ملابس، وبعض الكراسي، وحاجات المطبخ. رافقني موظف في الكلية إلى نجار مفروشات "المؤيد" الذي وعد بصنع خزانةٍ وسريرٍ وأرائك، على أن أدفع الثمن تقسيطًا. واضطررت لشراء أسرةٍ حديديةٍ، وكراسي بسيطة من أعواد خشبٍ وقشٍّ، لاستعمالها ريثما ينجز النجار صنع ما جرى الاتفاق عليه. ولا يزال السرير والخزانة وبعض الأرائك التي صنعها المؤيد في أواخر عام ١٩٥٧ موجودة لدي وفي حالةٍ حسنة.

تفرَّغت بعد ذلك لعملي في الكلية، كان عليّ أن أتسلَّم مكتبة القسم من المهندس عبد الرزاق قدورة، الذي صدر قرار إيفاده لتحضير الدكتوراه، تلك المكتبة التي كان قد أسسها الأستاذ فتحي قدورة مذ كنت معيدًا، كما كان عليّ أن أطّلع على ما كان يدرّسه المهندس قدورة في مادة (مقرر) الترموديناميك، التي كلفت تدريسها.

لقد أدخل المهندس قدروة بعض التطوير على ما كان يدرّسه أستاذنا الحسيني، كان جلُّ التطوير في النظرية الحركية للغازات، كما أدخل مبادئ المعالجة الإحصائية. وأتاحت لي اللقاءات القليلة بالمهندس قدورة قبل سفره، أن ألمس فيه ما يحبِّبه إلى من يلقاه، لمست التواضع الجمّ والوجه الخيّر البشّ الودود. كانت تلك اللقاءات فاتحة الصداقة وبداية طريق تعاونٍ طويل مثمر.

كانت محاضرتي الأولى على مدرج ابن الهيثم، لطلاب شهادة الفيزياء العامة، في مادة (مقرر) الميكانيك الفيزيائي، وقد تهيّبتها. تهيّبت لقاء الطلاب، فأنا لا أعرف مستواهم، وأريد أن يكون ما ألقيه في محاضرتي مفيدًا وجديدًا ومفهومًا، وأريدها أن تكون بدايةَ تفاعل مجدٍ وجذّاب.

كنت شديد الاهتمام بما يرتسم على وجوههم من تعابير الاستحسان والفهم أو الانقباض والإعراض. وكان في وسط الصف الأول طالب ارتسمت على وجهه منذ بداية المحاضرة ابتسامة حسبتها حائرة، إلا أنها وضحت لي بعد دقائق قليلة، إنها ابتسامة عبّر بها الطالب عن سروره بالمحاضرة، وبما حملت إليه من المعلومات بطريقةٍ جديدة. كان هذا الطالب حسن كنيش، وكان إلى جانبه عدنان أسود، وكانا من الطلاب النابهين، وقد أصبحا زميلين في هيئة التدريس فيما بعد.

وكان من زملائهما في هذه الشهادة في تلك السنة الجامعية (١٩٥٧–١٩٥٨) بعض زملائي الذين دخلوا معي كلية العلوم سنة افتتاحها، فكانوا من ضحايا تغيير نظام الدراسة تعسّفيًّا في أثناء السنة الدراسية (١٩٤٧–١٩٤٨). كما كان من طلابها في تلك السنة أيضًا، إبراهيم المنيف من تونس ومحمد البنّاني من المغرب، وقد لقيته في دمشق سفيرًا للمغرب في أواخر القرن الماضي.

أذكر أنني كنت أرى أن الطلاب الذين يعيدون بعض الصفوف الأخيرة مرارًا عديدةً كزملائي الذين دخلوا الكلية معي ولا يزالون طلابًا في شهادة (أو صف) الفيزياء العامة، التي كانت كالمصفاة يتضخم عدد طلابها بالراسبين في امتحاناتها مع الزمن، هؤلاء يجب أن يعاملوا معاملة خاصة تؤدي إمّا إلى نجاحهم، وإمّا إلى إيقاف معاناتهم، ذلك لأن في نجاحهم في الصفوف السابقة ما يدل على كفاياتهم الفكرية ولو في حدود. ويمكن التمييز بين الحالتين، حالتي النجاح وإيقاف المعاناة، بالامتحان الشفهي، كما يمكن العودة إلى أوراق الامتحانات الكتابية أو التحريرية إذا أشكل الأمر. لذلك كنت أفصل في الامتحانات الشفهية الطلاب الذين أعادوا صفهم مراتٍ عديدة لأمتحنهم امتحانًا خاصًّا تطبيقًا لهذه الرؤية.

أذكر أنني في هذه السنة الدراسية، كنت أفحص طلاب شهادة الفيزياء العامة في

امتحان شفهي في مدرّج ابن الهيثم. وجاءني قبل الامتحان زميلي في التجهيز جاسم علوان، وكان قائد الشرطة العسكرية، يوصيني خيرًا بزميل لنا في التجهيز في حلب، تسبِّب له الرسوبَ رهبةُ الامتحان والخجل مني أستاذًا وهو لايزال طالبًا.

قلت احْضُرْ بنفسك وسترى، ليس في الامتحان ترهيب ولا انحياز، فحاول الاعتذار عن الحضور، ولكنني اصطحبته معي فانتحى زاوية بعيدة من المدرّج، وكان خجولًا، وخرج معجبًا بالطريقة وبمصارحة الطلاب... وقبلت وزارة التربية هذه الرؤية في إيقاف معاناة الطلاب، فقبلت تعيين الطلاب الذين نجحوا في الصفوف الثلاثة الأولى معلمين في الدرجة الأولى من المرتبة السادسة، وعيّن زميلنا محمد الراكان معلمًا في ثانويات حلب تطبيقًا لما ارتأيت.

١. الوحدة السورية المصرية

أُعلنت الوحدة السورية المصرية في ٢٢ شباط من عام ١٩٥٨، فوجئنا بها تقريبًا، واستُقبلت من عامة الشعب بالفرح الذي عُبِّر عنه بالمسيرات والتجمعات والغناء والرقص. وكان المصريون قد أعدّوا لها، فكنّا نسمع من إذاعاتهم "وحدة ما يغلبها غلّاب"، و"أنا واقف فوق الأهرام وقدّامي بساتين الشام". إنها أمنية كل السوريين، كانت أمنيةً وتحققت بيسر لم يكن في الحسبان. لذلك كان بعضنا يخشى ممّا يخبئه المستقبل، وأنا كنت من هؤلاء، كانت فرحة كبيرة يشوبها شيء من الخوف.

في الليل استأجرت سيارة جُلْت بها مع أمي وزوجتي وابننا زياد في دمشق حول بوابة الصالحية، نشارك الناس فرحتهم وسُرَّت أمي، وكانت تلك جولتها الوحيدة في دمشق، لم تخرج من البيت طوال السنة الدراسية. زارنا لوجودها معنا أخواي إبراهيم ومحمود فخفَّفا عنها ضيق الغربة، وكادت تألف الحياة في دمشق إذ بنت علاقات ودٍّ مع الجيران، أم محمد وبناتها، إلا أن كسر رجل زياد وهو يقفز عن كرسي مع بنت

الجيران الصغرى، وبيوت المدينة الضيقة وبعدها عن بناتها، كل ذلك جعلها تعيد النظر وتقرِّر بل تصمِّم على البقاء بدارة عزة بعد أن تعود إليها.

وقد كان بالإمكان تغيير رأيها لو منحتُها من وقتي نصيبًا أكبر نزور فيه الجامع الأموي والسيدة زينب وسوق الحميدية... إلا أن وقتي كله كان قد استولى عليه التعليم.

كان همّي في التدريس أن يلمس الطلاب فيما أقدمه لهم من علمٍ فائدةً أكيدة، تظهر في اهتمامهم ومتابعتهم والتشوق إلى المزيد، ويرتسم الرضا والفهم على وجوههم.

كنت أرى أن المدرس، منذ قبوله هذا العمل، مسخّر لخدمة الطلاب، مسخر لنقل العلم إلى طلابه، أفضله بأيسر الطرق، وأحدثه بعرضٍ منهجيٍّ علميٍّ واضح وأمين.

وكنت أشعر أن بعض الذين تسربوا للتدريس في الكلية قد أدخلوا فلسفةً على التعليم، غريبةً عمّا عهدنا عليه أساتذتنا المؤسسين، وهم لم يعاصروهم في التعليم لا مؤسسين، ولا طلابًا. لذلك كانت فلسفتهم غريبةً وكان سلوكهم مستهجنًا.

يدخل أحدهم قاعة الدرس بعد مضي الوقت، ويخرج منها قبل انتهاء الوقت، بعضهم استعلاءً وبعض لا يشغل نفسه بمصالح الطلاب، بل همّه مصالحه الخاصة في التعليم، كالراحة، وصرف كل جهدٍ بهدف الربح المادي، كوضع كتاب وتيسير أساليب بيعه للطلاب.

ويدرك الطلاب تمايز أساتذتهم، ويميزون جيدًا المصلح من المسيء ولو حاول الاستخفاء، ويشعرون بأن بين أساتذتهم من يسوءُه أن يكون زميلًا لمثل أولئك المتعالين أو الجشعين الفاقدي الإحساس بمسؤوليتهم تجاه مواطنيهم، تجاه جيل عهد إليهم إعداده إعدادًا حسنًا للمستقبل، في وطنٍ استقلّ حديثًا، وسيكون لخطواته الأولى الأثر الفعال في رسم مستقبله.

كنت حريصًا على حفظ ما توارثناه عن أساتذتنا المؤسسين في التفاعل مع الطلاب،

وخاصة في الدرس، وعلى إبقاء أذهانهم متفتحةً متحفّزة، ترصد بوعي ما مرّ من الأفكار في المحاضرة، وما يمكن أن أتوجّه إليه. فإذا شعرت بتعثّر الغالبية في متابعتي، خطوتُ خطوةً نحوهم وتوجَّهت إليهم لمعرفة مدى قرب ما أرمي إليه في توجُّهي إلى أذهانهم. كان مستوى التفاعل في كل محاضرةٍ وما جرى فيها يدخل في تحسين نتاج المحاضرات القادمة.

كنت أقضي وقتًا طويلًا في إعداد محاضراتي لألقيها بأنسب طريقةٍ تلائم الطلاب، دون التخلي عن المستوى العلمي الذي أحدِّده في بدايات محاضراتي عن المادة (المقرر).

لاقيت تفهمًا من الطلاب، وتقبَّلوا ما يفرضه عليهم رفع المستوى العلمي من جهدٍ، وكنت أسعى للوصول بهم إلى المستوى العلمي للمادة في الجامعات الأوربيّة، ليس سعيًا لتقليدها، ولكن لبلوغ المستوى الذي يؤهلهم لمتابعة تطور الفيزياء، ولتمكينهم من تطويرها في التعليم الثانوي، ويؤهلهم أيضًا للدخول مع أمثالهم في تلك الجامعات إلى عالم البحث العلمي ومؤسساته.

كنت ألمس مدى ما أحقِّقه من نجاحٍ في وجوههم وفي تجاوبهم وفي أسئلتهم ومناقشاتهم. ثم إنني أحبُّ هذه المرحلة من حياة الطالب، أحب أن أشاركهم فيها حياتهم، ألم تكن أجمل مراحل حياتي!

إنني إلى جانب شعوري بواجبي تجاه طلابي، أحاول استعادة المرحلة التي انسابت من عمري فجأة وولّت، ويسرّني أن أجعل طلابي يتمتعون بجمالها وعنفوانها وأحلامها، وأن أشاركهم مرحهم وسعادتهم فيها، وأن أستعيد فيها طيف المرحلة التي أحببت.

أحببت طلابي وشعرت بحبّهم، شعرت بالألفة تجمعنا في الدرس وخارجه، في الرحلات، في الحمّة، وكسب، وديك الجن، وعين الصاحب... تجمعنا في الأعياد، وفي وداع أحدهم أو في الاحتفال به، بمشاركته أفراحه، والوقوف إلى جانبه إذا ألَـمَّت به المصائب.

أذكر اجتماعنا في العطلة الانتصافية في عام ١٩٦٠، فقد قررنا الاجتماع في وقتٍ مبكر، طلاب شهادة الفيزياء العامة، في هذه العطلة حيث يكون خريجو العام السابق في عطلةٍ للتعليم الثانوي. وقررنا أن يكون اجتماعنا في موقع متوسطٍ في سورية، في ديك الجن في حمص. كانت الحالة السياسية في سورية والجمهورية العربية المتحدة عامةً مضطربة، فقد ساءت علاقة الجمهورية العربية المتحدة بالاتحاد السوفيتي، وبالشيوعية في الوطن، وقاسى كثير من أصدقائنا من الأوضاع السائدة، وما جرّت من ويلات.

مرَّ الاجتماع تعطِّره أغاني وديع وفيروز يغنِّيها للجمع نوفل موسى وعيسى مسّوح ويرددها الجميع. بعضهم انضمّ إلى حلقة الدبكة، وبعض أخذ يستعيد ذكريات السنة الماضية أو ينقل إلى الذين انتشروا منهم في الثانويات السورية أخبار الكلية ومن فيها من أساتذةٍ وأصدقاء.

ذكَّرني اجتماعنا في ديك الجن بحمص، باجتماعنا في المنشيّة بحلب، يوم ودَّعْنا حياة التجهيز باجتماعنا فيها نعاهد أستاذنا محمد العالم على متابعة الرسالة التي حمَّلَتْنا إياها مدرسةُ التجهيز بألسنة رسلها أساتذتنا محمد العالم وصحبه.

وبالأمس بينما كنت أمام سينما القاهرة (تسمَّى روكسي قبل الوحدة) ليلًا بانتظار دخول الصالة، شعرت بيدٍ علت كتفي برفق، ظننت أنها يد أحد زملائي، فالتفتُّ فإذا بها يد أستاذي الوزير محمد العالم. سُررت به يومها. لم تُنْسِهِ الوزارة طلابه، بل زادته تواضعًا وإلى طلابه شوقًا، وتذكرت يوم كنت أسير في طريقي إلى باب التجهيز الخارجي وبيدي مسبحة وأنا تلميذ في الصف العاشر وهو خلفي، فلما اقترب مني انتزع المسبحة مني قائلًا ليس لك بها حاجة لا تحملها، إنها رعاية أبوية.

زارني بعد أكثر من عقدين وقد أقعده المرض، أضفته في بيتي عدة أيام، وأشعر اليوم وقد توفاه الله، أن اهتمامي بإدارة المركز، مركز الدراسات والبحوث العلمية وسيرد

ذكره، طغى على ما كان يجب عليّ أن أخصه به من الوقت فأمضي معه وقتًا نستعيد به ذكريات التجهيز أو الوحدة، أو في حوارٍ حول مشكلات التعليم. إنها سيِّئات عملي في المركز، الذي كان يطغى على كل شيء، حتى على اهتمامي بولديّ زياد وطارق.

ارتُكبتْ في عهد الوحدة أخطاء في مؤسسات الدولة وفي غيرها أضعفت زخم الوحدة؛ فقد امتدت الأيدي العابثة إلى التعليم وإلى الجامعات بخاصة، فسُرِّح أستاذان من كلية الهندسة بحلب، ولم تتأخر الجامعة الأميركية ببيروت في تعيين أحدهما (هو الدكتور فاتح صقّال) عضوًا في هيئة التدريس فيها، وعندئذٍ فقط توقف مدّ التسريحات في الجامعات، إلا أن بيئة رواج التقارير وما يرافقها من افتراءات رخيصة ترسخت في الوطن واستقرّت فيه، حتى قيل من قبيل المبالغة: إن الأخ لم يعد يأمن أخاه في كل ما له علاقة بالسلطة.

عَمَدَ كثيرٌ من المثقفين إلى حرق ما لديهم من الكتب التي قد تُتَّخذ دليلًا على انتمائهم لحزب أو على ممالأتهم لسياسة معينة.

وكم وقع من الإساءات التي يمكن أن تجرّ الويلات على شخصٍ وعلى أسرته بغاية الحصول على قليل من المال، يقضي به كاتب التقرير سهرةً في مقصف.

وقد سرى هذا الداء في بعض طلاب الجامعة، فكان لا يتورع طالبٌ عن كتابة تقرير فيه كثير من الافتراء على زميل له لا يحبّه، أو لقاء مبلغ زهيد.

ولم أسْلَم أنا أيضًا من ذلك، وحامت حولي الشبهات، وكم سألني الأستاذ نادر النابلسي عميد الكليّة عمّن يزرع اتهاماته لي هنا وهناك، والتي كان يدفع حدَّتها عني الدكتور زهير البابا الأستاذ في كلية الصيدلة وكنت لا أعرفه، حتى ذهبت الظنون بالأستاذ النابلسي إلى زوجتي؛ فقال لي: قد تكون زوجتك شيوعية، أو على صلةٍ وثيقةٍ بنشاط الإخوان المسلمين!

وفي ليلةٍ من ليالي أواخر صيف عام ١٩٥٩ ذهبت مع زوجتي لحضور عرض فيلم، إلا أننا وصلنا متأخرين أكثر من ثلث ساعةٍ على بدء عرض الفيلم، فرجعنا إلى المنزل فجأة، وشعرت زوجتي بحركةٍ في البيت، فطمأنتها ونمنا.

توجهت صباحًا إلى الحمام لأحلق ذقني فافتقدت المصباح الكهربائي، وتبيّن لي أنه نزع قسرًا، ووجدناه بعد عدة أيام في سلّة الخشب الذي يوقد في الحمام. فأيقنت أن ما لاحظته زوجتي بعد عودتها إلى البيت بالأمس كان صحيحًا! علّق أخي إبراهيم على الحادث قائلًا: هذا طريق عبادة الفرد؛ إنه ممتلئ بالمآسي التي ستنالنا جميعًا.

بالأمس زار عبد الناصر حلب، وله فيها شعبيّة تفوق التصور. انتشر الناس في الشوارع التي سيمر فيها موكبه، وكان منها الشارع الذي يقع فيه مكتبي. قررّ خالد (سائق السيارة) أن يرى عبد الناصر في طريقه إلى المكتب، فتلك فرصة لا تفوَّت.

كان كلما حاول التسرّبَ إلى الصفوف الأولى المشرفة على الطريق العام - وهو قصيرٌ نحيف ذكي - يلاقي ممانعةً ودفعًا قويًّا يعيدانه إلى الصفوف الخلفية، إلى أن لاح في هذه الصفوف الخلفية رجل طويل قوي البنية يحمل عنقودًا ضخمًا من الموز، فحدثتُه أن يقفز على ظهر الرجل ويستقر على كتفيه ليرى الموكب جيدًا، مستغلًا انشغال إحدى يدي الرجل بحمل عنقود الموز وانشغال الناس بعبد الناصر.

فإذا علا صوت الرجل مستنكرًا قال له يا أخي ألا تحملني لأمتِّع عيني برؤية عبد الناصر، ألا تحب أنت عبد الناصر؟ فيسكت الرجل، ثم لا يلبث أن يمدّ يده إلى عنقود الموز قائلًا لقد جعت بانتظار موكب عبد الناصر، كُلْ مثلي من هذا الموز، ألا تحب أنت عبد الناصر، فيسكت الرجل على مضض.

ثم مرّ موكب عبد الناصر فأخذ الرجل يهزج أسوة بغيره ويرقص وخالد على كتفيه قائلًا له حيي عبد الناصر. إلا أن خالدًا لاهٍ بأكل الموز، فرماه الرجل قائلًا جبح

(قبحّك الله) حملتك أكثر من ساعة على كتفيّ لتحيي عبد الناصر لدى مرور موكبه، إنك لا تحب عبد الناصر. فجاء خالد إلى المكتب وهو يلهث خوفًا من غضب الناس. ثم التفت إليّ أخي إبراهيم قائلًا اقرأ كتاب "الخوارج والشيعة" لفلهاوزن فسترى فيه صورة عبد الناصر.

اشتريت الكتاب وقرأته فوقفت فيه على مقدمة فلهاوزن إذ يقول في معرض دفاعه عن أبي موسى الأشعري، ما معناه: ونحن نعلم أن العربي لا يخون إلّا لطمع في مالٍ أو في نساء!

زار كمال الدين حسين وزيرُ التربية المركزي دمشقَ والتقى في وزارة التربية عددًا من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة، وكنت ممن دُعوا لمقابلته، فسألني عن رأيي في الوحدة، وذكر لي ما يخطِّط من تنظيم زيارات يقوم بها أعضاء هيئة التدريس في جامعات الجمهورية، للإقليمين وللجامعات فيهما.

وبعد أن استرسل في وصف ما ستتركه الزيارات من آثار طيبةٍ في نفوسنا، أجبته قائلًا إن الوحدة غاية كل مواطنٍ، ولكنها لا تُدعَّم وتقوى بالزيارات والسياحة، التي لا شك أنها مفيدة، إنما تدعَّم بتنفيذ خطط البحث العلمي، ومن خلال تنفيذها سيتعرَّف أعضاءُ هيئة التدريس بعمقٍ بعضهم بعضًا، وستنشأ روابط أقوى وأصدق فيما بينهم، وأجدر بتقوية أواصر الوحدة. ولم يطل اللقاء.

بعد أيام حضر فاروق السلكا لمقابلة الوزير قبل سفره ملحقًا ثقافيًّا في بلغاريا ورومانيا، فسأله أبو درّة (وكان من رجال المخابرات المصرية في السفارة المصرية في سورية قبل عهد الوحدة) قبل دخوله على الوزير: هل تعرف الدكتور شهيد؟ وما هي ميوله السياسية؟ فإن ما لدينا (ولدى الوزير أيضًا) أنه ينتمي إلى حزب غير مرغوب فيه. فقال له الأستاذ السلكا، أنا أعرفه منذ ثلاثة عشر عامًا، لا علاقة له أبدًا بذلك

الحزب، فأتمَّ أبو درّة فورًا قائلًا: وما لدينا عنه من معلومات هي أيضًا من صديق يعرفه منذ ذلك العهد، فقال له الأستاذ السلكا، أنت تقصد أن ما لديكم من معلومات هو من فلان (وحدَّد له اسم الشخص)، هذا رجل له غايات... فقال له أبو درّة، أرجو أن تذكر ذلك للسيد الوزير وأنت عنده.

قد يكون رأي مخابرات الإقليم الجنوبي فيّ قد تغيَّر بعد هذه اللقاءات، فقد سُمِّيت رائدًا لطلاب كلية العلوم، في لجنة الثقافة العامة والتربية القومية.

ومما يلفت الانتباه أن كثيرًا من الطلاب الذين كانوا فعّالين في تلك الأنشطة الطلابية تابعوا تميّزهم بين أقرانهم، فكان منهم: دريد لحام الفنان الكبير المبدع، وحبيب حداد عضو القيادة القطرية، والدكتور سليم ياسين نائب رئيس مجلس الوزراء، والدكتور على هاشم وزير التعليم العالي، والدكتور محمد علي حورية رئيس جامعة حلب، والدكتور عزيز شكري مدير الموسوعة العربية، وصلاح قهوجي (حاليًّا عزيز) محافظ القنيطرة...

كانت الدسائس تحاك حولي وحول الدكتور طاهر تربدار، فقد مُنِعَ من زيارة مصر لقضاء أيام مع عروسه، مع أنه خريج الجامعات المصرية، ثم سُمِحَ له.

أما أنا، فاقترح عليَّ الأستاذ النابلسي عميد الكلية إيفادي تسعة أشهر، إلى نوشاتل بسويسرا، وصدر قرار الإيفاد. وودعني طلابي بسهرة في بيت أحدهم في القصّاع، اجتمع فيه عشرات، منهم ومن أصدقائهم الذين كانوا كثيري الحضور في رحلاتنا وفي اجتماعاتنا الخاصة، وكانت ليلة ودٍ وصفاءٍ لا تنسى.

٢. تسعة أشهر في سويسرا

ركبنا البحر إلى البندقية بباخرة إيطالية حديثة وجميلة. التقينا على الباخرة أُسرًا أرمنيةً في طريقها إلى أمريكا، ولقد ترك ترافقنا أطيب الأثر في نفوسنا، وذكَّرنا كثيرًا

بجيراننا الأرمن في دمشق. وفي البندقية أمضينا سويعات ماتعة متنقلين في ترعها بالجندول، ومن البندقية نقلنا القطار إلى نوشاتل في سويسرا.

في نوشاتل التقيت الشاب الحلبي عزيز كسّاب وزوجته رونيه، كان أكثر دخله الذي يعيش منه من كتابة أطروحات الدكتوراه لشباب عرب، حتى إنه توقف عن دراسته وعن تحضير الدكتوراه لنفسه. والتقيت بعضَ الطلاب المصريين وزوجاتهم.

كانت زوجتي حاملًا بابننا طارق، فجاءنا أحد إخواننا المصريين، وكنت أساعده في دراسة الفيزياء، ودعانا لزيارة معرض الزهور في زوريخ، وكان في أواخر أيامه، فلبينا الدعوة شاكرين، إلا أن الطريق إلى زوريخ كان كثير المنعطفات، وكان صديقنا يسير بسرعةٍ فائقة ليصل زوريخ في النهار، ونزور المعرض في يومه الأخير، يوم ٢٩ أيلول من عام ١٩٥٩.

أدت هذه الرحلة القاسية إلى توقف نمو الطفل وتباطأت حركته في بطن أمه فولدته في ٢٠ تشرين الأول من ذلك العام خديجًا قبل اكتمال الحمل بثلاثة أشهر أو شهرين، وكان الطبيب محمود برمدا في دمشق أوصانا بتجنيب أمه التعب وكل ما يرهقها في أثناء الحمل، ولم نتذكر وصاياه إلا بعد وقوع المحذور!

كان عمرُ زياد لدى ولادة أخيه طارق ست سنوات ونصف السنة بل أقل قليلًا. ولغياب أمه في المستشفى، كان يطبخ لنا في هذه السن، فكان يعتلي كرسيًّا ليتمكن من رؤية ما في القدر (الطنجرة).

ومرةً تركنا أخاه في عهدته لنحضر عرض فيلمٍ ليلًا، وكان زياد يخاف من الوحدة في الليل، فعانى في الساعتين اللتين غبناهما عنه كثيرًا، ولاسيما لوقوع أخيه من الأرجوحة، وكان لا يزال في دور النقاهة بعد الحاضنة.

أما دراستي في المعهد فكانت في التفاعلات النووية في الطاقات المنخفضة، قدمت

نتائجها في محاضرةٍ في أسبوع العلم بعد عودتي إلى دمشق من الإيفاد. ومن أهم ما أفدته في نوشاتل خبرتان:

إحداهما في تنظيم الإفادة من الدوريات العلمية أينما وجدت في الدولة. فهناك في سويسرا بريد يتحرك بين المعاهد ومراكز البحوث، يمكّنني هذا البريد من استعارة ما شئت من الدوريات مدة أسبوعين، ثم أعيده بنفس طريقة استعارته، إلى مركز الإعارة في العاصمة برن، التي تجلبه من مكتباتها أو من المكتبات السويسرية الأخرى.

أما الثانية، ففي تنظيم الدراسة في المعاهد الصغيرة؛ وذلك أنه لَـمَّا كانت نوشاتل صغيرة، فقد لا يوجد في الصف الجامعي إلا القليل من الطلاب، فعمد معهد الفيزياء في نوشاتل إلى تناوب اختصاصَيْن، في الصفيّن الأخيرين الثالث والرابع، فإذا كان دور الاختصاص (أ) في هذا العام في الصف الثالث، يكون دور الاختصاص (ب) في السنة القادمة في الصف الثالث، ويكون طلاب (أ) قد ارتقوا إلى الصف الرابع. ففي العام القادم يدرّس الاختصاص (ب) في الصف الثالث والاختصاص (أ) في الصف الرابع وهكذا دوريًّا.

وبهذه الطريقة يتمكن المعهد من افتتاح عددٍ من الاختصاصات التي تهمه بتكاليف تسيير منخفضة.

أخذت مشكلة التدخين تبدو لي في نوشاتل مقلقة لأول مرة، فقد أَلَـمَّت بي نوبة روماتيزم احتلت مفصل رجلي اليسرى الأمامي أو الوجهي، وكادت تقعدني، بل أقعدتني أيامًا، ونصحني الطبيب بالتوقف عن التدخين، ولم أتوقف عن التدخين شهرًا إلا بصعوبةٍ بالغة!

نوشاتل مدينة صغيرة، لا يتجاوز عدد سكانها خمسةً وثلاثين ألفًا، فكان لا بدّ لزوجتي من الاشتغال بما يفيدها ويملأ وقتها، فلم تر مما يلائمها في نوشاتل أحسن من

الخياطة، فانتسبت لعدّة دورات متتالية في الخياطة، وبنت صداقاتٍ حميدة مع عدد من السيدات كاتَبْنَها عدة سنوات. وقد لاحظنا أن الناس في الجزء ذي الثقافة الفرنسية أكثر ألفةً من الناس في الجزء ذي الثقافة الألمانية.

٣. العودة إلى دمشق والمجلس الأعلى للعلوم

عدت إلى دمشق في بداية الفصل الدراسي الثاني، وكان مجلس القسم قد احتفظ لي بمادة الترموديناميك، وبما يملأ نصابي التدريسي. وكان قد استجدّ في أثناء غيابي في نوشاتل إحداث فرع للمجلس الأعلى للعلوم في دمشق، وآخر للمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، فدعيت للمشاركة في أعمال المجلس الأعلى للعلوم عضوًا في السكرتارية (الأمانة) الفنية. وكنّا فيها ثلاثة أعضاء مروان محاسن (محاسني فيما بعد) ووفائي حقي وأنا معهما. كنا نعمل في المجلس مساءً ما بين الساعة السادسة والساعة الثامنة على الأقل. وتوزّعنا عمل لجان المجلس الخمس، ولجنة المقررين (مقرري اللجان الخمس).

تشمل لجان المجلس الخمس جميع الفعاليات العلمية، وهي لجان: الأجهزة العلمية، والأفراد العلميين، ووحدات وموضوعات البحوث، والنشر العلمي، والاتصالات العلمية.

وتقوم لجنة المقررين بالتنسيق بين اللجان الخمس، وفي المجلس سبع شعب علمية تتوزّع الاختصاصات العلمية، وتحال عليها موضوعات من لجان المجلس الخمس لإبداء الرأي فيما يعرض على كلٍّ منها مما يقع ضمن اختصاصها.

في هذا النسيج المتناسق من اللجان الأساسية الدائمة في المجلس وشعبه العلمية، كان علينا؛ أي على السكرتارية الفنية في الإقليم الشمالي السوري، أن تقوم بجميع مهام المجلس في سورية، وإعداد كل ما يلزم لتحريك اللجان الخمس، لأن مهام أعضائها في

الدولة لا تترك لهم متّسعًا من الوقت يكفي للتفكير في تشغيل اللجان على وجهٍ مثمر.

كانت علاقتنا الرئيسية بمقرري اللجان، وعلينا أن نضع بين أيديهم ما يقنع اتخاذه جدولًا لأعمال الجلسات، ونعدّ التقارير الملحقة بكل جدول، يبسط كل منها مسوّغات طرح الموضوع الخاص من الجدول، وما ورد بشأنه من مراسلات إلى المجلس، والرأي الذي اتخذ باسم مقرر اللجنة في كيفية معالجة الموضوع. إن عمل السكرتارية الفنية في المجلس شديد التنوع والاتساع، إلا أنه متكامل، وإن إدراك جميع عناصر التكامل لا يكون إلا بالسيطرة على صورة مهام المجلس، فتجعلها واضحةً كاملةً متسقةً، فيتمكن كلٌّ منا، من هذه الصورة، إدراك النقص في عناصرها، أو كشف الاضطراب في تكاملها واتساقها، ويجد الوسيلة لاستكمال النقص أو إصلاح الاضطراب الذي أصابها.

وكان من أهم أعمالنا في عهد الوحدة، وضع خطة علمية خمسية ترافق الخطة الاقتصادية الاجتماعية في الإقليم السوري، للبحوث وللأفراد العلميين لتنفيذها في الجامعات ومراكز البحوث وفي التعليم وفي الإدارات. وهذا يوجب الانتباه إلى التداخل بين الخطط الفرعية، وبين الخطط الخمسية السابقة والحالية...

ولقد أفدت كثيرًا من عملي في التخطيط مع الدكتور مصطفى طلبة السكرتير العام المساعد. وكانت النظرة الشمولية لمهام المجلس وتدبير شؤون تنسيقها وتصنيف أولوياتها من أهم ما اكتسبته من العمل مع الدكتور عبد الفتاح إسماعيل السكرتير العام للمجلس، الذي كان مهيبًا حتى من الوزراء المركزيين، كما كان يهاب هو أيضًا بعضَهم وبعضَ أعضاء المجلس. وقد آنس فينا السكرتير العام، عناية في دراسة مشكلات اللجان والمجلس، ومناقشة الأعضاء فيها والإصرار على قناعاتنا وتفنيد ما يطرح ضدها بوعيٍ صحيحٍ للمشكلة ودقةٍ في معالجتها، وكشف خفاياها.

كانت لنا مواقف مناهضة لبعض المشروعات التي طرحها علينا السكرتير العام الدكتور عبد الفتاح إسماعيل، وقابلنا محاولاته قبولها، بإصرارٍ على الرفض، وقد ساءه موقفنا في البداية، إلاّ أنه أُعجب بشجاعتنا التي يدعمها المنطق والتبصُّر، فاستعان بنا للوقوف في وجه المتعنّتين من أعضاء المجلس في القاهرة.

تابعْنا في عهد الانفصال وضع الخطط العلمية الخمسيّة وإصلاحها، وإنشاء وحدات بحوثٍ في المجلس، تستقل بعد أن تنشأ وتنمو وتصبح قادرة على القيام بمهامها. فكان من أهم ما تابعته في المجلس الخطط العلمية الخمسيّة وتطويرها وتكوين لجنة الطاقة الذرية التي استقلت وأصبحت هيئةً في السبعينيات. وضعتُ قانون إحداثها الذي اشتُق من قانون مركز الدراسات والبحوث العلمية وكوِّن على غرار قانون المركز.

كانت تجربة المجلس الأعلى للعلوم في عهد الوحدة غنيّة جدًّا واكتسبت منها الكثير في حياتي العلمية الإدارية، في الوزارة في تنظيم عمل الجامعات، وفي مركز الدراسات والبحوث العلمية، وفي استراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي.

إنني أدين لتجربة المجلس في عهد الوحدة بأهم تطورٍ في تفكيري التنظيمي العلمي، وللثنائي المخلص للوحدة بحقّ، الدكتور عبد الفتاح إسماعيل والدكتور مصطفى طلبة. ولقد جمعني العمل العلمي العربي مرة أخرى بالدكتور طلبة في أوائل السبعينيات، إبّان تأسيسه أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، وكان الدكتور عبد الفتاح إسماعيل قد توفاه الله. إلا أن الدكتور طلبة لم يلبث أن ترك الأكاديمية حين عُيِّن مديرًا عامًا لهيئةٍ دوليةٍ هامة تهتم بالبيئة، فأنشأها وتولى إدارتها أكثر من عقد من الزمن.

وانتقل إلينا في عهد الوحدة أيضًا الكثير في تنظيم العمل المؤسسي وخاصة في الجامعات، من مثل: تعريف المؤهل العلمي لعضوية هيئة التدريس في الجامعات

وتحديده بدقّة، فبعد أن كان يُكتفى من الموفد في بعض الكليات بالحصول على دكتوراه في الاختصاص، أصبح المجلس الأعلى للجامعات هو الذي يحدد نوع وشروط الدكتوراه، فهناك في فرنسا على سبيل المثال دكتوراه جامعة ودكتوراه الدولة، والفرق بينهما شاسع.

قبل تطبيق قانون تنظيم الجامعات في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة كان يندر أن تجد في كلية الحقوق من يحمل دكتوراه الدولة. وكثيرًا ما كان يحول الأعضاء غير المؤهلين دون دخول الأكفاء المؤهلين لئلا ينكشف عجزهم على الملأ.

إن تطبيق قانون تنظيم الجامعات على الجامعات السورية أنهى إمكان التلاعب، الذي كانت نهايته احتجاجنا لدى رئاسة الدولة على مشروع قانون يعفي بعض الأطباء الموفدين من الحصول على المؤهل العلمي كما حدده المجلس الأعلى للجامعات، وذلك بسبب إخفاقهم في الحصول عليه.

٤. ضابط مجند

قبل سفري موفدًا إلى سويسرا، كان عليّ أن أراجع مديرية التجنيد في موضوع الخدمة الإلزامية، لأنني من حملة شهادة الدكتوراه. وقد سُمح لي بالسفر لتنفيذ قرار الإيفاد، على أن ألتحق بالخدمة العسكرية في أول دورة تبدأ بعد عودتي من الإيفاد. والتحقت بالخدمة ملازمًا أول، وكان علينا في تلك الدورة، أن نقضي مدة شهر في كلية ضباط الاحتياط. كانت تلك الدورة آخر دورة ضباط احتياط وفق النظام القديم، كنّا فيها خمسة أو ستة فقط، أنا والدكتور طاهر تربدار، مع مجموعة من ثلاثة أو أربعة صيادلة، كان منهم سليم قوتلي.

في الشهر الذي قضيناه في مدرسة ضباط الاحتياط، عدت طالبًا في التجهيز، أنفذ ما يوعز إلينا بنفسية تلميذ، بل عدنا جميعًا طلاب مدرسة ثانوية. كان سليم القوتلي

يقلد الرئيس شكري القوتلي في خطبه مبتدئًا بـ "هذا يوم..."، ويدخل على صوته في الرياضة بعض النشاز المضحك، وذلك رغم بلوغه الأربعين أو كاد. أحببت في هذا الشهر إحياء ذكريات التجهيز، وقد عاد إليّ نشاط تلك المرحلة، وأعاد إليّ صوت المدرّب وإيعازاته صوت أستاذ الرياضة واصل حلواني في تلك الأيام!

التقيت في هذا الشهر المهندس أسعد تقلا في دورةٍ من الضباط المهندسين، كنا نلتقي في أوقات الطعام، وكان كثيرًا ما يتوجه إلى المطعم وبطّانيته على كتفه، وسألته مرةً لماذا تصطحب البطانية معك، فقال لي يجب أن أكون مستعدًا للسجن، لأنني سأعترض حتمًا على الطعام وأرفضه، فيسبب لي ذلك السجن يومي كلّه، فأذهب إليه أحمل بطانيتي. كان شديد المراس، يدافع عن رأيه وعمّا يؤمن به بقوة وعناد.

انتقلت من كلية ضباط الاحتياط، بعد أن أنهينا فيها دورة النظام القديم، إلى مدرسة الإشارة، وكانت إدارة الإشارة ومدرستها بالقرب من كلية العلوم. اصطحبني أستاذنا توفيق المنجد وكيل الجامعة لمقابلة العميد أحمد زكي في مبنى الأركان، وعرض حاجة كلية العلوم إليّ في تدريس الفيزياء، فوافق العميد زكي على تدريسي في الكلية.

كنت أقضي جلّ وقتي في مدرسة الإشارة، وأنتقل منها إلى الكلية وكانت على بعد أقل من خمسين مترًا لألقي درسًا أو لإدارة جلسةٍ في الفيزياء العملية، ثم أعود إلى المدرسة.

سررت بالخدمة العسكرية إذ لم يتغير عليّ شيء، ودخلت عالمًا جديدًا، ورحبت بما لقيته في مدرسة الإشارة، إذ كان علينا تعليم بعض جنود إدارة الإشارة القراءة والكتابة، ثم استُشِرنا في تنظيم دورةٍ متقدمة في علوم الإشارة فوافقنا، أنا والدكتور طاهر تربدار، وتعاونّا مع المهندس عجّان في وضع منهاج الدورة.

كان من طلاب هذه الدورة المتقدمة محمد ناصيف، وكان من طلابها ملازمٌ حلبي

قيل إنه انتحر لدخول الإسرائيليين الجولان في حرب عام ١٩٦٧، وكان له فيه فتاة أحبّها وأحبته، واتفقا على الزواج، إلا أن الحرب حالت دون تنفيذ ما اتفقا عليه...

كان آخر التظاهرات الكبرى في عهد الوحدة، أسبوع شباب الجامعات في الجمهورية العربية المتحدة، الذي أقيم في دمشق في صيف عام ١٩٦١، كان أسبوعًا رياضيًّا ثقافيًّا اشترك فيه شابات وشباب من جميع جامعات الجمهورية.

تولى تنظيم الأسبوع والإشراف عليه وكيل الجامعة الدكتور عبد الحليم سويدان، وكان قد حلّ في هذا المنصب محل الأستاذ توفيق المنجد الذي سُمّي مديرًا لجامعة حلب. وقد منح الدكتور سويدان صلاحيات مالية استثنائية للصرف على تنفيذ الأسبوع.

كان عبد الحكيم عامر قبيل هذا الانقلاب في دمشق، يحاول القيام ببعض الإصلاحات في سورية.

أضرَبْنا في كلية العلوم مطالبين بتعويض اختصاصٍ أسوةً بالمهندسين، وحاولنا توسيع الإضراب بضم أعضاء هيئة التدريس في كلية الآداب، فاستجاب لندائنا فيها الدكتور نبيه عاقل. كنتُ في قيادة الإضراب رغم صفتي العسكرية وفي أوقات حرجة، ولُبّي مطلبنا ونلنا تعويض الاختصاص.

بعد أيام قليلة امتنعتْ مجموعةٌ من أعضاء مجلس الكلية عن حضور اجتماع المجلس وعطلت اجتماعاته لانتخاب عميدٍ للكلية ووكيلٍ وممثلٍ لها في مجلس الجامعة مع العميد، ودعاني وزير التربية رشاد برمدا آنذاك للتشاور في إيجاد حلٍّ للأزمة. عُيِّن الأستاذ وجيه القدسي عميدًا لكلية الهندسة المدنيّة الجديدة فحُلت الأزمة، ثم نقل الدكتور عبد الرزاق قدورة من قسم الفيزياء في كلية العلوم إلى كلية الهندسة ليساعد الأستاذ القدسي، وجرى ذلك بعد مدةٍ وجيزةٍ من عودته من الإيفاد.

شارفَت خدمتي الإلزامية على نهايتها، فطلبَت مني إدارةُ الإشارة متابعةَ التدريس

في الدورة بعد انتهاء خدمتي الإلزامية، فطمأنت الإدارة بأنني سأتابعها حتى النهاية دون مقابل.

في الخدمة العسكرية الإلزامية كان دخلي الشهري من عقدي مع الجامعة وراتب ملازم أول في الجيش، أكبر من دخلي عضوًا في هيئة التدريس، فإذا أضيف إليه التعويض الشهري عن عملي في المجلس الأعلى للعلوم. يصبح دخلي الشهري في مستوى دخل الأساتذة / ٩٠٠/ ليرة شهريًّا. إنه دخل مريح حقًّا في تلك الأيام. هذا الدخل الشهري مكّنني من شراء برّاد بردى وسجّادة صغيرة آلية الصنع. وكم كنت سعيدًا بهذه السجّادة الصغيرة التي وضعتها في مكتبي الصغير، عندما زارني الدكتور يوسف الخوري.

لقد كانت زيارته هي الوحيدة لأستاذٍ من مستوى أساتذتي في الجامعة سنًّا وقدرًا. لن أنسى زيارته تلك، التي لم أتمكن من مبادلته ما يُشعِر بتقديري الكبير له ولها.

٥. في عهد الانفصال

في ليلة ٢٨ أيلول من سنة ١٩٦١ كنت ضابطًا مناوبًا في مدرسة الإشارة، فتوجهت إلى المدرسة في أول الليل، فلقيت على مدخل إدارة الإشارة، وفيها المدرسة، ضابط الإدارة المناوب الملازم أول موسى عطا الله جالسًا وأمامه منضدة بالقرب من مدخل الإدارة، داخل سورها، وعلى المنضدة عنب يأكل منه، فسلمت عليه فرد السلام وقال لي بإلحاح: تفضل دكتور نسهر ونأكل معًا من هذا العنب. فشكرته معتذرًا عن السهر لأنني يجب أن أتفقد الطلاب.

لم أنمْ إلا قليلًا، وإذا بالهاتف يرنّ بإلحاح، رفعت السماعة، فكان الملازم أول موسى على الهاتف يقول اجمعْ عسكرك، وسمعت بعض طلقات الرصاص. وكان قد شاعت مخاوف من قيام عبد الحميد السراج بانقلاب على عبد الناصر.

إن سريان هذه الإشاعات يدل على أن نظام الوحدة قد تضعضع، وأن عامة الناس في سورية تقبَّلت مثل تلك الإشاعات.

أما في إدارة الإشارة فقد كان الوضع واضحًا، ولم تمض دقائق حتى عُلم بأن انقلابًا وقع بقيادة عبد الكريم النحلاوي وقوًى ما كانت تدخل في حسابات الانقلابات العسكرية؛ كإدارة الإشارة والهجّانة وما شابه... وهذا يدل على ما آلت إليه حال الوحدة في تلك الأيام من هشاشة، كان يحسّ بها الشعب.

وكانت الإشاعات تَنسب الاضطراب الذي أصاب نظام الوحدة إلى خلافٍ مخيف دبّ بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر. وسارت تظاهرة في بعض شوارع دمشق تهلل وتبتهج بالانقلاب.

وفي ضحى يوم ٢٨ أيلول أعلنت قيادة الانقلاب ما يُشعر الناس بأنها عادت عما كانت أعلنته في بلاغها الأول، وأنها معنيّة بالحفاظ على الوحدة، وانقلب التهليل في التظاهرة والابتهاج، إلى تهليلٍ للوحدة وابتهاجًا بها، بعد أن كان بالانقلاب عليها! وما جرى في إدارة الإشارة كان صورة عما جرى في الشارع.

ولم يمض على هذه الفرحة إلا بعض الوقت حتى عادت قيادة الانقلاب إلى موقفها الأول، وعاد الناس معها في التظاهرة، وفي إدارة الإشارة وغيرها إليه أيضًا.

أما كيف أمكن لبعض الوجوه أن تتغيّر ملامحها وعبوسها وابتساماتها مع بلاغات قيادة الانقلاب، فهذا سرّ من أسرار الأمم المغلوبة على أمرها.

بعد أن استتبَّ رأي قادة الانقلاب على الانفصال، بدأت تسوية ذيول الانفصال، التي كان أهمها تجميع الضباط المصريين من قطعات الجيش، وكان عليّ أن أقوم بهذه المهمة في إدارة الإشارة. كيف سأقوم بها؟ بالأمس كنا نأنس بصحبتهم، ونستقبلهم في بيوتنا مرحبين بهم، ولا زالت صلة القرابة تصل بعضنا بهم.

حاولت إدارة الإشارة تلطيف المهمة إذ كلفتني تنفيذها، فقد كان بين هؤلاء الضباط ابن خالة الدكتور طاهر تربدار، صديقي وزميلي في الجامعة وفي مدرسة الإشارة، إلا أنه كان في مهمة علمية من المجلس الأعلى للعلوم بالقاهرة. اصطحبت الضباط المصريين في سيارة كنت معهم فيها في صفٍّ واحد، ووراءنا ضابط صفٍّ انتقد في قيادة المدرسة جلوسي في صفٍّ واحدٍ معهم لأننا في حالة حرب!

لم يكن للانفصاليين سياسةٌ واضحةٌ قي شؤون البحث العلمي، واتجه الرأي لإلحاق المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية بوزارة الثقافة، ودعا بعض العاملين في المجلس الأعلى للعلوم لغاياتٍ شخصية، لإلحاق المجلس بتلك الوزارة على غرار المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون... وكانت معركة قصيرة وباهتة ربحها الانتهازيون، لأننا كنّا لا نعوِّل على عمل تنظيميٍّ في وضع غير مستقرٍّ سياسيًّا. وأُلحق المجلس بوزارة الثقافة. إلا أن الوزارة والوزير كانا يطمحان لاستقرار المجلسين فيها.

سَعت الوزارة لتقديم كل ما يطلبه المجلس من خدمات، فأنشأنا فيه وحدة بحثٍ علمي في إلكترونيات الطيران، وحصلنا على بعض الدعم من القوى الجوية، ككليسترونات مستهلكه... كنا في هذه الوحدة ثلاثة: عبد الرزاق قدورة وباسل حقي وأنا معهما. وكان المهندس باسل يؤدي الخدمة الإلزامية، وحال عدم الحصول على التجهيزات اللازمة، أو على تمويل شرائها إلى توقف هذه الوحدة عن عملها. وهذا يعود إلى غياب رؤية واضحة لأهمية البحث العلمي في معالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية. وهكذا عاد المهندس باسل إلى أمريكا بعد انتهاء خدمته الإلزامية، وسافرت أنا إلى الرياض معارًا لجامعة الملك سعود.

وبدأت معركة جديدة في حياتي التعليمية، فبعد مرور خمس سنوات على تعييني

مدرسًا، وهي المدة الدنيا التي يجب أن يقضيها المدرّس في هذه الوظيفة، تقدمت للترفيع إلى وظيفة أستاذٍ مساعدٍ في قسم الفيزياء في الكلية، فلقيت تعنّتًا ومعارضة من رئيس القسم لأسباب تعود إلى مواقفي من بعض تصرفاته في قضايا التعليم مذ كنت طالبًا، واضطررت، لتصحيح صورتي التي رسمها لبعض أعضاء مجلس الجامعة، إلى زيارة عددٍ منهم، وساعدني على كسب قضيّتي موقفُ مجلس الكلية ومؤازرته القوية، ومعرفةُ أغلب أعضاء مجلس الجامعة طِباعَ رئيس القسم الشخصية.

ومع ذلك، فقد انقسم مجلس الجامعة إلى مؤيدٍ لقضيتي ومُعارضٍ لها، وكان على رأس الفريق المؤيد الدكتور سامي الدروبي، وكان سعيد الأفغاني على رأس الفريق المعارض. ولم يجدْ رئيس الجامعة الدكتور أحمد السمان طريقة لتبرئة نفسه من تبعات هذه "الورطة" خيرًا من التغيُّب وعدم دعوة المجلس، مما جعل الدكتور إسماعيل عزّة وكيل الجامعة، يتولى دعوة المجلس للنظر في موضوع ترفيعي، واتخذ المجلس قرارًا بترفيعي بأغلبية بسيطة. منذ تلك الأيام وضعني الأستاذ سعيد الأفغاني في زمرة غير المرضيِّ عنهم، على الرغم مما كنت ألقاه به من الاحترام الذي كان مني اعترافًا بمكانته في اللغة العربية.

انتهت معركة ترفيعي إلى وظيفة أستاذٍ مساعدٍ بالنجاح، بفضل تكاتف فئة التقدميين من أعضاء هيئة التدريس في مجلس الجامعة، والموقف الرصين لبعض مَن صُنِّفوا محافظين كالأستاذ محمد المبارك، الذي كان عميد كلية الشريعة في تلك الأيام، والذي طلب مني نسخةً من أماليتي في الترموديناميك لعلَّه يستفيد مما حدثته عنه في محاضراته عن العقيدة.

ثم ما هي إلا أيام، قضي بعدها على حكم الانفصاليين بانقلاب انتهى إلى تسليم الحكم تدريجيًّا لحزب البعث. وكانت المملكة العربية السعودية قد قررت تخفيف

سيطرة المصريين على التعليم، وطلبت من الحكومة السورية إعارتها بعض أعضاء هيئة التدريس، فتقدمت مع الزميل الدكتور صلاح أحمد للعمل معارَيْن لجامعة الملك سعود بالرياض.

دفعَنا إلى هذه التجربة دافعان: تحسين أوضاعنا المادية، وزيارة الديار التي انتشر منها الإسلام، ونمَت وتطورت فيها اللغة العربية للمستوى الذي كان فيه بلاغة القرآن من معجزات الإسلام.

استشارنا وزير التربية الدكتور مصطفى حداد بشأن تحديد مدة الإعارة، فكان رأينا أن يُكتفى بجعلها سنتين ليتاح لمن يريد من أعضاء هيئة التدريس الاستفادة منها، وقد نكون الوحيدَين بين المعارين الذين عادوا بعد سنتين من الإعارة.

٦. إلى المملكة العربية السعودية معارًا لجامعة الملك سعود

أعددنا ما نحتاج إليه في سفرنا، ورجوت الصديق الزميل الدكتور طاهر تربدار أن يتفقد البيت كلما سمحت له أوقاته. وكان صديقه الدكتور شاكر الفحام قد عُيِّن عضوًا في الهيئة التدريسية في كلية الآداب، وهو عازب وبحاجةٍ إلى بيتٍ فجمعني به الدكتور طاهر وتعارفنا وأعرته البيت وحلت مشكلتي ومشكلة سكنه، وكانت تلك بداية تعارفنا.

قبل تسليم البيت للدكتور شاكر سافرت مع الأسرة لأودِّع أمي وإخوتي وعمِّي، فكان وداع أمي مرًّا، فقد طلبت مني تأجيل سفري إلى السعودية إلى العام المقبل، فلما أعلمتها أني وقعت عقدًا مع الجامعة لا بد من الوفاء به قفزت دمعتان من عينيها سكنتا في قلبي. وحاول إخوتي تلطيف آثار هذا الوداع المرّ بسهرة في قلعة سمعان لا تنسى. عدنا إلى دمشق لنجمع أمتعتنا ونسافر إلى الرياض ونترك البيت في أيدٍ أمينة مع الدكتور شاكر الفحام.

حطَّت الطائرة التي نقلتنا من دمشق إلى الرياض في مطار الظهران، وهناك توجهنا إلى مكان في المطار للاستراحة قبل متابعة رحلتنا إلى الرياض. أذكر أن الهواء الحار استقبلنا منذ مرورنا بباب الطائرة في الظهران، فكأننا نستعد للمرور قبالة تنّور، وشعرنا بالعطش، فقلنا نرتوي فور دخولنا الاستراحة، وتوجهتُ منذ دخولها أسال عن الماء، وفتحت الصنبور وإذا الماء حار، فتحت صنبورًا آخر فكان ماؤه مماثلًا في حرارته، وقبل أن أتوجه إلى ثالث، قال لي أحد الموظفين، لا تُتعب نفسك الماء هنا كالهواء، كلاهما حار.

عدنا إلى الطائرة وتابعنا بها رحلتنا إلى الرياض، ومن المطار نُقلنا إلى فندق اليمامة، فتنفسنا فيه ملء صدورنا، وشربنا وارتوى أطفالنا مياهًا غازيةً ملونةً من أصناف الكولا وما شابهها. وفي المساء اجتمعنا في حديقة الفندق وكان الهواء مقبولًا والجوّ مريحًا، وتحيط بنا الأزهار والخضرة، وزادنا صوت أم كلثوم غبطةً في أغنيتها الجديدة "أنت عمري" التي لحّنها محمد عبد الوهاب، فإذا اختلط صوتها بأصوات أولادنا وهم يحومون حولنا وبين الأزهار كالفراشات، لم يعد في تصورنا أسعد في الدنيا مما نحن فيه.

انتقلنا من الفندق إلى دارةٍ أرضيةٍ واسعةٍ استأجرناها، وشغل كل منا أحد جناحيها، ومنها انطلقنا نشارك سكان الرياض الحياة الاجتماعية. انطلقنا إلى "الديرة"، ففيها كل ما يوجد من الفواكه والخضار، تباع بمقادير كبيرة، كما في سوق الهال في المدن الكبيرة. وكنّا إذا ما وصلنا الدارةَ تركنا لزوجتينا اقتسام ما اشتريناه.

في الديرة رأينا بعض الناس يبيعون الضَّبّ، وهو من الزواحف يشبه التمساح، طوله زهاء ثلاثين سنتيمترًا يأكله بعضهم. ومما جرى معنا هناك أن صلاح سأل بائعًا عن حاجةٍ ما، فلم يرضه ثمنها فترك البائع ولحق بي، إلا أن البائع ناداه قائلًا "ولد"، تابعنا السير، وحسبنا أنه ينادي طفلًا غير بعيد عنه، فلحق بنا وهو ينادي ولد ولد،

فالتفت صلاح، ولما لم ير ولدًا قريبًا منه قال له "أنا ولد!"، وقد تغيرت ملامحه وبدا الغضب في نبرات كلامه وتقاطيع وجهه، وأدرك بعض القريبين منّا أن سوء تفاهم وقع بين صلاح والبائع، فاقترب منا قائلًا: نطلق هنا كلمة (ولد) على كل رجلٍ لا نعرفه، أما الأطفال عندنا فهم "البزورة" فانفرجت أسارير صلاح.

كانت جميع طرقات وشوارع الرياض خاليةً من الأرصفة باستثناء شارع الوزير. ويجوب شوارعها "المطوِّعون" من جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخاصةً في أوقات الصلاة، وهؤلاء يمكنهم أن يتعرّضوا بالنهي عن التدخين لمن يدخِّن في الطرقات متحديًا التقاليد التي جعلت التدخين من المنكرات أو قريبًا منها.

أما الخدمات الصحية فكانت ضعيفة، والأطباء في عياداتهم الخاصة بين قليل الخبرة، ولا مبالٍ بحياة الناس. وقد أصيب ابني طارق هناك بنازلةٍ أصابت أنفه وأذنيه، وكان قد ولد خديجًا، فوصف له الطبيب مضادًا حيويًّا شديدًا وهو لم يتم الخامسة فأصاب سمعه، وكاد يقضي على سمعه كله.

إلا أن الرياض، ما بين منتصف الخريف وأواخر فصل الشتاء تصلح أن تكون مشتى عالميًّا لاعتدال الطقس وانتشار الأزهار في الحدائق، باستثناء أسبوعين قد يكون الطقس في أثنائهما باردًا. وهي شديدة الجفاف.

في أواخر آذار من هذا العام عام ١٩٦٤ وصلتني رسالة من أخي إبراهيم، من حلب فسررت بها، وكانت أول رسالة تصلني من سورية. وما أن فتحت الرسالة وشرعت أقرؤها، حتى كانت دموعي تجري على خدّي. لقد توفيت أمي، ما كان يخطر ببالي أن الموت قريب منها. لقد وعدتها أن أحجّ معها ترافقها أختي الكبرى فاطمة، وكنت أردِّد في الرياض في نفسي أن نحجّ في العام القادم خير لنا، إذ أكون أكثر معرفة بالمملكة وأيسر حالًا. اليوم اتّضح لي أن أمي لم تطلب مني أن أبقى في سورية عامًا إلا لشعورها بدنوّ الأجل.

لا أذكر كيف أمكنني السفر إلى بيروت في صباح اليوم التالي، تركت زوجتي والأولاد وسافرت إلى بيروت، ومن بيروت بنفس اليوم إلى دمشق، لأستطلع منها الأوضاع الأمنية، فقد كانت أحداث حماه في حدّتها، سمعنا بها في الرياض، إلا أنني ما كنت أظنّ أنها بلغت من العنف ما يؤدي إلى قطع طريق دمشق حلب، فاتصلت هاتفيًّا بأخي إبراهيم الذي حاول مواساتي ونصحي بالعودة إلى الرياض. انتظرت في دمشق ليلة أخرى، فنصحني جاري وصديقي أدهم السمان بالعودة.

عدت إلى بيروت لأنتقل منها إلى الرياض، وفي البرج في بيروت كثير من النسوة يبعن بعض المواد الغذائية أو بعض حاجات البيوت، وفي طريقي إلى مكتب شركة الطيران لمحت سيدة بينهن تشبه كثيرًا أمي، فكنت أحوم حولها وأبكي إنها تشبه أمي، فهل كانت أمي حقًّا هي التي تراءت لي هناك؟ والغريب أن السيدة تعاطفت معي وابتلّت عيناها بالدموع. فتركتها وابتعدت عنها قليلًا، وعدت أتأمل وجهها جيدًا، أخطو خطواتٍ ثم أعود، ولا أذكر كيف تركتها وتابعت طريقي إلى المكتب ومنه إلى المطار...

كانت كلية العلوم في شارع المَلَز، وقد تحولت فيما بعد إلى نواة جامعة للبنات. كنت أنا وصلاح السوريَّيْن الوحيدين في الكلية، بين جمعٍ من أعضاء هيئة التدريس المصريين، وقلةٍ من السعوديين والعرب المشارقة، الذين كان منهم أستاذنا الدكتور مجدي الشوا رئيس قسم الكيمياء في الرياض وسابقًا في دمشق.

كنتُ رئيسَ قسم الفيزياء، وكنت عضو الهيئة التدريسية الوحيد فيه، يؤازرني محضِّر سعودي ذكي ومحضِّران مصريان يتقنان عملهما. وكان رئيس قسم الرياضيات زميلًا مصريًّا ومعه في القسم الدكتور صلاح أحمد وزميل عراقي.

أما الطلاب فكان عددهم في الصف الرابع خمسة في الفيزياء وواحد فقط

في الرياضيات. أذكر أن بين طلاب الصف الثالث في الفيزياء طالب جمع صور الكسور ووضع المجموع صورة حاصل جمعها، وجمع المخارج ووضع مجموعها مخرج حاصل الجمع.

في أسابيع قليلة قفز موقعنا في نفوس الطلاب إلى الصدارة، وتقدم مستواهم بخطًا سريعة، وقد لمسنا في أكثرهم إقبالًا شديدًا على العلم، فاستجابوا لزيادة عدد ساعات الدوام فبكّرنا ساعةً في الصباح ومددنا الدوام اليومي إلى ما بعد صلاة العصر، فبلغنا بطلابنا في الرياض وهم قلّة، مستوى طلابنا في دمشق، بعد أن كانوا بعيدين جدًّا عنه.

ومما يؤسف له أنني اصطحبت معي إلى دمشق، أسئلة الفيزياء التي طرحتها في عامنا الثاني على طلاب السنة الرابعة في الرياض، وطرحتها على طلاب السنة الرابعة في دمشق، فكان مستوى معالجتهم لها سيئًا. ففي سنتين دراسيّتين أحرز الطلاب السعوديون تقدمًا مرموقًا، وتراجع مستوى الطلاب السوريين تراجعًا بيّنًا محزنًا. أحببنا طلابنا في الرياض، كما أحببنا طلابنا في دمشق، ونظّموا لنا في الرياض حفلات وداعٍ في الجامعة وفي بيت أحد الطلاب.

استقبلَنا في الرياض الدكتور أحمد السمان، وكان قد ترك رئاسة الجامعة، وكان ترحيبي به، ومظاهر الاحترام في استقباله، تناقض موقفه منّي وتهرّبه من جمع مجلس الجامعة للنظر في ترفيعي. ورحبت بأستاذي في التجهيز المهندس عبد الرحمن حموي وكلفته عددًا من الساعات لتدريس الفيزياء في الكلية، وكان قد سُرّح من وظيفته معاونًا لوزير الصناعة في دمشق، واستقبلته شركة كهرباء الرياض مستشارًا.

وأتيح لي في الرياض التعرّف إلى عددٍ من خيرة السوريين الذين كنت أطمح للتعرف إليهم عن قرب، كالصديق محمد خير فارس، الكريم الخلق، كريم اليد واللسان، وعاصم بيطار اللغوي العالم العفيف المتواضع.

وجمعتنا الرياض بأصدقاء مخلصين كالشاعر أحمد إبراهيم عبد الله، والإذاعي الشاعر منير الأحمد ابن بدوي الجبل، والمثقف المرهف محمد علي شريف، وعزة حسن، وأحمد هلال زين الدين، وفؤاد معلا وأسرته. وجمعتني أيضًا بالدكتور زهير البابا وأسرته، وهو الذي كان يدافع عني في سنوات الشدّة قبل أن يكون بيننا اتصال أو تعارف.

وقع في بدايات سنتنا الدراسية الثانية انقلاب مدني أنهى فيه الملك فيصل حكم أخيه الملك سعود، وكان هدفه كبح جماح البذخ عامةً وبذخ العائلة المالكة خاصة. وسمِّيت جامعة الملك سعود جامعةَ الرياض، ولم يتغير شيء في الجامعة.

مع اقتراب العطلة الصيفية بدأ استعدادنا للسفر، وجاء قبيل سفرنا جارنا صاحب الدارة، وسألَنا أن نسمح له بالتوسع في الصيف باستعمال دارتنا تلطيفًا لشدة حرارة الصيف، فوافقنا وأعطيناه مفاتيحها. ودعوته لزيارة دمشق وزوّدته برقم هاتفي في المنزل، وكان الدكتور شاكر قد تركه بسبب زواجه.

استقبلته في الصيف في المنزل على غداء وودعته وقت سفره. ولما حان موعد عودتنا إلى الرياض، عدنا مع أسرتَيْنا، ومن المطار في الرياض توجهنا إلى دارتنا في شارع الباخرة، فوصلنا إلى الدارة مع غروب الشمس. إلا أن مفتاح باب الدارة لم يفتح قفل الباب، وعلمنا من بعض المجاورين أن "الرويشد" غيَّر قفل الباب، وعلمنا أنه لا يزال يشغل الدارة رغم إعلامه بموعد عودتنا مع أسرتينا. فعجبت مما فعل، كيف يتركنا وقد اصطحبنا أولادنا وزوجتينا في الشارع دون إعلامنا، ومتاعنا في الدارة كان بين يديه، استعمله وأتلفه. أيُّ أخلاق هذه! إنها بعيدة عن الخلق الإسلامي وعن حضارة الإسلام. لقد اسودّت الدنيا في عينيّ فقلت بصوتٍ عالٍ، هل هذا الرويشد هو من بقايا المرتدين عن الإسلام في نجد؟... سأذهب حالًا مع أسرتينا إلى الملك وأطلعه على فضائح الرويشد.

أسرع أحد الحاضرين وقصّ على أبيه ما وقع، وعاد إلينا ورافقنا إلى مقر والده فاعتذر، وكان على ما سمعه مني من كلام قاسٍ حليمًا، وأنّب ابنه وأمره بإخلاء الدارة. ويقال إن الأب رجل معروف، وهو وزير أحد الأمراء (قد يكون مستشاره أو مدير أعماله)... وفتحت الدارة وقضينا ليلتنا فيها، وفي الصباح استأجرنا شقتين في مبنى جديد آخر، كما استأجر زملاؤنا أحمد إبراهيم عبد الله، ومحمد علي شريف، ومأمون مريود، وهم معارون للتعليم الثانوي أيضًا، شقة ثالثةً مجاورةً لشقتنا، التي قضينا فيها سنتنا الثانية بالألفة مع جميع السوريين من سكان المبنى.

في هذا العام عزمنا على الحج وزيارة الديار المقدسة، وتركنا زيادًا وطارقًا في رعاية أم ياسر، ثم خشينا أن نثقل عليها فقصرنا زيارتنا على العمرة، وقد شعرنا بالسكينة في المدينة المنورة وقضينا فيها، والأخ أحمد إبراهيم عبد الله، أيامًا في العبادة وفي ذكر الله، وتذكّر أيام الإسلام الأولى.

لم نتمكن من تعرّف المملكة المترامية الأطراف، واقتصرت جولاتنا البعيدة على العمرة، ومررنا في طريقنا من مكّة المكرمة إلى المدينة المنوّرة بجدة، وكنت أتمنى زيارة الطائف وبعض معالم المرتفعات جنوب الطائف.

أما ممّا حول الرياض، فقد زرنا الخرج والدرعية أكثر من مرة، وخاصة الدرعية، وهي واحة قريبة من الرياض فيها بعض الأشجار المثمرة. أما الخرج فأبعد عن الرياض من الدرعية وأكثر اتساعًا وغنًى بالأشجار والمزروعات. وقد قصدنا الدرعية أيضًا بعد استيلاء الملك فيصل على الحكم مباشرةً، صلاح وأنا مع أسرتينا، ففوجئنا بدورية أمنٍ على مشارف الرياض، على الطريق من الرياض إلى الدرعية، تفتش الخارجين من الرياض والداخلين إليها، وعثرت الدورية في جيب صلاح على قصيدةٍ يمدح في مطلعها فيصل، وكان نظمها استجابةً لطلب صديق سوري يعمل هناك فشفعت لنا القصيدة وسُمح لنا بمتابعة نزهتنا إلى الدرعية، وأعفينا من استكمال التفتيش.

كذلك كنا نقضي بعض الوقت مع الأصدقاء والأولاد على تلال الرمل القريبة، أو ليلًا في أوائل الصيف على مقاعد من القشّ في رمال "خريص" القريبة من الرياض.

ما هي حصيلة تجربة الإعارة؟ إن الحصيلة غنيّة لا شك، فقد عرفنا البلادَ التي انتشر منها الإسلام معرفةً محدودة، عرفناها في وقت كانت لا تزال المملكة فيه فقيرة متخلفة، إلا أنَّ هِمَمَ طلابها كانت عاليةً وتبشر بالخير. وقد أتيح لي زيارتها في أواخر القرن الماضي، مراتٍ عديدة، ورأيت بوضوح الخطوات العملاقة التي خطتها في ثلاثة عقود. ففيها جامعات اكتسبت عراقةً، تنهض أغلبها بمهام التدريس والبحث العلمي بتعاون مع مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. وانتشرت فيها خدمات صحية رفيعة المستوى يقصدها كثير من سكان الأقطار العربية الأخرى.

وأصبح لي في المملكة بعض الأصدقاء، منهم بخاصة طلابي على قلتهم عددًا... وأتيح لي زيارة الحرمين الشريفين. إلا أن ابني طارقًا أصيب في سمعه إصابةً بالغة، كما أن ابني زيادًا أضاع تألّقه في الدراسة لتغيرٍ جذريٍّ في طرق التدريس وفي توجهه، وأضاع ما كان يحافظ عليه من اللغة الفرنسية. والأهم من هذا كله أنني فقدت أمي رحمها الله منذ سنتي الأولى في الرياض، بعيدًا عنها، وهذا ما كانت تخشاه وغاب عنّي، وكنت أطمح إلى مرافقتها لأداء فريضة الحج.

٧. إلى دمشق بعد سنتين في الرياض

بعد سنتين دراسيتين قضيتهما معارًا لجامعة الملك سعود، قررنا العودة وفاءً لما كنّا قطعناه على أنفسنا من عهودٍ للوزير. وسبقتني زوجتي مع الأولاد إلى الوطن، لتهيئة زياد لامتحان الشهادة الابتدائية في دارة عزة، وقد لقيت كثيرًا من الشقاء في ترتيب حاجاتنا في البيت وإعدادها للسفر، وزاد المهمة إرهاقًا لي، اصطحاب أغراضٍ لأصدقائنا معي. كان عليّ انتظار الأصدقاء أن يعِدّوا أماناتهم وكان عليّ حفظها وإعادة

توزيعها في دمشق. كلها أمانات يجب العناية بردّها إلى أهلها. إنها تجربة مرّة لا بد منها. وفي صيف العام الأول ضاعت بعض الحاجات البسيطة في الطائرة لإهمالٍ منّا ومن أصحابها. وسبقني المتاع أيضًا في شاحنة، وقضيت بضعة أيامٍ على بقايا تركتها.

وفي دمشق كان همّي الأول تخليص الأمتعة في الجمارك، وشراء بيت نأوي إليه، ويُبعد عنّا شبح التنقل الدائم. وما هي إلا أيام قضيتها في دارة عزّة مع الأهل، حتى عدت بعدها متفرغًا للبحث عن بيت. وقد ساعدني على التفرغ لهذه المهمة، أن العطلة الصيفية أبعدت عني لأكثر من شهرين مهام التدريس.

ولقد وجدت أن ما وفّرته من المال في سنتَي الإعارة لا يكفي لشراء بيت يمكن أن نقضي فيه عمرنا مع ولدينا زياد وطارق. وتذكّرت ما لاقيته من صعوبات في التنقّل من منزل إلى أخر، في باريس وفي دمشق لأسباب مختلفة، وكيف تنقلت بعد عودتي من باريس، من منزل في شارع خالد بن الوليد إلى آخر في الفواخير ثم إلى منزل قبالة جامع الأفرم في منطقة شورى، والذي كنت أهرع فيه إلى أستاذنا نادر النابلسي، كلما شارفت سنة الإيجار على نهايتها، فيصحبني إلى البنك العربي لأستدين منه أجرة السنة المقبلة. وإذا ما مثلتْ هذه الصور في ذهني أصمّم على شراء بيت.

وبعد كثير من الجهد، وبالمعونة الفنّية للأخ عز الدين الساطع، أمكن الاتفاق مع مالك مبنًى على شراء الشقة الشمالية من الطابق الثاني فيه، فاستدنت مبلغًا أضيف إلى مدخراتي، وكان عليّ أن أدفع ما تبقى من ثمنه أقساطًا شهرية لمالك الأرض، وأقساطًا شهرية أخرى لمن استدنت منه... وانتقلنا إلى بيتنا الجديد في شهر آب من عام ١٩٦٥، وهو بيتنا الذي نسكنه وأنا أكتب هذه المذكرات. كانت تحيط به البساتين من الغرب ومن الجنوب باستثناء بيت عربي من الطين بعده مباشرة إلى الغرب، ولم يكن الطريق الذي يصله بالمدخل الجنوبي من القصر الجمهوري القديم قد عُبِّد، وهذا الطريق هو شارع إبراهيم هنانو حاليًّا.

كانت أصوات الكلاب في الليل تقلق الأولاد وتخيفهم. أما أنا فكنت آنس بها إذ تذكرني بالقرية في أيام الشتاء، وبخاصة عندما يهاجم القرية ضبعٌ أو حيوان مفترس أو عندما يدخلها غرباء. شُقّت فيما بعد طرقات، كان أحدها على امتداد شارع إبراهيم هنانو يمتدّ هابطًا إلى طريق بيروت في الربوة، وآخر يصلنا بساحة خورشيد ويمتد جنوبًا ليصلنا بساحة الأمويين. استكملت شبكة الطرقات صورتها التنظيمية الحالية بعد حرب تشرين عام ثلاثةٍ وسبعين. وتضاءلت حولها قطعان الكلاب تدريجيًّا. أذكر أن سيارة دهست كلبًا فاجتمعت الكلاب تعوي بشدةٍ محيطةً بالكلب المصاب، وتهاجم السيارات المارة. حتى الكلاب تجتمع للدفاع عن كيانها وتهاجم من يعتدي على حرماتها!

غربي البيت الطيني العربي حرش صغير من أشجار السرو زرع في السنة الأخيرة من زمن حكم أديب الشيشكلي سنة ١٩٥٣، ولي مع زوجتي وابني زياد صور فيه، عندما كنا نسكن قبالة جامع الأفرم، شجيراته كانت صغيرة، وكنّا نعدّ مشروع الحرش هذا متنزهًا. كان بعيدًا عنا وعن عمران دمشق، ما كنّا نحسب أن العمران سيمتد إليه.

٨. تطوير التعليم في كلية العلوم

عُدْتُ إلى التدريس، وكان ما حققناه مع طلابنا في السعودية من تقدم يدفعني لرفع مستوى التعليم في كليتنا. لقد حقَّقنا فيها ونحن على مقاعد الدرس تقدمًا باهرًا، ولكنني شعرت بعد عودتي إلى دمشق، بأننا بحاجة إلى إعادة النظر في محتوى المواد (المقررات)، وإلى تجديد برامجنا وإدخال بعض المواد الجديدة. ألمْ أشعر وأنا أتابع الطرائق الرياضية في الفيزياء في باريس، أننا لم نتعلم في كلية العلوم بدمشق شيئًا من رياضيات المجموعات والزمر، وفضاءات ريمان، والطبولوجيا... ومثل ذلك يقال في الفيزياء، على الرغم من تفوقنا فيما تعلَّمناه. إلا أن أي تطوير لا بد له من مطوِّرين أكفاء من بين الذين عادوا من زملائنا الموفدين. ويجب ألاّ يمسّ هذا العمل الجماعي أساتذتنا الذين نجحوا في نقل أحسن ما تعلموه إلينا، يجب ألاّ نسيء إليهم.

وبدأت حملة تطويرٍ كنت في قيادتها مع محمد بغدادي وأدهم السمان في قسم الفيزياء، وصلاح أحمد ومحمد بغدادي أيضًا في قسم الرياضيات، وعبد الحليم منصور في قسم الكيمياء... وانتقدنا إدخال تعديلات على قانون تنظيم الجامعات لاستثناء بعض الموفدين في الطب من بعض شروط عضوية هيئة التدريس، ورفعنا إلى القصر الجمهوري انتقادنا خطيًّا وقابلنا ممثل رئاسة الدولة، والتفّ حولي جميع دعاة التطوير من الجيل الجديد من أعضاء هيئة التدريس.

وكنّا نجتمع في الكلية يوميًّا ولو لم يكن لدينا فيها محاضرات، وإن كان هذا يندر وقوعه، فنتبادل الرأي فيما يعرضه كل منا من مشكلات تعليمية أو علمية وحتى سياسية، وتكوَّن في القسم منتدى فكريٌّ، كانت تومض بداياته في أحاديثنا مع أساتذتنا، ومنهم بخاصة إسحاق الحسيني وفتحي قدورة، وكانت غالبًا علمية، ثم تحولت إلى أدبية وفلسفية وعلمية وفكرية، وحتى أصبحت منتدًى فكريًّا يتسع ويتقلص فيقتصر عليّ وعلى أدهم في عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١، ثم يتوسع في عام ١٩٦٢ فينضّم إليه عبد الرزاق قدورة وصلاح أحمد، وبعد عام لم يبق في هذا المنتدى الفكري سوى أدهم السمان وينضم إليه عضو جديد نشيط جدًّا ومثقف متعمق هو الدكتور محمد بغدادي...

ويبلغ هذا المنتدى الفكري مرحلته المزدهرة ما بين ١٩٦٥ – ١٩٦٧، وكان قد صدر قرار الوزير الدكتور مصطفى حداد بتسميتي وكيلًا لكلية العلوم، وكان منتدانا الفكري قد اعتمَد الشروع بتطوير التعليم الجامعي في كلية العلوم، وبمحاولة مدّ التطوير ليشمل كلية الآداب أيضًا.

في هذا الجو الذي كانت تؤجّج الدعوةُ للتطوير نشاطَنا فيه، كانت قيادة حزب البعث تتزعم الدعوة لتطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الوطن، وكانت الدعوة للتطوير تؤجّج نشاط قادته.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

في المناصب العلمية العليا

١. عضوًا في مجلس الشعب

في ليلة من ليالي عملنا في تطوير التعليم في الكلية جاءني الأستاذ إلياس فرح عضو قيادة الحزب يشرح لي خطة الحزب في الاعتماد على المثقفين التقدميين للمشاركة في مجلس الشعب بالرأي في التطوير، وأن رأي الرفاق في القيادة اتفق على دعوة مجموعة من المثقفين التقدميين ليكونوا أعضاء في مجلس الشعب وليشاركوا في مسيرة التطوير، وأني أحد أفراد هذه المجموعة.

شكرته على الثقة التي أولوني إياها، وبعد حديث مسهب من الأستاذ فرح رجوته أن يمهلني يومين اثنين. ناقشت فيهما دوري الذي ليس لي فيه دراية، كما ناقشت هذا الدور مع قلةٍ من الأصدقاء، منهم صلاح أحمد بخاصة لثقتي بحصافة رأيه، وحسن طويته وصدقه. وقد استقر الرأي على قبول العرض والعمل من خلال مجلس الشعب على رفع آرائنا في تطوير التعليم عامةً والجامعي منه بخاصة.

اجتمع هذا المجلس مرةً واحدة في أواخر كانون الثاني من عام ١٩٦٦ وحضره رئيس الدولة أمين الحافظ، وبعد زهاء شهر واحدٍ وقع انقلاب ٢٣ شباط من عام ١٩٦٦. وأُعلن منع التجول، فدعاني بعض الجيران للجلوس معهم أمام المبنى الطيني، على كراسي بسيطةٍ مقششةٍ قليلة الارتفاع، فشعرت أنهم قصدوا إيناسي في هذه الظروف المفاجئة.

بعد قليل من الوقت رأيت صلاحًا وأخاه محمدًا يهرولان من أعلى الزقاق، من آخر طريق "السكة" (سكّة الترام) المنتهي بساحة خورشيد، فسررت بهما. سلّما على الجمع وقالا جئنا نتفقدك، وتأخرنا في الوصول إليك لاتِّباعنا طرقًا طويلةً متطرفةً تحاشينا

فيها منع التجول. ثم عادت الحياة طبيعية بعد وقتٍ قصير جدًّا، وعادت الحياة الجامعية وعدت إلى وكالة الكلية.

٢. نائبًا لوزير التربية للتعليم العالي

في أثناء اجتماع مجلس الكلية، دخل أحد الموظفين ليُعْلمني أن القيادة تطلبني على الهاتف، فتركت المجلس واتجهت مع الموظف إلى الهاتف فكان المتحدث الدكتور يوسف زعيِّن، بعد حديثٍ قصيرٍ طلب إليّ مقابلته في القيادة.

لا أذكر: هل أرسل إليّ من ينقلني إلى القيادة، أم أن أحد الزملاء تبرع بذلك؟ غير أنني أميل إلى الاحتمال الأول، والذي يدفعني للأخذ به، معرفة من رافقني مقرَّ القيادة الذي كان في أول شارع المالكي قرب تمثاله، وسهولة الدخول في المبنى رغم حداثة الانقلاب.

التقيت الدكتور يوسف زعيّن بوجود الدكتور أسعد تقلا، وتحدث معي الدكتور يوسف مليًّا، وخرجت معتذرًا، فكلَّف الدكتور أسعد مرافقتي إلى الكلية، فقلت لأسعد أنتم تبحثون عن تقدميين أكفاء لهم خبرة سياسية، وهذه المواصفات تتوفر في زميلنا الدكتور عبد الرزاق قدورة، وكنا قد وصلنا إلى باب الكلية الخارجي فودعته وعاد.

لا أذكر متى أذيع تأليف الوزارة من الإذاعة، ولكن في صبيحة اليوم التالي دخل الدكتور مصطفى حداد وزير التربية حرم الكلية في سيارة سوداء تتبعه سيارة ثانية، كنت وقتئذٍ في جناح عمادة الكلية القديم؛ أي في الزاوية الجنوبية الغربية من الثكنة الحميدية وفي الطابق العلوي منها.

كنت مطلًّا من هذا الجناح على دخول الدكتور مصطفى حرم الكلية لدى سماعي صوت الطالب عبد القادر قدورة يكيل له كلامًا شديد القسوة، ويطالبه بالابتعاد عني، والدكتور مصطفى يحاول تهدئته.

مَرَّ ذلك اليوم وفي صباح اليوم التالي دُعيت لحضور جلسةٍ للمجلس في مبنى رئاسة مجلس الوزراء بالمرجة، ورأيت أن الإصرار على عدم قبول التسمية قد يسبب إرباكًا سياسيًّا لا أريد أن أكون أنا سببًا له، ولا أريد تحمّل تبعاته.

دخلت قبيل بدء الاجتماع قاعة المجلس فإذا بالمحامي سميح عطية وزير المواصلات يقول لوزير التربية الدكتور مصطفى حداد، لقد حصلنا على حكم بتعيين الدكتور منير مشابك موسى، يرجى التعجيل بتنفيذه، فأجاب الدكتور مصطفى لن أنفذه. لقد كانت أجواء المجلس متوترة.

في الجلسة التالية، أو بعدها، بدأ الدكتور يوسف الجلسة موجهًا كلامه إليّ فقال لقد أصدرنا مرسومًا بإيفاد الدكتور واثق إلى ليبيا ليمثلنا في المؤتمر (لا أذكر اسمه، ولكنه غالبًا عن التعليم الجامعي)، فأجبته ومن قال لك إنني سأسافر، دكتور يوسف أنا قبلت المنصب لأعمل، وليس للسياحة، إنني لم أتعرف بعد أوضاع كليات الجامعتين، ومستشفى المواساة، ومجمع اللغة العربية. فمزّق الدكتور يوسف نسخة المرسوم التي كانت بيده بانزعاج.

وفي أوائل شهر أيار عرض الدكتور يوسف موضوع الطلاب السجناء، فقال إنهم رفاقنا ويجب أن نسمح لهم بتقديم الامتحان مع زملائهم، ولكن في السجن. والتفت إليّ في الكلام، فقلت له، أظن أن الامتحان يجب أن يكون في قاعة الامتحان في الجامعة. وللتأكد يمكنني عقد مجلس الجامعة وعرض الموضوع عليه، فوافق الدكتور يوسف على استفتاء مجلس الجامعة في هذا الموضوع.

اجتمع المجلس وقدّمت للموضوع بأنني في المجلس بين أساتذتي ومن هم في منزلتهم، وأنا لا أزال بحاجةٍ إلى رأي أساتذتي وخبراتهم ونصحهم، فانسحب من المجلس الدكتور عبد الرزاق قدورة لأن أخاه عبد القادر بين الطلاب المعنيين في هذا

الاستفتاء. وأجمع أعضاء المجلس بعدم جواز إجراء الامتحان في السجن أو خارج قاعاته العامة في الجامعة.

عدت إلى مجلس الوزراء، وكان لا يزال يتابع مناقشة جدول أعماله، وقلت للدكتور يوسف إن قرار مجلس الجامعة يؤكد ما ذهبتُ إليه وسبق أن قلته لكم في بداية الجلسة، وما إن أنهيت كلامي حتى رفع الدكتور مصطفى حداد يده قائلًا: أتسمح لي سيدي بالذهاب إلى مجلس الجامعة، فالتفت الدكتور يوسف إليّ قائلًا: ما رأيك؟ فقلت فليذهب. وما هي إلاّ دقائق حتى عاد بموافقة مجلس الجامعة على جواز إجراء الامتحان في السجن! لم أعترض، ولكنني حزنت كثيرًا على ما آلت إليه ضمائر كبار المربّين وكراماتهم!

حاولت الدولة تعيين رئيس لجامعة دمشق، إذ بقي منصب رئيس الجامعة بعد الدكتور أحمد السمان شاغرًا، وتولى الدكتور صلاح عمر باشا وكيل الجامعة أغلب صلاحياته، وفي اجتماع لي بالدكتور يوسف زعيّن والدكتور إبراهيم ماخوس، ذكر الدكتور ماخوس مواصفات رئيس الجامعة الذي يبحثون عنه، ثم قال اختصارًا إنه أستاذ جامعي أقرب ما يكون في صفاته من الأستاذ محمود برمدا. وأنا أرى في الدكتور محمود برمدا الرجل المناسب لهذا المنصب، والذي يمكن أن يعيد لأعضاء هيئة التدريس الثقة بالنفس والاعتزاز بالكرامة وحسن الخلق، فاجتمعتُ بالدكتور برمدا وحدثته مطولًا أن بإمكانه أن يقوم بتطوير كلية الطب والتعليم الجامعي كله، وأنه يحظى باحترام طلابه ومحبتهم وإعجابهم، وهم اليوم في قيادة الدولة، الدكتور نور الدين الأتاسي والدكتور يوسف زعيّن والدكتور إبراهيم ماخوس، وأنني سأكون إلى جانبه، فوافق وقال لي سأفكر قليلًا.

بلغت الدكتور زعيّن موافقة الدكتور برمدا المبدئية، وكان الدكتور ماخوس

موجودًا، فأخذ يرقص فرحًا. وتأكد لديّ أن الإنسان الكبير بأخلاقه وعلمه وخبراته يحظى باحترام جميع الناس على اختلاف مذاهبهم الفكرية، يرنون إليه ويتمنون أن يبارك مسعاهم فيما ارتضوه طريقًا للنجاح والرفعة في خدمة المجتمع.

فاجأني الدكتور زعيّن مرةً بطلب أحد الوزراء التعيين عضوًا في هيئة التدريس في إحدى الكليات، فقلت: لماذا لم يتقدم بطلبه هذا قبل تعيينه وزيرًا؟ فلينتظر إلى ما بعد خروجه من الوزارة، هذا استغلال للمنصب للضغط على الكلية. فاقتنع الدكتور زعيّن وطوى الموضوع.

ثم عاد بعد أسبوعين فحدثني بشأن الزميل وقال لي: اتخَذوا جميع الإجراءات لتعطيل مفعول ضغوط المنصب، فقلت له: ألا تذكر قضية امتحان رفاقكم السجناء كيف خضع مجلس الجامعة لمن يخشون بطشه فاستجابوا لمطلبه فورًا. فردّ باختصار، جرِّب وحاول أن تعيد إليهم الثقة بالنفس. فعزمت على ذلك، وحددت مواعيد لعمداء الكليات المعنيّة، وقلت لهم: ادرسوا وضع السيد فلان بكل دقّة وبحرّية، وأصدروا حكمكم بشأن ترقيته لشغل وظيفةٍ في عضوية هيئة التدريس.

تلا ذلك موضوع نقل الطبيب الدكتور عبد الحي عبّاس الموفد لمصلحة وزارة الصحة إلى كلية الطب، فقد عاد الدكتور عباس من الولايات المتحدة بعد أن تخصَّص هناك في أمراض الأذن والأنف والحنجرة، وحصل على شهادة البورد فيها، وكانت الجامعة بحاجةٍ ماسّةٍ لمختصٍّ حائزٍ على المؤهل العلمي لعضوية هيئة التدريس في هذا الاختصاص، لأن رئيس ذلك القسم في الكلية كان كبير السن وليس معه في القسم من يخلفه فيه ويساعده في مستشفى المواساة. وقد قدّر وزير الصحة حاجة الجامعة ووافق على نقله كما وافق المجلس على ذلك، واحتجّ وزير التربية على النقل قائلًا إن على الجامعة أن تهيئ أطرها بنفسها لا أن تخرّب خطط الوزارات بنقل خيرة موفديها

العائدين إلى الجامعة، لقد كانت كلمة حقٍّ أريد بها باطل، فقد تبيّن أن احتجاج الوزير كان لغاية شخصية وجرى نقل الطبيب.

لم تغيّر الوزارة شيئًا من طباعي الاجتماعية، فأنا أحبّ البسطاء ممن عشت بينهم من مجتمعَيْ: دارة عزة وحارم، فكنت لخشيتي من الانزلاق بعيدًا عما جبلت عليه من حبّهم والتواضع لهم، أبالغ في التودُّد إليهم والتقرب منهم.

أذكر أن سيّدةً ممن كنّ يساعدن أمي قبل عدة عقودٍ، قصدتني، فلم يُسمح لها بدخول حرم إدارة الجامعة، لأنهم رأوا أن ملابسها القروية العتيقة لا تؤهلها لدخوله! فظلّت تنتظرني خارجه. وفوجئت بها وأنا عائدٌ إلى البيت، فحملتها معي بالسيّارة إلى البيت مرحِّبًا.

ودخل الآذن مرةً عليّ ليعلمني بخجل أن في الباب شخصًا حافي القدمين رثّ الثياب يقول إنه جارنا في القرية ويريد الدخول. لقد كان زميلًا لي في مدرسة دارة عزة، رحّبت به فشكا لي حظه العاثر، فقد قامر وخسر كل شيء، حتى لقد نزعوا عنه ثيابه اللائقة...

ورآني طالب، بعد استقالة الوزارة، واقفًا قد استعصى عليّ إشعال سيجارتي، فقال "الله، لقد أخذوا السيارة منه"، فعجب إذ رآني أضحك لما سمعته منه، وكان ينتظر مني رد فعل آخر. لقد كنت سعيدًا بعودتي عضوًا في هيئة التدريس فقط، وأنا لم أترك التدريس أبدًا، ولكنني أحب أن أبقى قريبًا من الطلاب، فبيئتهم أحبّ إليّ من غيرها.

كنا نُعِدّ دراسات حول تطوير التعليم الجامعي والعالي، واعتمدنا وثائق اليونسكو في هذا المجال، وانتقينا بعض الدراسات الهامة الأخرى، وترجمناها إلى اللغة العربية لكي يستفيد منها جميع العاملين في هيئة التدريس لدى قيامهم بمناقشة ما يطرح من أفكار حول تطوير التعليم الجامعي. إلا أن مرض أخي محمود كان قد اشتد وتأكد أنه

مرض عضال، فأصبحت موزع القلب والفكر، وأخي محمود كان في السادسة والأربعين من العمر. كان قد بدا تفوقه في الآثار، فاكتشف كنيسة في دارة عزة من القرن الرابع، واكتشف نصبًا يؤرخ حدود بعض الممالك قرب تلعقبرين (تل على قبرين) شرقيّ باب الهوى...

وتوزعني العمل في تطوير التعليم الجامعي والعناية بأخي محمود في أواخر الصيف، فكنت أتوجّه إلى بيروت في الصباح فألتقي أخي محمودًا مع معاوية ابن أخي إبراهيم على مداخلها ثم أعود ليلًا إلى دمشق: كان محمود يجمعنا في دارة عزة بعد وفاة أمي، وكان يجلو الهمّ عنّا وينشر أجواء المرح والدعابة.

تركنا بعد وفاته في ٩/ ١٠/ ١٩٦٦ كل ما يربطنا بالمرح والدعابة، إذ لم يكن أحدنا قادرًا على ملء الفراغ الذي حدث بوفاته... وعزّاني الأستاذ توفيق المنجد رئيس جامعة حلب بوفاة أخي محمود، وحضر إلى دارة عزة للتعزية، وكانت صدمة وفاته قد أمرضتني، فاستقبل صهري الأستاذَ المنجد على الطريق العام على كراسي مقششةٍ صغيرة.

ولا أنسى أبدًا كلمة حسيب كيالي في وفاة أخي محمود التي نشرتها له جريدة الثورة، فقد كانت مؤثِّرةً على قصرها، وشديدة الدلالة على إحساسِ حسيب المرهَف وذاكرةِ أديبٍ مفعمةٍ بالرؤى الإنسانية العاطفية. لقد عاشا في غرفةٍ واحدة في حي المشارقة بحلب وكانا طالبين في التجهيز عام ١٩٣٨.

صمَّمت، بعد وفاة محمود، على الانقطاع للبحث العلمي ففيه سلوى، وقد كان هو غايتي منذ أواخر سنوات الدراسة الثانوية. فتقدمت إلى قسم الفيزياء بطلب إيفادي إلى فرنسا بمهمة علمية، وصدر قرار مجلس الجامعة بذلك.

٣. وزيرًا للتعليم العالي

وبينما كنت ليلًا أحزم الأمتعة التي ستصحبني في السفر إلى فرنسا رنّ جرس الهاتف، رفعت سمّاعته، فإذا بالدكتور يوسف زعيّن على الهاتف، يقول: لقد قررنا إحداث وزارة للتعليم العالي، وأنت في الوزارة الجديدة وزير التعليم العالي، تؤسسها وتقترح تنظيمها وفق الدراسات التي قمت بها، فاعتذرت شاكرًا، وقلت له إنني تهيأت للسفر واتخذَت الجامعة قرارًا بإيفادي بمهمةٍ علميةٍ إلى فرنسا، وأنا أقوم الآن بحزم أمتعتي، وفي البيت بعض الزملاء يعينوني على حزمها، وأنت تعلم أن أخي توفي منذ أيام فقط، وفي ابتعادي عن البلد وعن الأهل وعن كل ما يذكِّرني به سلوى تخفِّف من تأنيب الضمير بالتقصير بالعناية به.

لم يتابع الدكتور زعيّن الحديث ووضعني أمام الوضع المحرج، فقد صدر مرسوم تأليف الوزارة وكنت فيها وزيرًا للتعليم العالي.

لم يكن موقفي من هذه الوزارة كموقفي من السابقة، إذ قلت في نفسي سيتاح لي في هذه الوزارة الاستفادة من الدراسات التي قمت بها في الوزارة السابقة فأقوم بإصلاح التعليم العالي وفق ما استقر عليه رأيي وعرضته في منتدانا الفكري، وسيشغلني العمل الجاد في تنظيم الوزارة وفي تطوير التعليم الجامعي عن دوام التفكير بالموت، وسأجد في العمل ضالّتي من السلوى.

صدر المرسوم التشريعي بإحداث وزارة التعليم العالي بتاريخ ٢٤/ ١١/ ١٩٦٦ وشمّلت فيه مهامها، وجميع مهام المؤسسات المرتبطة بها، وأشير بخاصة إلى مهمة البحث العلمي وعلاقته بخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وإلى تنسيق جهود الباحثين والارتفاع بمستوى الإنتاج الفكري.

تقوم بضبط توجيه البحث العلمي مديريةٌ في الوزارة يرأسها مدير برتبة أمين

عـام، كـما تقـوم مديريـة مـن نفـس المسـتوى بـالتخطيط لبحـوث التعلـيم العـالي في الجامعـات ومعاهـدها وجعلهـا مسـايرة للخطـة الاقتصـادية والاجتماعيـة للدولـة، بتعاونٍ وثيق مع الجامعات، بحيث تموَّل كلُّ جامعـةٍ بـما يتناسـب مـع مـا أنجزتـه مـن حصتها في الخطة، فيتاح للوزارة بذلك دفع الجامعات المستقلة وتوجيه البحوث فيهـا في خدمة الاقتصاد والمجتمع.

وفي الكلمة التي ألقيتُها في افتتاح أسبوع العلم السابع في ٣/ ١٢/ ١٩٦٦، عرضٌ ملخصٌ لمشكلات التعليم العالي في الوطن، والخطوط الكبرى لآفاق معالجتها، أقتطف منها ما يلي:

"... برزت إلى الوجود في السنوات الخمس التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية مشكلة التعليم العالي على نحوٍ حادٍّ، خطرٍ في كثير من الأحيان، مما أدى إلى مبادرة الدول والهيئات الدولية إلى دراسة المشكلة والتفتيش عن الحلول المناسبة.

وعمدت أكثر الدول إلى إعادة النظر في نظم التعليم وتطويرها مرات عديدة في السنوات الأخيرة.

وسنذكر أهم نتائج تلك الدراسات لما لها من علاقة بوضعنا الحالي في التعليم العالي:

أولًا- إن نمو عدد طلاب الجامعات نموًّا لا يوازيه ولا يجاريه أبدًا نموُّ عدد أعضاء هيئة التدريس فيها يؤدي إلى انخفاض مستوى التعليم انخفاضًا خطيرًا بانعكاساته على مؤسسات الدولة ومرافقها جميعًا اقتصادية كانت أو اجتماعية، وذلك لانخفاض نصيب الطالب من عناية عضو هيئة التدريس، مما يؤدي إلى إضعاف مقدرة الخريجين على التطوير والابتكار.

وحلُّ هذه المشكلة نظريًّا هو تثبيت نسبة عدد أعضاء هيئة التـدريس في كـل كليـة إلى عدد الطلاب فيها، أما تنفيذ الحـل فهـو بالإكثـار مـن أعضـاء هيئـة التـدريس، أي

بإيفاد أكبر عددٍ ممكنٍ من أكفأ خريجينا إلى الخارج ليتموا تأهيلهم لعضوية هيئة التدريس، واجتذاب المؤهلين منهم خارج البلاد أو داخلها، وبنفس الوقت باختيار أكفأ العناصر من حملة الثانويات على اختلاف أنواعها لدخول الجامعات والمعاهد العليا وبالقدر الذي تتمكن فيه من المحافظة على المستوى الضروري للسهر على مشاريعنا الاقتصادية والاجتماعية.

ثانيًا- إن عدد طلاب التعليم العالي يجب أن يتناسب مع عدد سكان القطر... كما يجب أن يرتبط بعوامل أخرى، كمرحلة التطور التي هو فيها، ارتباطًا معقدًا لا مجال لذكره هنا. إن نسبة عدد طلاب التعليم العالي إلى عدد السكان في قطرنا وهي (٥.٨) طالبًا سوريًّا في جامعاتنا إلى الألف من السكان وحوالي (٦.٥) إذا أخذنا بالحسبان طلابنا في الخارج.

إن هذه النسبة تقفز بقطرنا إلى مصاف الدول المتقدمة، فهي أكبر من مثيلاتها في كل من المملكة المتحدة وهولندا وألمانيا الغربية وبلجيكا والدنمارك وإيطاليا والسويد، وتوازي مثيلاتها في اليابان والنمسا وفي بعض البلاد الاشتراكية، كيوغسلافيا وألمانيا الديمقراطية، وتفوق جميع مثيلاتها في البلاد العربية قاطبة.

غير أن هذه النسبة كبيرةٌ جدًّا في كليات العلوم الإنسانية، وصغيرةٌ جدًّا في الكليات العلمية التطبيقية والتقنية التي أنيط بها تهيئة المختصين والتقنيين اللازمين للمشاريع الاقتصادية.

إن عدد طلاب كلية الآداب في جامعة دمشق يفوق عدد طلاب كليات الآداب في جامعات الجمهورية العربية المتحدة كلها. وكذلك فإن عدد طلاب كليتَي الحقوق في دمشق وحلب يفوق مجموع عدد أقرانهم في كليات الجمهورية العربية المتحدة أيضًا، أما طلاب كلية الطب والكليات المماثلة فعلى العكس من ذلك.

ولتلافي النقص في تعليمنا العلمي التطبيقي والتقني، وتلافي الفيض الخطر في فروع العلوم الإنسانية وسوء توزعها رصد هذا العهد الأموال لإنشاء كلية الطب في حلب، لتفتح أبوابها لأبنائنا في العام الدراسي المقبل، كما تم افتتاح كلية اللغات وانتهت الدراسة لافتتاح كلية العلوم الاقتصادية في حلب أيضًا... وتمّ إحداث وزارة التعليم العالي ليجري العمل على تطوير التعليم العالي بإعادة النظر في تنظيم الجامعات ونظم التدريس في كلياتها المختلفة واستكمال أعضاء هيئة التدريس فيها ودراسة نظام لتفرغهم للبحث العلمي والعمل الجامعي".

إن مشكلات التعليم عامة والتعليم العالي منه خاصة، تفاقمت في العالم وأدت في النصف الثاني من الستينيات إلى ثورات الطلاب في فرنسا وألمانيا الغربية، وإلى اضطرابات في معظم البلدان المتقدمة، كما أدت إلى انخفاض مستويات التعليم في البلدان المتقدمة وإلى انخفاضها إلى مستويات متدنيةٍ في البلاد العربية ومنها سورية.

وقد أشرت في نهاية الفقرات التي ذكرت من كلمتي في افتتاح أعمال أسبوع العلم السابع إلى أن وزارة التعليم العالي المحدثة ستعيد النظر في "تنظيم الجامعات" ونظم التدريس في كلياتها... وفي دراسة نظام "لتفرغهم للبحث العلمي والعمل الجامعي".

ولم يتيسر لي في المدة التي قضيتها في الوزارة إنجاز هذه المهمة، إذ لاحت في الأفق منذ أوائل الربيع نوايا حربٍ إسرائيلية، فتحول اهتمام الدولة إلى صدِّ العدوان، ولم يتوفر من الوقت لتنفيذ برامج الإصلاح التي أشير إليها في كلمتي الافتتاحية لأسبوع العلم سوى الأشهر القليلة الممتدة من منتصف تشرين الأول إلى نهاية آذار.

كان عليّ أن أجد مأوى للوزارة، وأن أجد من يعمل فيها من الوزارات الأخرى فأسعى بنقل المفيد منهم. ذلك لأن الوزارة أُحدثت في أواخر السنة المالية، ليس لديها ما تنفق منه إلا ما يفيض من موازنات الوزارات الأخرى.

لقد وجدت في دمج وزارتي الزراعة والإصلاح الزراعي ضالّتي، إذ عدت إليهما في البحث عمّن يمكن نقله من العاملين فيهما إلى الوزارة الوليدة، ونقلت إليها بعض من كان يعمل معي في الوزارة السابقة، وتجمّع لدي بوسائل النقل من جميع الجهات ما لا يزيد على خمسة عشر شخصًا من جميع الفئات، ولا يتجاوز عدد من يمكن أن يوكل إليه عمل مفيد منهم الخمسة فقط.

كانت أعمال تطوير مناهج كلية العلوم قد شارفت على نهايتها، فانتقلت فورًا إلى إعادة النظر في بنية جامعة حلب، في ضوء رؤى التعليم الجامعي التي ذكرتها في كلمتي في افتتاح أعمال أسبوع العلم السابع، فأوقفت الانتساب إلى كلية الحقوق للأسباب التي ذكرتها في كلمتي ولنقص شديد في أطر التدريس المؤهلة في الكلية، ووجهت كلية الآداب إلى اللغات (العربية والأجنبية) وأوقفت المحاور أو الأقسام الأخرى كالفلسفة والتاريخ والجغرافيا وعلوم النفس والاجتماع انسجامًا مع المعلومات التي ذكرتها في كلمتي عن فيض الطلاب في هذه الفروع، وأصبح التوجيه في اللغات إلى الترجمة والترجمة الفورية خاصة.

وألَّفت لجنة من المختصين لدراسة تنظيم كلية الطب في حلب، وتم الوصول إلى نظام مناسب. ودخل على الدراسة طبيب سوري أتاسي شاب مقيم في الولايات المتحدة الأميركية، قد يكون اسمه عدنان ومعه الطبيب رياض برمدا، وأرادا أن تكون لغة التدريس في الكليّة هي الإنكليزية، فأكدت لهما أن اللغة العربية هي لغة التدريس منذ نشوء التعليم الجامعي في سورية، ولا يمكن العودة فيه إلى التغريب.

قدمت مشروع مرسوم إحداث كلية الطب. وكان يندر أن يجتمع مجلس الوزراء بعد حرب حزيران، وكانت قراراتُه تُتخذ "بالتمرير". وقعتُ مشروع المرسوم وأرسلته للتوقيع بالتمرير، فهتف إلي وزير المالية موفق الشربجي قائلًا: "لقد استرعى

انتباهي في مشروع مرسوم كلية الطب بحلب طباعته على ورق يختلف بعضه عن بعض، فنظرت فيه وتبين لي أن ورقتين منه نزعتا واستبدل بهما ورقتان مختلفتان بدّلت فيهما لغة التدريس".

كانت هذه هي نقطة الخلاف الكبرى بيني وبين الدكتور زعيّن. وكنت من قبل قد اختلفت معه في موضوع تنظيم البحث العلمي والبدء بتحريك أنشطته، ولدى إلحاحي قال لي: "يا دكتور واثق في البحث العلمي إذا عطسنا نعطس أربعمئة مليون دولار". يريد أن يقول إن البحث العلمي مكلف جدًّا ولا طاقة لنا به، ولم يشأ الاستماع إليّ أروي تكاليفه الزهيدة في بعض المجالات المفيدة، كتصنيف النباتات السورية ودراسة خصائصها الغذائية والدوائية والسمية، والبدء بدراسة نباتات مناطق الحدود فيقتات الجند إذا ما حوصروا بالنباتات المناسبة منها... وكدراسة حشرات تلك المناطق لتحاشي أذاها...

لم أنجز إصلاحات التعليم العالي وتطويره التي أشرت إليها في كلمتي في أسبوع العلم، ولاسيما إعادة النظر في تنظيم الجامعات وفي تفرغ أعضاء هيئة التدريس للبحث العلمي والعمل الجامعي، ولم يتح لي العودة إلى دراستها إلا في عام ١٩٧١ في المؤتمر الأول للتعليم الجامعي. فوضعت مشروع قانون تنظيم الجامعات ومشروع قانون التفرغ وصدرا بعد تعديلات طفيفة في عام ١٩٧٥ وسأعود إلى الحديث عنهما فيما بعد.

منذ أواخر الشتاء بدأ بعضنا يتململ في الوزارة بانتظار تعديل وزاري ليغادرها.

كان تململُ بعض هؤلاء للتفاخر، وقليل منهم لخلاف استجدّ في أساليب العمل أو في وجهات النظر. وكان صالح المحاميد خير من يمثل الاتجاه الأخير، كان هادئًا قليل الإفصاح عمّا يتذمّر منه، وكان يُعهد إليه في كثير من الأحيان برئاسة مجلس الوزراء في غياب الدكتور زعيّن.

كان لكثير من الوزراء صلات ببعض أقطاب الحكم، وكثيرًا ما يجاهر أحدهم بحديثه مع شخصية قيادية لإضفاء هالة على مكانته السياسية.

قد يكون بعض هذه الظواهر والمظاهر مقبولًا في حدود، إلا أن كثيرًا منهم كان يستعين بهذه المظاهر لإقناع نفسه بأنه أهل للوزارة.

كنت في فئةٍ قليلةٍ من الوزراء، لم يعمل أفرادها على إقامة صلات شخصية برجال الحكم، وما كان رئيس مجلس الوزراء أو غيره من الوزراء المفوضين يضعنا في صورة ما يجري في كواليس الحكم من مداولات، وما يطرأ على الساحة السياسية الوطنية من مستجدات، كنا نسمع ما يشاع حولها من الناس.

وفي بداية إحدى جلسات المجلس، وبينما كان يلمّح الدكتور زعيّن في حديثه إلى بعض تلك المستجدات، استوقفه وزير المالية موفق الشربجي قائلًا: "إنك تشير إلى أمور هامة إشارةً عابرةً ظنًّا منك أننا على علم بها وبتفاصيلها. إننا نفاجأ بهذه الأخبار في بيوتنا من زوجاتنا، إنهنّ على اطلاع عمّا يجري في الكواليس من زميلاتهنّ زوجات بعض المسؤولين في الحزب أو في الحكم. ألا ترى أنه حريٌّ بنا أن نطّلع منكم على هذه التطورات، فقد نفيدكم بمشورةٍ أو رأي، ثم إننا شركاء في تحمل المسؤولية!"

وفي نيسان ضرب الإسرائيليون الجبهة، فتحركت الدولة لإظهار وجودها وتماسكها، فزار الجبهة وفدٌ من المسؤولين، ومُثِّلت الدولة بعدد كبير من الوزراء، كنت بينهم. تحدث قادة الجبهة العسكريون عمّا جرى وعن متانة الجبهة وتحصينها، لم أدخل في نقاش مع أحدٍ منهم فقد كنت أستمع فقط، إذ لم يكن لي فيما يروى رأي مفيد، لأن كثيرًا من المعلومات الهامة كانت بعيدةً عنّي، كما كنت بعيدًا عن فهم القضايا العسكرية وعن الإدلاء فيها برأي مفيد.

التقيت هناك العقيد حكمت الشهابي فسررت به وعدت معه إلى دمشق بعد انتهاء

الزيارة. لقد كان من طلابي في الأشهر القليلة التي قضيتها في تجهيز حلب قبل انتقالي معيدًا إلى كلية العلوم، كان هو وساطع برمدا في صف الثانوية العلمية.

بعد ضرب الإسرائيليين الجبهة صارت استعدادات الدفاع أكثر جدّيةً وإلحاحًا، فأدى ذلك بالمقابل إلى تباطؤ مسيرة الإصلاحات والتنمية. وازداد تشويش المتململين من الوزراء وضجيجهم تأكيدًا لتفرّدهم وتميّزهم، وأشاعوا جوًّا من عدم الرضا أصاب بعض الملتزمين بأحزاب التآلف.

حرب حزيران

وفي صباح اليوم الخامس من حزيران من عام ١٩٦٧ دخل عليّ في مكتبي بالوزارة السيد موفق جلمبو أحد الموظفَيْن اللذين نقلتُهما من وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، دخل دون استئذان وهو يبكي، وكان يردد كلامًا لم أفهمه. ثم لاحظت أنه يحمل بإحدى يديه راديو اختلط صوته بصوت السيد جلمبو فازددت ضياعًا، إلى أن أشار بيده الأخرى إلى الراديو، فانتابني خوفٌ قبل أن تتضح لي الصورة، فركزت انتباهي على الراديو فسمعت كلامًا لم أعِ تفاصيله، لأن ذهني اتجه فورًا إلى ما يجب القيام به على جبهة القتال الذي ليس لي خبرة فيه.

مرّت أيام صعبة، ومرّ كلٌّ منا فيها بامتحانٍ قاسٍ اجتازه بعضٌ قليلٌ منّا بنجاح.

توغَّل الجيش الإسرائيلي في مصر غرب القناة، وفي سورية دخلَ الجولان وتقدَّم في هضابه، ولم يتوقف تقدم الجيش الإسرائيلي في الجولان، رغم قبول إسرائيل قرار الأمم المتحدة وقف القتال.

أذكر أنه أُقيمت ندوة على مدرج الجامعة حضرها بعض رجال السلك الدبلوماسي الأجنبي، في أمسية من أمسيات التفاوض على وقف القتال. كان المتحدث ينقل إلى المستمعين ما يقع في الجبهة مباشرة، وعندما بلّغهم بكلام ولهجة مؤثرين أن العدو لا يزال يتقدم رغم قبول دولته وقف القتال دمعت عينا أحد السفراء حزنًا لحالنا.

كثر حديث الانتهازيين الذين تزيّوا بزيِّ اليسار كذبًا وخداعًا، عن عزمهم على تنظيم حرب عصابات، ودعيت لحضور اجتماعٍ في بيت وزيرٍ هو رأس أولئك الانتهازيين، فرفضت حضوره، وقلت في نفسي هل تصل بنا المهانة لاتّباع هذا الدجال؟

بعد ساعات من الاضطراب دُعي الوزراء للانتقال إلى حلب. غير أني لم أبلَّغ ذلك رسميًّا، وإنما سمعته من بعض الزملاء الوزراء، فقلت للسائق ابق أنت مع أسرتك وتدبر أمرها في هذه الظروف الصعبة، وطلبت من الصديق الدكتور طاهر تربدار أن ينقلنا مع أسرته إلى حلب، فاستعد للسفر، وهو يكره سياقة السيارة في النهار ولا يسافر بها ليلًا. كيف قبل السفر ليلًا، وكيف أمكنه ذلك في ظروف التعتيم التي فرضتها الحرب؟ إنها حقًّا تضحية.

بعد خروجنا من دوما بدأنا نسمع هدير آليات يقترب منا، ثم اتضح لنا أنّها آليات اللواء الذي كان يرابط في المنطقة الوسطى بقيادة المقدم مصطفى طلاس، وقد تحرك للدفاع عن دمشق.

وصلنا حمص في أواخر الليل، فاسترحنا قليلًا في بيت أخي الدكتور طاهر، ثم تابعنا إلى حلب ووصلنا إليها بعد شروق الشمس. لم نُقِم في حلب أكثر من يوم واحد، فقد توقف القتال وعدنا إلى دمشق وقد التحق بي سائق سيارتي مع السيارة في حلب وعدت معه إلى دمشق.

كان قرار انتقال الدولة إلى حلب صعبًا، وكان يجب أن يدفع القرار إلى جهاز يتولى تنفيذه، لينظر في جميع الشؤون التي يجب أن تلحق به وينظم نقلها، ولذلك لم يشمل القرار الشؤون المرتبطة بالدولة. فجاء بُعيد قرار انتقال الوزارة، قرار انتقال المصرف المركزي الذي ألحّ حاكمه عدنان الفرّا على انتقاله مع الحكومة مباشرة.

إن الاضطراب الذي رافق قرار الانسحاب إلى حلب، جعل الدولة تعيد النظر في

تنظيم أوضاعها في حالة الحرب، فأُحدثت لجنة للدفاع عن دمشق برئاسة الفريق عفيف البزري، وباشرت اللجنة اجتماعاتها في مبنى مجلس الشعب. وعندما قبلت دولتنا وقف إطلاق النار، دعانا رئيس مجلس الوزراء للاجتماع ليبلغنا صيغة موافقتنا، فاجتمعنا في مخبأ في المبنى، ونشب جدال عنيف بين الوزيرين مشهور زيتون وإبراهيم ماخوس حول القرار الذي اتخذ بمعزلٍ عن مجلس الوزراء.

خلفت هذه الحرب آثارًا مختلفةً عميقةً على الأرض والشعب والفكر، وقدّم جمال عبد الناصر استقالته محمِّلًا نفسه مسؤولية ما آلت إليه الحال، وردّ الشعب المصري على هذا الاعتراف والجرأة بمزيد من التقدير، وانتحر عبد الحكيم عامر.

وفي دمشق استمرت الوزارة في حكمٍ مضطربٍ قلقٍ حتى ٢٨ أيلول ١٩٦٧ يوم إعلان استقالتها. فعدت إلى كليتي كالعادة، وإن كنت لم أترك التدريس فيها أبدًا مهما كانت مهام المنصب الذي أتولاه.

طُبِّق، منذ شباط ١٩٦٦ أي قبل حرب حزيران، نظامُ تقشفٍ أُعيد بموجبه توزيع السيارات على مختلف القطاعات حسب الحاجة؛ فكان من نصيبي في الوزارة الأولى سيارة قديمة وكذلك في الوزارة الثانية، ولم تُدْخِل الدولة سيارات جديدة أبدًا.

مرّ بي الدكتور زعيّن يومًا وكنت واقفًا أنتظر باص النقل العام بالقرب من نادي الضباط القديم في الصالحية، وكان يستقلّ سيارته الخاصة "السلحفاة" يقودها بنفسه وبجانبه في السيارة سلاحه، فقال لي "أين سيارتك؟" فأجبته لقد انتهى الدوام، فقال اصعد سأوصلك، فاعتذرت له شاكرًا.

وفي عيد الجلاء دُعي الوزراء للاحتفال به في نادي الضباط (القديم) مع زوجاتهم، فاجتمعنا في بيتنا مع الدكتور أسعد تقلا وزوجته، واستقر رأينا أنا والدكتور أسعد على استئجار سيارة أجرةٍ ننتقل بها إلى النادي، لأن سيارة الدولة مخصصة للمهمات الرسمية

فلا يجوز لنسائنا وأولادنا ركوبها، وكانت السيدة تقلا قد ألحّت في تنبيهنا على أن تصرفنا سيكون شاذًا في الحفل، انطلقنا أربعة في سيارة أجرة، وأمام النادي كان منظرنا شاذًّا كما قالت السيدة تقلا، فجميع الوزراء حضروا الحفل بسياراتهم! وصدقت رؤية السيدة تقلا، ومنذ ذلك التاريخ سمحت لزوجتي وأولادي بالسفر إلى حلب بصحبتي في سيارة الدولة، ولكنها لم تُستعمل لنقل أيٍّ منهم في دمشق أو خارجها.

في تلك الأيام أُوقف العقيد إسماعيل هلال فجأة، وكنت أعرفه وهو من قرية ترمانين تبعد نحو خمسة كيلومتراتٍ من دارة عزّة، فقصدت عبد الكريم الجندي وكان مسؤولًا عن الأمن. دخلت عليه وحدثته بشأنه، وكان في مكتبه صورة له مع رفاقه في الكلية، كان من بينهم إسماعيل هلال، فاستلهمت حديثي من وحي الصورة وعدت به إلى تلك الأيام وصفاء الود فيها، تؤلّف الصحبة بين قلوب الرفاق، ويجمع بينهم حب الوطن والدفاع عنه وإعلاء شأنه... ثم تهدِم الشكوك في يومٍ واحدٍ ما بنته الصداقة في صفو الأيام في سنين... فبكى متأثرًا وعاد إسماعيل هلال إلى الحياة الاجتماعية طليقًا بعد أيام قليلة.

بعد الإشكال الذي جرى في مشروع مرسوم كلية الطب بحلب قررت الانصراف إلى البحث العلمي والتعليم. وكان قد حان موعد ترشيحي لوظيفة أستاذ، فرأيت التفرغ لطباعة كتابين في الترموديناميك التقليدي وفي الفيزياء الإحصائية، فتفرغت لهما. وكنت من قبلُ أصدرتُهما في طبعاتٍ تجريبية طلابيةٍ عدة مرات وأصابهما التنقيح في كل مرة، وتقدمت بسهولة للترفيع إلى وظيفة أستاذ لكرسي الفيزياء الذرية فنلت الوظيفة.

في ربيع هذا العام، عام ثمانية وستين تبين أن زوجتي مصابة بمرض السكري، وأخذت تتناول حبوبًا وتكثر من المشي، فلم تظهر آثاره السيئة في جسمها إلا بعد أكثر من عقدٍ من الزمن. وأخذت أعِدّ نفسي للإيفاد، وصدر قرار إيفادي بمهمة علمية

بالراتب إلى فرنسا لمدة تسعة أشهر، وقلت في نفسي لعلّنا في هذا الإيفاد نجد لزوجتي الترياق لمرض السكري ولحمّى أسرة البحر المتوسط التي كشف الدكتور يوسف صايغ في السبعينيات إصابة زوجتي بها.

قبل سفري جاءني الدكتور فؤاد صعيدي لأساعده في وضع مشروع قانونٍ لمركز بحوثٍ للقوات المسلحة، فرحبت به ووضعت المشروع وأعطيته إياه وتمنيت له النجاح. كانت فاطمة شقيقة الدكتور فؤاد تلميذتي في كلية العلوم، ولا بد أنها هي التي وجّهته إليّ.

كانت مشكلتي في تنفيذ مهمة الإيفاد ابني زياد فهو في السادسة عشرة من العمر قارب إنهاء المرحلة الثانوية، ولو سافر معنا إلى باريس فلن يتمكن من متابعة الدراسة في صفٍّ مفيدٍ لأنه نسي اللغة الفرنسية ولن يستردها إلاّ بعد عدة أشهر، وبقاؤه في الوطن بعيدًا عن والديه وحيدًا مشكلة، كان رأي خالي أن يصحبنا إلى فرنسا، لأن ضياع سنة من دراسته في سورية لا قيمة لها أمام ما يكتسبه في فرنسا من اللغة والثقافة. وقررنا اصطحابه معنا على أن نعيد النظر في وضعه قبيل بداية السنة الدراسية، ونقرر في ضوء المستجدات بقاءه أو عودته إلى حلب ليتابع دراسته فيها بإشراف خاله أحمد ومع أولاده.

إلى باريس

سافرت إلى باريس في أيار من عام تسعةٍ وستين وحيدًا، إذ كان على زوجتي مرافقة ولدينا والسفر معهما بعد انتهاء سنتهما الدراسية، وتركت للصديق الدكتور طاهر تربدار مهمة تأجير بيتنا طوال مدة غيابنا في فرنسا لنستعين بأجرته على الحياة في باريس، إذ كان عليّ استئجار بيتٍ فيها بغرفتين على الأقل.

أمضيت ثلاثة أسابيع في باريس وحيدًا قبل التحاق الأسرة بي، استأجرت في أثنائها البيت، وزودته بهاتفٍ وتلفاز مستأجَرَين، وبقي الهاتف مدةً طويلة صامتًا، وعندما رنّ جرسه أول مرة، اعترتنا رعشة تلاها سرور، إذ صار لنا من يسأل عنا في باريس.

تعرَّفت مكان عملي في (سَكْلى) وانتظم عملي فيه. كنت أقضي في تنقلي اليومي بين البيت ومقر عملي زهاء ساعة ذهابًا ومثلها إيابًا. وفي أثناء وجودي في العمل كانت الأسرة تعيد ذكريات أيامنا السابقة سيرًا على الأقدام ما بين بيتنا في المنطقة التاسعة عشرة ومنطقة الأوبرا لتحرق الأمّ السكر.

وفي العطلة الأسبوعية كنت أرافقهم إلى الأحياء التي ألفناها كالحي اللاتيني الجامعي وحديقة اللّوكسمبور، وبورت دورليان وجانتيّي حيّنا أو قريتنا الصغيرة التي عشنا فيها ثلاث سنوات.

وفي نهاية إحدى جولاتنا عدنا إلى البيت كالعادة ولكننا لاحظنا أن ورقةً صغيرة لُفّت بعناية ووضعت في ثقب قفل الباب، ولا بد أن شخصًا يعرفنا قد وضعها. فتحت الورقة بعناية فكانت من أستاذنا الدكتور عبد الحليم سويدان وفيها رقم هاتفه في باريس، فسررت كثيرًا وأسرعت فاتصلت به هاتفيًّا واتفقنا على اللقاء في ساعةٍ ومكانٍ محددين.

في اللقاء علمت أنه استقال من عضوية هيئة التدريس في كلية العلوم، فحزنت كثيرًا لقبول الدكتور مصطفى حداد استقالته، حزنًا كنت أشعر معه بأن مرحلةً في حياتنا الجامعية قد ولّت، وانتابني شعور بأن أستاذنا الدكتور سويدان اضطر للاستقالة، وكان هو يحاول إقناعي بأن الاستقالة كانت مطلبه.

وترسّخ في قرارة نفسي أن قبول استقالة الدكتور عبد الحليم سويدان هو مؤشر حاد في تاريخ التعليم الجامعي في سورية، لقد انتهت مرحلة البناء.

بعد سفر الدكتور سويدان، عدنا نقضي العطل الأسبوعية في الأحياء التي ألفناها في سنوات الإيفاد، كنّا إما أن نزور جيراننا في بورلارين، أو أن نتجول في الضواحي مع عدنان حموي بسيّارته العجيبة... وحضرت حفل مناقشة أطروحة "الدكتور"

عدنان وحصوله على دكتوراه الدولة في الرياضيات. وزرنا معيدنا بسام معصراني في بيته بدعوة على الطعام، وزارنا مع أسرته يوم كانت أم ياسر درويش في زيارتنا في طريقها إلى مدينة ليل للالتحاق بزوجها الدكتور زياد درويش. استقبلنا في بيتنا بعض الزملاء ضيوفًا، كحسن كنيش ومحمد بغدادي وصلاح أحمد، فقد كانت إحدى غرفتَي البيت مستقلة وشبه منفصلة.

إلاّ أن أولى زياراتنا المخططة كانت لجيراننا في بورلارين الذين قضينا في دارتهم سنتنا الأولى والذين تفقدوا أوضاعنا في حرب السويس واعتذروا عن اعتداء فرنسا على وطننا العربي. وأشعر بأننا قصّرنا في إعادة بناء صلاتٍ قويةٍ بهم وتمتينها مهما كانت أعذارنا. أذكر أنهم رحبوا بنا في دارتهم وحاولوا تقديم كل ما يسرّنا، فقد تساءلنا عن حال من كانوا أطفالًا في أيامنا السالفة في بورلارين، فأحضروهم جميعًا في موعدٍ آخر.

وكانت الزيارة الثانية للأستاذ برتان الذي تولى الإشراف على بحوثي في الدكتوراه، زرناه في البيت وتحدثنا عن التطورات التي طرأت في عقدٍ من الزمن أو أكثر قليلًا، لقد أخرجوا التلفاز من البيت وأسقطوه من حساب الضروريات التي يجب توفرها في البيت. وأراد الأستاذ برتان أن يكرمنا بالتمتع بزيارة باريس في الليل، فاصطحبنا بسيارته، ولما خجل من نقد الناس سياقته، قال لنا معتذرًا، إننا في باريس لا نتجول بسياراتنا في شوارعها ونستخدم فيها وسائط النقل العامة، أما سياراتنا فنستخدمها للتنقل خارج باريس، في ضواحيها.

ومن الزيارات المخططة زيارة السفارة السورية، والسفير كامل حسين في مقدمة من فيها، ودعوته على عشاء في بيتي المتواضع، وقد لبى الرجل الدعوة مشكورًا، وقامت زوجتي بواجبات الضيافة رغم نوبة حمى البحر المتوسط التي أصابتها. كما زارنا السيد صالح عرّاج من ترمانين.

أما المهمة الثقافية فقد عجبت في باريس من الدعاية والمساندة اللتين كانت تحظى بهما القضية الفلسطينية لاسيما من اليسار الفرنسي. وكان ديغول من قبل هو الذي فتح هذا الباب بعد عدوان إسرائيل في عام سبعةٍ وستين. لقد كان شارع سان سِفِران المتفرع من بولفارسان ميشيل يعج باليسار الفرنسي وبدعايته للقضية الفلسطينية، التي تَظهر في دوريات تتغير أسماؤها للضرورة، ولكنها لا تلبث أن تصدر بأسماء أخرى. أذكر من الدوريات "جهاد" التي استمرت ولم يتغير اسمها العربي المكتوب بالأحرف اللاتينية، و"روج"... واكتشفت أنني كنت أجهل القضية بعمقٍ وتفنيدٍ علميين، فغاليت في الانصراف للقضية الفلسطينية، فلم أترك نشرةً بالفرنسية أو كتابًا إلا اقتنيته، ولكن لم يتوفر لي الوقت لقراءة أكثرها. هذا من طباعي السيئة أكدّس من الكتب ما لا يتوفر لي الوقت لمطالعته، كنت أقول في نفسي قد أحتاج فصلًا من الكتاب أو جزءًا من فصلٍ وأسوّغ لنفسي شراءه. كنت أقرأ جريدة لوموند يوميًّا، وشعرت بتحسن لغتي الفرنسية كثيرًا.

أما عملي العلمي في سَكلي فكنت غير راضٍ عنه، كان في المسرِّعات الخطيّة، وهو خيار مقبول ومنطقي للجهة المضيفة، فبحوثي السابقة كانت في هذا المجال، ولكنني أشعر أن الفائدة لجامعة دمشق مما أجنيه فيه، ولبلدي ولي أيضًا ضعيفة جدًّا، وليس لما أكتسب من خبرةٍ مستقبل واعد منظور. رأيت أن أقرب الاختصاصات إليّ في سَكلي هو الانصهار النووي، وليس له أيضًا في بلادنا المستقبل الواعد المنظور، ولكن ليس هناك من خيار آخر.

تحدثت مع بعض الباحثين حولي فنُصحت بالتوجه إلى "التوكوماك" في فونتني أُو روز ومدير المشروع شخص يدعى "بابولار"، قلت لمحدثي هذا شخص أعرفه جيدًا، وأسرعت إلى جهاز الهاتف واتصلت بمدير المشروع السيد بابولار، فرحب بي على الهاتف ودعاني لزيارته.

لا أذكر كيف ذهبت إليه، إنه الباحث الذي دافع عن الثورة الجزائرية إبّان اندلاعها، وأعلمني بعد انتهاء ذلك الحوار بنجاح، أنه مصري ويكتب بالعربية كما يكتب بالفرنسية، وزارني بعد الدفاع عن أطروحته يستشيرني أيقبل الجنسية الفرنسية والعمل في البحث العلمي في فرنسا أم يعود إلى مصر وطنه؟ كنت نصحته بالعودة إلى وطنه مصر، فهو بحاجةٍ له ولأمثاله. كنت أظنّه مصريًّا من أصل يوناني...

لا أذكر كيف ذهبت إليه، ولا أذكر كيف دخلت عليه، لقد كان السرور يلفّني والنشوة ترتفع بي إلى تصور مستقبلٍ علمي مُرضٍ في بحوثٍ في الفيزياء النظرية قد نجد فيها أنا وعبد الرزاق قدورة طريقًا مشتركًا للبحث العلمي في الوطن... وما إن انتهى الترحيب والسلام حتى بادرته بالسؤال عن أسباب غيابه عن المخبر بعد الدفاع عن أطروحته، كنت أظنّه عاد إلى مصر، فأجابني:

"يا سيد شهيد أنا يهودي أنت لا تعلم ذلك، بعد الدفاع عن أطروحتي، كنت حائرًا بين العودة إلى مصر والاستقرار في فرنسا، وبقيت رهين الحيرة إلى أن كانت حرب السويس، ورأيت على شاشة التلفاز أبي وأمي مع يهود مصر على سلّم باخرةٍ حملتهم بعيدًا عن وطننا مصر. عندئذٍ فقط قررت الاستقرار في فرنسا، ولقد قطعت على نفسي عهدًا ألاّ أتكلّم في السياسة، وإذا كنت تريد التحدث في موضوع سياسي الطابع، فأخي الأصغر سنًّا يعمل في جامعة باريس السابعة، وهو من أنصار (تشه غيفارا) يمكنك أن تحاوره".

لقد كانت مفاجأة انهارت بها أحلامٌ كانت تطلّ عليّ بآمال خيِّرة واعدة بمستقبل للبحث في مجال لي في قواعده العريضة بعض الخبرة فيما يشترك فيه مع المسرّعات من معارف وتقانات.

وانتهت الزيارة كما بدأت، بعد أن انهار الجسر الذي بناه بابولار في أواخر عام أربعةٍ وخمسين في الدفاع عن الثورة الجزائرية، لم ألقه بعدئذٍ ولم أفكر في لقاء أخيه.

اتجهت بعدئذٍ في التفكير للاستفادة المثلى من إيفادي بالتحول إلى إحدى جامعات باريس للدراسة، إما في محور المعلوماتية (أنفورماتيك) أو في محور فيزياء الجسم الصلب، وكلاهما كان مما فكّرت في تطوير برامج الدراسة في قسم الفيزياء باتجاهه.

وكنت أرى أن التطوير يجب أن يشمل فلسفة العلوم ومنها الفيزياء في قسم الفيزياء، وتاريخ العلوم ومنها تاريخ العلم العربي بخاصة، وأغرقت نفسي باقتناء الكتب في هذه المجالات العريضة. توصلت لهذا القرار بعد مضي فترة التسجيل في الجامعات، فقررت أن أتابع ما أختاره، بحضور المحاضرات وبالاعتماد على نفسي، فكان خيار فيزياء الجسم الصلب أقرب إليّ من المعلوماتية في هذه الظروف.

وكنت أرجع في بعض الأحيان إلى الأساتذة، فألقى منهم الترحيب وكل عون. وقد قدّم لي أحدهم عددًا من مجلة "أتوم - رشرش" التي تطورت إلى مجلة "رشِرش" التي تصدر الآن كل شهر، وقال لي: "ستقرأ في هذا العدد أن سرّ صناعة السيوف الدمشقية لا يزال خافيًا عنّا، ولا يزال موضوعَ البحث في جامعاتٍ غربيّةٍ منها جامعتنا". وفيزياء الجسم الصلب موضوع جذاب جدًّا، ولاسيما آفاقه العريضة، منها بخاصة البنى البلّورية.

كنت اطلعت على بعض وجوه البحث في فيزياء الجسم الصلب، من خلال اطلاعي في مرحلة الدكتوراه، على بعض أعمال ليون بريوان الذي أعجبت به. وأخذت أجمع، أمالي الأساتذة في مختلف مجالات فيزياء الجسم الصلب النظرية، وأهم المؤلفات الفرنسية والإنكليزية في تلك المجالات. ولما كان شغفي كبيرًا بالفيزياء الذرية والنووية وما يرتبط بهما من طرائق رياضية، فقد جمّع لديّ الشغف منها الكثير مما استعنت على شرائه بالمكتبات التي توفر لزبائنها الكتب المستعملة والجديدة منها كمكتبتَيْ جيبر في بولفار سان ميشيل.

وفي هذه المكتبات استمر تعلقي بروائع معالجة بعض مشكلات الترموديناميك ولاسيما المبدأ الثاني فيه، وبالفيزياء الإحصائية وميكانيك الكم والرياضيات المرتبطة بالطرائق الرياضية للفيزياء، فتكدّس لدي من المراجع في تلك الاختصاصات العلمية وفي القضية الفلسطينية ما أثقل حركتي في السفر وشتَّت طاقتي على المطالعة.

لقد أُعجبت في سَكلى بطريقة تنظيم العمل وبأساليب توفير الراحة والوقت وجميع مستلزمات تحسين ظروف الباحث والبحث العلمي وبيئته. وهذا كله مما كنّا نفتقده في مرحلة تحضير الدكتوراه.

كنا نستخدم وسائل النقل العامة التي نظمت خطوطها ومواقفها لتتلاءم مع حاجات سكان المنطقة التي لا تطابق غالبًا حاجات فئة من الباحثين الذين يتجمّعون في مركز متواضع.

أما اليوم فمركز تجمُّعهم يضمّ الآلاف، يعملون في اختصاصات متكاملة متقاربة الأهداف. ولهذه الآلاف وسائل تنقلهم من أحد أبواب باريس إلى مركز عملهم، تنطلق بهم في ساعة مبكرّة محددة من موقع انطلاقهم إلى موقع عملهم مباشرةً سالكةً طريقًا واحدًا هو الأصلح وقتًا وازدحامًا وراحةً للنفس والجسم. لا تتوقف أو ينعطف طريقها استجابة لحاجات غير الباحثين.

يصل الباحثون إلى مركز العمل وتختفي وسائط النقل ولا تعود إلاّ قبيل وقت انتهاء يوم عملهم لتنقلهم إلى مكان انطلاقهم من أبواب باريس.

أما في وقت الغداء فيخرج الباحثون إلى مطاعم عدّة في حرم المركز، يقدّم كل منها وجبات محددة ينتقي الباحث منها ما يروق له، وفي الوجبة عدد من المكوّنات يختار من مكوّناتها ما يشاء ويدفع ثمن ما تجمع في وجبته منها. إلا أن ثمن الوجبة يختلف باختلاف فئة دخل الباحثين الشهري، فالأدنى دخلًا يدفع على وجبته ثمنًا أدنى.

وقد نظم اتساع المطاعم على اعتبار أن الوقت الوسطي لتناول الطعام ثلث ساعة، ويستقبل المطعم زبائنه ساعةً فقط. يقضي الباحثون ما تبقّى لهم من وقت الظهيرة في سوق مؤقت تتغير محتوياته يوميًّا وأسبوعيًّا ووفق الحاجات في فصول السنة وأوقات بعض المواسم كموسم التزلج أو موسم الاصطياف... يجد فيه الباحث ما سيطبخه للعشاء أو لإطعام أولاده، كما يجد بعض الكتب الثقافية أو يوصي مكتبة السوق على بعض الكتب الخاصة... يجد في هذا السوق ما يقضي فيه المدة الباقية من ساعة الظهيرة في تسلية مفيدةٍ متجددةٍ، أو قد يتجول في أرجاء المركز بين أشجاره وفي حدائقه.

لقد اقتبست الكثير من هذه الأساليب في تحسين بيئة العمل للباحثين فيما بعد في مركز الدراسات والبحوث العلمية في دمشق.

في الصيف الذي قضيته في باريس، قرأت في الجرائد السورية التي كانت تصلني من السفارة أن مرسوم إحداث مركز الدراسات والبحوث العلمية قد صدر.

وأورد التلفزيون الفرنسي أن أحد ضباط الجيش الليبي قام بانقلاب في الأول من أيلول، وكان ذلك الضابط هو معمر القذافي.

إلا أن الحدث الأكثر إيلامًا كان نزول وحدة إسرائيلية في الغردقة، على ساحل البحر الأحمر من مصر، وانتزاع رادار ضخم وحمله إلى إسرائيل بخداع الوحدة المصرية المكلفة بحماية الرادار، وكان أفراد الوحدة الإسرائيلية يرتدون الزي العسكري المصري ويجيدون اللهجة العربية المصرية.

قضى طارق سنته الدراسيّة أو جلّها في مدرسة ابتدائية في الحي، كان يذهب إليها ويعود إلى البيت منفردًا، وتمكَّن في صفه من متابعة زملائه الفرنسيين، إلا أنه فقد ما اكتسبه في أقل من سنتين.

أما أمه فقد كانت تخفي عنّي حزنها على فراق زياد، إلى أن اكتشفتُ ذلك مصادفة، كانت تكفكف دمعها حزنًا عليه، وهي قلّما كانت تبكي.

فكّرت في طلب تمديد إيفادي بهدف تمتين ثقافتي العامة الأدبية والاجتماعية باللغة الفرنسية، وامتلاك طارق اللغة وطريقة التفكير، وعلى أن يلتحق بنا زياد، إلا أن أخي إبراهيم أغلق أمامنا جميع طرق التفكير بهذا الخيار، إذ كتب إلينا بوجوب عودتنا إلى الوطن قائلًا: "لقد غرّبت الشمس..."، فتملكنا الخوف، هل يعني بذلك إعلامنا إحساسه بقرب الفراق، أو أنه يخشى أن يلمّ سوءٌ ما بزياد... بعد هذه الرسالة قررنا العودة إلى الوطن.

العودة إلى الوطن

عدنا إلى الوطن قبل بداية الفصل الدراسي الثاني وعاد زياد إلينا من حلب. عدت إلى التدريس شديد الرغبة للتطوير. يدفعني إليه ما لمسته من تطوير محتوى التعليم الجامعي في باريس واتساع آفاقه ورحابة خياراته فيها، وأعددت مع بعض الزملاء مشروع ماجستير في فيزياء الجسم الصلب ومشروع خيار جديد في درجة الإجازة عمادها الأنفورماتيك الذي يمكن أن يشارك فيه قسم الرياضيات.

شُغِلت في الإعداد لهذا التطوير المزدوج، وأخذت في توسيع اطِّلاعي على هذين الخيارين بالأسلوب الأنكلوسكسوني، كنت أسعى بتوقٍ شديدٍ إلى ولوج باب ساحة التحدي في التطوير، وتحدي التطوير بالمقدرة على تحقيقه. هزّني إليه ودفعني دفعًا حبُّ التعليم، تعليم روائع المعرفة التي كانت لا تزال خافيةً عنا، وقد دَخلَت البلدانُ المتقدمة عوالَمها الرائعة واستخدمت تطبيقاتها في الاقتصاد والتنمية.

كنت أنوي فتح باب البحث العلمي في كلية العلوم في فيزياء الجسم الصلب، في الماجستير المقترح في سنتين دراسيّتين، الأولى منهما محاضرات (مقررات) أساسية في فيزياء الجسم الصلب، أما السنة الثانية فمقررات تخصصية محدودة تكون مدخلًا لبحث متواضع في مجالات المقررات التخصصية، قد يحتاج الطالب لإنهائه سنة ثالثة.

انصرفت كلّيًّا إلى التفكير في هذا المشروع وتطويره وإدخال تعديلاتٍ عليه تأخذ في الاعتبار توفر المختصين في القسم، وتوخّي التوجّه في الماجستير إلى أقرب الاختصاصات نفعًا للبلاد.

في هذه الظروف أخذ الحديث عن تكليفي إنشاءَ مركز الدراسات والبحوث العلمية يتردَّد على ألسنة بعض المسؤولين، وأنا أحاول تحاشي كلَّ ما يعكر صفو تفكيري في المشروع ويزعزع انصراف زملائي إليه فيضعضع عزيمتهم وإيمانهم به.

اتصل بي الدكتور مصطفى حداد ليبلغني رغبة الوزارة ونقل إليّ أيضًا رغبة القيادة تسلّم مهمة إنشاء المركز، كما أكّد لي الدكتور أسعد تقلا أن فريقَي القيادة متفقان على تكليفي مهمة إنشائه.

إن إجماع القيادة في رأيها بي سرّني، وإن كان قد أشاع الاضطراب والقلق في نفسي وفي نفوس زملائي على مشروع تطوير مناهج الدراسة وبرامجها في كلية العلوم. كنت أحاول جاهدًا صدّ موجات القلق والاضطراب، ولم تتوقف محاولاتي إلاّ بعد أن طُلب إليَّ تسلُّم مهمة إنشاء مركز الدراسات والبحوث العلمية، وأُعِدّ مشروع القرار.

٤ . مديرًا عامًا لمركز الدراسات البحوث العلمية

أثرْتُ عدة إشكالات في شروط عملي، كان أهمها أن يكون عملي مديرًا عامًا للمركز في أعلى المراتب التي نصّ عليها القانون، ففي ذلك دلالة على مدى الرغبة في تسلّمي العمل، وأن يكون إعارةً من الجامعة لمدة سنةٍ واحدةٍ قابلةٍ للتجديد، وأن أتابع تدريس أربع ساعاتٍ أسبوعيًا (بلا مقابل ماديٍّ).

حُلَّت هذه الإشكالات، ولم أنقطع عن التعليم في كلية العلوم ولم أتخلّ عن صفتي، التي أحبّ، عضوًا في هيئة التدريس. وحافظت على ما أعتزّ به أي التعليم، وأَوقفت (في نظري على أقل تقدير) التدهورَ الذي أصاب القيمة الاجتماعية للأستاذ الجامعي.

صدر مرسوم تعييني مديرًا عامًا للمركز في ٢٣/ ٢/ ١٩٧١، وأُلحق بي ثلاثة موظفين، قام أحدهم محمد مصطو بالأعمال الإدارية والقانونية والمالية، وكان ألمع من عرفت ممن عمل معي ذكاءً وإتقانًا لتخصصه وعمله، وسمي الثاني محاسبًا، والثالث راقنًا على الآلة الكاتبة ومسؤولًا عن الديوان... وخُصصنا بثلاث غرفٍ من شقة.

لم أكن أريد القيام بأيِّ عمل علميٍّ تنفيذي من دون قرار من مجلس إدارة المركز. أما المجلس فلم يكن قائمًا، وأما العمل العلمي فلا يجوز لي القيام به، فاقترحت لعضوية مجلس المركز ستة أشخاص، سمَّى الرئيس منهم الثلاثةَ الأُول أعضاء في مجلس إدارةٍ مؤقَّت يتولَّى إدارة المركز ريثما يتم إحداث ثلاثة أقسام للبحوث فيحل رؤساؤها أعضاء في مجلس إدارته. ولكن قرار تأليف مجلس الإدارة لم يصدر إلا في أيار من عام ١٩٧٢، وذلك بسبب ظروف عمل الرئيس.

قضيت المدة ما بين قرار تعييني وقرار تأليف مجلس الإدارة المؤقت - وهي أكثر من عام - في إعداد دراساتٍ حول مراكز البحوث والبحث العلمي في الجامعات، وسبل تعاونها. ذلك لأنني لم أُولِ هذا الشطر من تفرعات الثقافة الجامعية في المدة التي قضيتها في الوزارة أولويةً في الاهتمام، لأن الدكتور يوسف زعيّن كان قد أوصد الباب بقوة دون البحث.

ثم قمت بدورٍ قياديٍّ في المؤتمر التربوي لتطوير التعليم العالي والجامعي، الذي انعقد في المدة من ٢٨ إلى ٣١/ ٨/ ١٩٧١، وفي الإعداد له، فطرحتُ الأساسيَّ من مشروعات إصلاح التعليم العالي التي أشرت إليها في الكلمة التي ألقيتها في افتتاح أسبوع العلم السابع، والتي لم تتح لي ظروف حرب حزيران وما رافقها، المضيّ بتنفيذها، وهي: قانون تنظيم الجامعات، ومجلس التعليم العالي، ومجلس السياسة العلمية، وهيئة البحث العلمي.

قانون تنظيم الجامعات

أما مشروع قانون تنظيم الجامعات، فقد حوى مشروع مجلس التعليم العالي واستجدّ فيه إحداث الهيئة الفنيّة، وهي هيئة يتفرغ أعضاؤها للقسم العملي والتطبيقي من مواد (مقررات) الدراسة، ذلك القسم الذي اتضح لي إذ كنت معيدًا أنه كان مهملًا محرومًا من الرعاية والعناية، وأنه يستحقّ التطوير المستمر في خططٍ تُعَدّ ويتابَع تنفيذها، ويُعَدّ أعضاء الهيئة لتطوير هذا القسم والتطور معه.

حُظِّر في مشروع القانون إيفاد أعضاء الهيئة الفنّية للحصول على الدكتوراه التي يتاح لهم بها الانتقال إلى هيئة التدريس، والحظر وقتيٌّ يزول بإحسان رعاية الهيئة وتنمية شخصيتها والارتفاع بها إلى مصافّ هيئة التدريس فيتكاملان في تخصصين عريضين يشملان كل أوجه التعليم العالي. كذلك حُصر الإيفاد للتدرب على استخدام تجهيزات المختبرات وتجهيزها، بأعضاء الهيئة الفنّية.

واتّساقًا مع هذا التوجّه المبدئي فقد وُضعت تسمية جديدة لمجموع الهيئتين التدريسية والفنّية هي الهيئة التعليمية لتشمل كل من يعمل في التعليم الجامعي، وجُمعت الأحكام التي تشملهما جميعًا أيضًا، وفي ذلك إبراز لأهمية الهيئة الفنية.

وقد أُدخل في هذه الهيئة مدرسو التعليم العالي، وأُغفل في القانون توصيف مهامهم، إذ كان هذا الخيار مغلقًا في فلسفة المشروع.

وأُلحِق بالهيئة الفنيّة، هيئة مخبرية، عمادها خرّيجو المعاهد المتوسطة، يساعدون أعضاء الهيئة الفنّية في حفظ تجهيزات المختبرات ويتقنون استعمالها وصونها من كل ما يؤدي إلى تلفها وتعطل وظيفتها، ويبرعون في توسيع مهام تلك الوظيفة.

وبهذا الأسلوب نتحاشى قيام المهندس أو المجاز عضو الهيئة الفنية بعمل المخبري، وهو لن يحسن القيام به.

لم تسمح الظروف المعقّدة في الجامعات بإيفاد بعض أعضاء الهيئة المخبرية لتحسين خبراتهم، إلا أن مركز الدراسات والبحوث العلمية أوفد المهرة ممن فيه منهم ليزدادوا خبرةً ومعرفةً ومهارةً بأعمالهم، وعادوا وقد أصبحوا، فيما اختصوا فيه، خيرًا من المهندسين، بل المرجع فيه في المركز.

واستجدّ في مشروع القانون تسمية وظائف رئاسة الجامعة ووكالتها وأمانتها وعمادة الكلية ورئاسة القسم وإدارة (مدير) المعهد وما شابهها بالوظائف العلمية الإدارية، ولها أحكام خاصة بها، كالنصاب التعليمي.

ولتمييزها عن الوظائف الإدارية المعروفة، كرئيس الديوان والمحاسب... اشتُرط في شاغلي الوظائف العلمية الإدارية الاستمرار في التدريس، لئلا تنقطع صلتهم به، وبتطوير معارف الطلاب ومناهجهم، حتى رئيس الجامعة كان عليه في مشروع القانون أن يدرّس ساعةً أسبوعية على الأقل، وحُظّر فيه أيضًا إسناد أكثر من وظيفة علمية إدارية لشخص واحد.

واستبدل في مشروع القانون مجلس التعليم العالي بالمجلس الأعلى للجامعات، إذ أصبح من مهامه النظر في شؤون التعليم العالي كله، والتنسيق بين مختلف جهاته.

التفرغ

ونص مشروع قانون تنظيم الجامعات على تفرّغ أعضاء الهيئة التعليمية لأعمالهم العلمية، من تدريس وبحث علمي وما يتبعهما من تأليف ونشر وتطوير...

يستفيد المحاضرون من تعويض التفرغ شريطة حيازتهم المؤهل العلمي لعضوية هيئة التدريس، وضمن شروط أخرى، بحيث يمكن الاستفادة من الخبرات المؤهلة في القطاعين العام والخاص، تأكيدًا لارتباط التعليم الجامعي والعالي عامةً بالمجتمع وبيئته؛ إذ يقدم هؤلاء المحاضرون خبراتهم في مجالات تخصصاتهم كما وقعت فعلًا وفي

البيئة المحلية. إلا أن بعض زملائنا في هيئة التدريس ضنّوا بأن يوضع غيرهم في مستواهم(!) ولو كانوا في مثله علمًا وعملًا، فحُذف هذا الحكم وملحقاته. وأُفرد في المشروع فصل خاص بمجلس التعليم العالي، ووُضع مشروع لمجلس السياسة العلمية، وآخر لهيئة البحث العلمي، ووضعت أسس التنسيق بين المجالس والهيئات المهتمة بالتعليم العالي والبحث العلمي والتقانة.

دُرست مشروعات القوانين هذه بعناية في الدولة، واقتصرت الدراسة المعمّقة لقانون تنظيم الجامعات على وزارة التعليم العالي وجامعاتها، ولم يصدر القانون إلاّ في أوائل عام ١٩٧٥، وقد جاء مجلس التعليم العالي جزءًا منه.

ألَّف اللواء خليفاوي رئيس مجلس الوزراء لجنة لدراسة مشروع لمجلس الدولة للسياسة العلمية في ٢٠/ ٢/ ١٩٧٢، وكان ألّف في ١/ ١٢/ ١٩٧١ لجنة لدراسة مشروعٍ لإنشاء مؤسسةٍ عامة للبحوث العلمية، فأحال عليها مشروعَي مجلس السياسة العلمية وهيئة البحث العلمي.

هيئة البحث العلمي

صدر مرسوم إحداث هذه الهيئة في عام ٢٠٠٥، وجاء تطويرًا لمشروع السبعينيات الذي وضعتُه بالتعاون مع الدكتور إبراهيم حداد. واضطررنا فيه - لتسويغ عضوية بعض الوزراء - إلى تصنيف مراكز البحوث في صنفين:

يضم الأول مراكز البحوث المتخصصة، وهي تلك التي تقع جميع بحوثها في فرع واحدٍ من فروع العلم، كمركز البحوث الزراعية في وزارة الزراعة، والذي يرأس مجلس إدارته الوزير.

أما الثاني فيضم مراكز البحوث المتعددة التخصصات، كمركز الدراسات والبحوث العلمية، وهي المراكز التي لا تقع جميع تخصصاتها في وزارةٍ ما. ومن ثَمَّ لا

يمكن أن يمثلها وزير، فيمثلها في الهيئة مديرها العام رئيس مجلس إدارتها. وتقع هيئة الطاقة الذرية في هذا الصنف (أي الثاني) لأنها ليست جزءًا من وزارة، فلا يمكن أن تمثَّل في الهيئة بغير مديرها العام الذي هو رئيس مجلس إدارتها.

وعلى هذا نقول: يتألف مجلس الهيئة من رئيس مجلس الوزراء رئيسًا، وينوب عنه لدى غيابه وزير التعليم العالي، وعضوية وزير المالية ورؤساء مجالس إدارة مراكز البحوث المتخصصة (وهم وزراء كوزير الزراعة...) ومراكز البحوث المتعددة التخصصات ورؤساء الجامعات. وقد أُدخل وزير التعليم العالي عضوًا بصفته نائبًا لرئيس المجلس.

إن التأخر الذي أصاب صدور هذا المشروع كان من صنع وزارة التعليم العالي، التي كانت تحاول ضمَّ هيئة البحث العلمي إليها، رغم ما أصاب بنية الوزارة من الترهّل الذي استقر في جامعاتها، إذ حمِّلت أضعاف طاقتها من الطلاب، فلم تتمكن من إقامة فعاليات بحثٍ علميٍّ فيها، ولم تُفِدْ من مديريتَي البحث العلمي والتخطيط المحْدثتين فيها على مستوًى عالٍ منذ إحداث الوزارة، وذلك على الرغم من نقل المجلس الأعلى للعلوم إليها. أما مجلس السياسة العلمية فقد ضُمّت مهامه الرئيسية إلى مهام هيئة البحث العلمي في مشروعنا المطور الذي صدر، كما ذكرت، في عام ٢٠٠٥.

في هذه المدة التي استغرقت أكثر من عام شاركتُ في المؤتمر التربوي لتطوير التعليم العالي والجامعي، ودفعت أهم مشروعات تطوير التعليم الجامعي والعالي التي كنت قد رسمت خطوطها الكبرى في أثناء تسلّمي مهام التعليم العالي في الوزارتين، وأشرت إليها في كلمتي في حفل افتتاح أسبوع العلم السابع.

كان هدفي المستجد في مركز الدراسات والبحوث العلمية وضع الخطوط الكبرى لانطلاقه بأهدافه المرحلية، وأساليب العمل فيه، والربط بينه وبين الجامعات. وحاولت

مدّ بعض الجسور بين المركز والجامعات، فقدمت دراسةً في المؤتمر التربوي بعنوان: "دور الدراسات العليا في قيام مراكز البحوث والجامعات بمهامها"، لعلّ نقاشها مع المستمعين من أساتذة الجامعات يثري الأفكار في مدّ تلك الجسور ويوسّع آفاق التعاون مع الجامعات، إلا أن تساؤلات المستمعين كانت بعيدة جدًّا عن المنحى المفيد.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

أسس إنشاء المركز والعمل فيه

البحث العلمي في سورية

إن تأمُّل أحوال الباحثين قبل تأسيس المركز، وتحليل تصاريف أحوال البحث العلمي على مدى ثلاثة عقود قبل إحداثه، وقراءة تاريخ عقدٍ رابع قبلها في المعهد الطبّي العربي، يقدّم لنا سيرةً موثقةً لتطور حركة البحث العلمي منذ تأسيس التعليم الجامعي في سورية، يمكن بدراستها وتحليلها تجنيب المركز الوقوع في كثيرٍ من الأخطاء والمآزق لاسيما في مراحل تكوينه الأولى، وهو أول مركز بحثٍ علميٍّ متعدد الاختصاصات، يمكن أن يتوسع فيما بعد ليصبح مركز بحثٍ علميٍّ وطنيٍّ شامل.

عدت أتفحّص في ذهني مسيرة الجامعيين في معالجة مسألة البحث العلمي، أين نجحوا، وما هي عوامل النجاح؟ وأين أخفقوا، وما هي أسباب الإخفاق؟

كنّا نطّلع فيما يُعرَض علينا في المجلس الأعلى للعلوم على بعض مسيرتهم؛ ففي كلية الزراعة (وفي وزارة الزراعة أيضًا) كُثّفت جهود المختصين على دراساتٍ منهجيةٍ لتحسين نوعية القطن والقمح ومعالجة بعض أمراضهما وبعض أمراض الزيتون، وتكلّلت جهودهم بالنجاح، وحظيت بدعم الدولة ورعايتها، وتقدير المجتمع.

كذلك قام أساتذة المعهد الطبّي العربي (كلية الطب فيما بعد) بتعريب تعليم الطب فوضعوا المقابلات العربية للمصطلحات الطبيّة الأجنبيّة، وأجروا بحوثًا في الأمراض البيئية المستوطنة فعالجوا مرض "الضنك" في قرية التل (قبل أكثر من سبعة عقود) ونشروا بحوثهم في الدوريات المحكّمة وحاضروا بها في المؤتمرات، وحظوا أيضًا بتقدير المجتمع وتعاطفه ورعاية الدولة، فتعاونا (المجتمع والدولة) في بناء المستشفيات وتجهيزها كمستشفى المواساة...

أما في كلية العلوم فقد قامت فيها محاولات عديدة لتأسيس فعاليات بحثٍ علمي، إلا أنها أخفقت جميعها.

كان فهمنا لشروط نشوء البحث العلمي ونموّه في وطننا غير صحيح. إذ ظلّ أغلبنا يتمسّك بالاختصاص الذي يقع موضوع الدكتوراه التي نالها فيه، ويرفض ممارسة البحث العلمي في غيره، متسائلًا إلى من يقدّم بحثه هنا، ومن سيقدّر قيمته العلمية؟ أما بعد أن تنشأ المختبرات، فإنه سيتابع فيها بحوثه ويكتفي بنشرها في إحدى المجلات المتخصصة في بلاد الغرب، وبإرسال صورة عن البحث منشورًا، إلى عميد الكلية عن طريق رئيس القسم لتحفظ في إضبارته، بعد اطلاعهما الشكلي!

أما ممارسة البحث العلمي في مشكلات البلد فتلك لا ترقى معالجتها إلى مستوى البحث العلمي الذي مارسه في تحضير الدكتوراه، لذلك فهو يرفض إضاعة وقته فيها أيضًا. وإذا شمّر أحد هؤلاء للنزول إلى ساحات تلك المشكلات، فليرفع الجميع أيديهم عنها، ويتركوا له الكشف عن جذورها وتوصيفها في طرحٍ جديدٍ كثيرًا ما يخفق في معالجتها أو يصل فيها إلى نتائج غريبةٍ عن المشكلة التي يعانيها أصحابها.

هكذا نشأت البيئة المواتية لانعزال أغلب أعضاء هيئة التدريس في كلية العلوم عن المجتمع في مشكلاته، والتي مهّدت لتغليف عزلتهم بشيء من التعالي. ولذلك أيضًا فإنهم إذا قاموا بعمل علمي - في اعتباراتهم - لبعض تلك المشكلات والمسائل المحلية، فإن ما يقَدّم مما قاموا به، لا يقبل النقاش مع أصحاب المشكلة أو طارحي المسألة، لاعتقادهم بأن هؤلاء لا يدركون منهجية البحث العلمي وخصائصه التي هي عماد أي نقاش. لقد غاب عن أذهان أولئك الزملاء أن أصحاب المسألة لا يهمهم المنهجية المتَّبَعة، وإنما يهمهم النتائج قبل كل شيء.

ظلّ بعض زملائنا يتمسّك بهذه الرؤية للاختصاص وللبحث العلمي، ويغيِّب عن

ذهنه حقيقة أن الدكتوراه تعني قبل كل شيء امتلاك منهجية البحث العلمي التي يمكنه بها التنقل بين حقول العلم المختلفة حسب ما تقتضيه الحال كظروف الحرب، أو ما يستجد صعوده من فروع العلم كالمعلوماتية...

إن كثيرًا من باحثينا القياديين في المركز قاموا بهذا التنقل بين واحات العلم مستخدمين بكفاءةٍ عاليةٍ منهجية البحث العلمي، وبخاصة أولئك الذين ساهموا معنا في دراسات إستراتيجيات تطوير العلم والتقانة في مشروع إستراتيجية تطوير العلم والتقانة في الوطن العربي.

لقد اعتقد كثيرٌ منّا أن على الدولة إقامة المختبرات المعقّدة المكلفة كالتي أجرينا فيها بحوثنا في البلدان المتقدمة، لننشر نتائج بحوثنا في دورياتهم، فتفخر سورية إذ يقال إن بحوثًا من مستوى رفيع تنجز في مختبرات جامعاتها، أما ثمرات تلك البحوث المكلفة فتجنيها البلدان المتقدمة.

لقد شبّهت ما تؤول إليه نتائج تلك البحوث بسحابة هارون الرشيد في دولته المترامية الأطراف، إذ قال لها أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك. ونحن إذا لم تكن بحوثنا منصبّةً على حل مشكلاتنا فستمطر نتائجها في مختبرات البلدان المتقدمة خيرًا وعلى اقتصادها. لذلك لا يمكن أن ننتظر من دولةٍ ناشئةٍ كسورية الاستجابة لدعوة من يدعو لمتابعة بحوثه التي كانت تجرى في مختبرات الدول المتقدمة، لأن ما يجري هناك من بحوث هي في خدمة المصالح الخاصة لتلك البلدان، والتي لا تلتقي مع مصالحنا إلا في تعلّمنا منهجية البحث العلمي وأساليبه، وعلينا استعمال تلك المنهجية والأساليب في حل المشكلات التي تعانيها البلاد.

وواقع الأمر أن جميع محاولات البحث العلمي التي قامت في الكلية أخفقت لأننا لم ندرك فيها هذه الحقيقة. وعندما قمنا في المجلس الأعلى للعلوم بمحاولة إجراء بحثٍ في

إلكترونيات الطيران لمسنا استجابة القوى الجوية التي كان بالإمكان توسيعها إذا ما قررنا الاستمرار والمتابعة، إلا أن المهندس باسل حقي، أحد أفراد الثلاثية المكلفة بالبحث، كان سيعود إلى أمريكا لدى انتهاء خدمته العسكرية التي كانت قد أصبحت وشيكة.

لقد لاحت في أفق كلية العلوم بوادر عن استعداد الدولة لدعم فعاليّاتٍ محددةٍ لبحوث علمية تطبيقية في الإلكترونيات في عهد الوحدة، وأخرى من قبل، ومن بعد أيضًا. ولكننا لم نستجب لنداء الدولة، وظلّ أغلبنا على فهمه الخاطئ لشروط نشوء البحث العلمي في بلادنا وأضعنا فرصًا ذهبية علينا وعلى البحث العلمي.

إن تفحص أحوال المعنيين بالبحث العلمي، وأنا مقبل على إقامة مشروع بحث علميٍّ وإدارته في مجالٍ واسع، قد يتسع فيشمل العلوم الهندسية والأساسية والاقتصادية والإدارية... وتعرُّف أسباب نجاح بعض تجارب الدراسات العلمية وأسباب إخفاق بعضها الآخر.

أقول: إن تفحص الأحوال وتحليل الأسباب أمر لا بدّ منه لدى الشروع في وضع الأهداف المرحلية واختيار أساليب العمل.

إن أول ما يُستخلص من تأمل أحوال المعنيين بالبحث العلمي، كما وُصف آنفًا يلخَّص في بيئتنا بالمنطلقات الآتية:

١. نجحتْ إقامة فعاليات بحثٍ علميٍّ في كليات العلوم التطبيقية، ككليتي الطب والزراعة ولم تنجح في كلية العلوم (الأساسية)، وذلك لأن مجالات عمل الأولى تقع ضمن بيئة المجتمع بما يعانيه من مشكلات، وهي بيئة تلك الكليات وبيئة عملها. أما الباحث العامل في الثانية، في العلوم الأساسية، فيحتاج للانتقال إلى بيئة المشكلات المحلية، إلى استخدام منهجية البحث العلمي. وتكتسب فرق الباحثين خبرةً ومقدرةً أكبر، إذا ما اتّبع في تأليفها أسلوب الجمع بين الباحثين التطبيقيين المهندسين والأساسيين في مزيج مناسب يضم الخبرة في الظواهر إلى الخبرة في البواطن.

٢. على الباحث زرع الثقة به في نفوس المعنيين بعلمه وعمله، واحترام رأي من يستعين به منهم في معالجة مشكلاته، وتلبية رغباته، وعدم التعالي عليه، وهذا ما يُختصر بالقول: "يجب إرضاء الزبون".

٣. عدم القيام ببحوث نحن نقترحها لمعالجة ما نتصوره من مشكلات، وعلينا الاقتصار على ما يطرح علينا لمعالجته، على الأقل في سنوات عملنا الأولى.

٤. باتِّباع منهجية البحث العلمي، يمكن انتقال الباحث، إلى أي حقل من حقول العلم، إذا اقتضت الضرورة ذلك - كالحرب أو كتصاعد الإقبال على فرع جديد في العلم... - وإن خبرة الباحث في استعمال تلك المنهجية، وسعة قاعدته العلمية ومتانتها، تيسِّران له سبل التنقل باحثًا بين فروع العلم المختلفة.

من هذه المنطلقات المستخلصة، رأيت التمسك منذ بداية عملنا بالثاني منها؛ أي بـ "إرضاء الزبون"، وكذلك رأيت الأخذ بالمنطلق الثالث، لأن قيامنا ببحوثٍ نفرضها نحن على الجهات المعنيّة بعملنا يناقض من جهةٍ، مبدأ إرضاء الزبون بفرضنا عليه ما نراه وعدم اعتماد ما يراه هو من عللٍ وما يشكو منه، ومن جهةٍ أخرى قد يقودنا ذلك إلى التعالي على الجهات الطارحة أي على من فيها من الفنيين. هذان المنطلقان استُقيا من واقع أحوال الباحثين في ممارسة البحث العلمي في الجامعات قبل إنشاء مركز البحوث.

زيارة مختلف الإدارات المراد معالجة مشكلاتها

أما الجهات التي أنشئ المركز لخدمتها فلا تزال حاجتها من البحث العلمي خافيةً عليّ، وما دام قرار تأليف مجلس الإدارة المؤقت لم يصدر بعدُ، فما عليّ إلاّ أن أخصِّص الوقت اللازم لزيارة مختلف الجهات المعنيّة وتعرّف نوعيات مشكلاتها ونوعيات المسؤولين عن طرحها.

كانت هذه الزيارات التي قمت بها مفيدةً جدًّا لي، فمستويات المشكلات مختلفة

اختلافًا كبيرًا، وكذلك كانت مستويات المسؤولين عن طرحها وتوصيفها؛ فبعضهم لا يملك القدرة على توصيفها على وجهٍ صحيح مفيد للباحثين؛ أي إن اللغة المشتركة بين الباحثين والمستفيدين من نتائج البحوث كانت شبه مفقودة. وكان فقدها غالبًا سببًا في إخفاق محاولات بناء نشاطٍ بحثيٍّ قابل للتطور والديمومة، فكان عليّ أن أشرح في جولاتي شرحًا مبسطًا لما يمكن أن يقوم به المركز، وأن أستمع إلى آرائهم ومطالبهم وتصوراتهم عمّا يجب أن نقدمه.

لقد كانت تصوراتهم في كثير من الحالات، إما محلقةً بعيدًا، أو - وهو الغالب - بسيطةً لا تعدو طلب إصلاح بعض الأجهزة المستخدمة، بعيدًا أيضًا عمّا يمكن عدّه مسألة تحتاج إلى تنظيم مشروع بحثٍ علميٍّ لمعالجتها.

ورأيت أن نجاح المركز في مهمته يتوقف على بناء لغةٍ مشتركةٍ وثقةٍ متبادلةٍ بين الباحثين والمستفيدين. وهذا يوجب علينا البدء بمعالجة مشروعات المشكلات البسيطة باستخدام المنهجية العلمية، ليتاح لنا إنجاز مشروعات مطلوبةٍ في مدد قصيرة لا ينفد بانتظار إنجازها صبرُ طارحيها، ولا يتسرب إلى نفوسهم الشك في قدرات الباحثين في المركز.

ويوجب علينا كذلك إقحام فنيين من الجهة الطارحة ليشاركوا باحثي المركز وفنييه العمل فيما طرحوه من مشروعات، واكتساب الخبرة في تطبيق المنهج العلمي في معالجة المشكلات وإيجاد الحلول المناسبة لها، ووضع خصائص توصيفها، وفي وضع الشروط التي يجب أن يحققها الحل المنجز، وبذلك يشرع الطرفان أيضًا في بناء اللغة العلمية الفنيّة المشتركة والثقة المتبادلة.

ذلك هو الأسلوب الذي اتبعه المركز، وتلك كانت خطته لاكتساب ثقة الجهات التي أنشئ لخدمتها، ولبناء اللغة المشتركة بينه وبينها.

واستكمالًا لأسباب نجاحنا توسعنا في مفهوم المبدأ الذي اعتمدناه منذ بداية عملنا فاتخذناه شعارًا، وهو مبدأ "إرضاء الزبون"، فأكدنا أن ذلك لا يعني أن نقدم للجهة الطارحة منجزاتنا قائلين هذا هو الحل (وهو الحل الذي شارك منتدبها الفني زملاءه من المركز في التوصل إليه)، بل نترك لها مع منتدبها الحكم بقبوله أو رفضه، فهم أصحاب المشكلة وعلينا أن نقدم ما ترضى عنه تلك الجهة، وأن يحمل إلينا منتدبُها وجهة نظرها، فنتحرّى أوجهَ الضعف فيما قدمنا، إذ لا يمكن للمركز أن يتابع مسيرته بنجاح إلا بنمو ثقة المجتمع به وتكاثر عدد زبائنه، وخاصة من الجهات التي أنشئ لخدمتها.

وإمعانًا في تنفيذ شعارنا في إرضاء الجهة الطارحة، ولكي نخطو معها خطوات أخرى إلى الأمام، كنا نطلب منها تسمية منتدبها الفنّي من بين الفنيين العاملين في المشروع قبل طرحه على المركز، يقوم بما يطلب منه من عمل مع زملائه العاملين في المركز.

وحفاظًا على جديّة العمل ووتيرة تقدمه، كنا نرفض منتدب الجهة الطارحة إذا تبيَّن لنا من سيرة أيامه الأولى في المشروع عدم صلاحه علميًّا أو فنيًّا أو مسلكيًّا، ونطلب منها بديلًا منه.

يعمل المنتدب مع زملائه من المركز، يناقشهم ويتطوّر معهم وتتوحد اللغة بين فنِّيي المركز وفنِّيي الجهة الطارحة بما ينقله إليها منتدبها، فتنتشر اللغة الموحدة فيها وتتقارب المفاهيم والآراء وتزداد خبرة هؤلاء بإمكانات المركز ومدى ما يمكن أن يحققه من تقدم، وتزداد خبرة المركز والعاملين فيه بمشكلات الزبائن التي تحتاج إلى البحث، وبطبيعة تلك المشكلات، وبأساليب التعبير عنها في تلك الجهات، فيرتفع مستوى المشروعات المطروحة تدريجيًّا.

وشرَعنا في إيفاد مجازين ومهندسين من المركز للتخصص في مختلف فروع المعرفة التقانية والتقنية، لنؤسس بهم وبالتعاون معهم الهيئةَ الفنية في المركز لتقوم بالمهام التي رُسمت لها، وتكون لنا خير عونٍ في اجتياز مرحلة بناء اللغة المشتركة. إلا أن عدد المشروعات المطروحة على المركز، البسيط منها والمعقّد، أخذ بالازدياد بسرعةٍ تفوق وتيرة نموّ المركز.

وقد ظهر – في أثناء العمل في المشروعات – كفاءة بعض المهندسين المنتدبين من الجهات الطارحة الذين امتازوا بسرعة استيعابهم المنهج العلمي المتّبع وبتشوقهم لقيادة العمل في بعض المشروعات، فرأيت الاستعانة بهم لمعالجة البسيط منها وبمن يختارونه من العاملين في تلك الجهات، وتوجيههم بإشراف عامٍّ من المركز وعلى مسؤوليته العلمية والفنيّة.

إن نجاح هذا التدبير أعاننا على كسر حدة تكدّس طلبات الزبائن من جهة، بإعادة معظم المشروعات البسيطة إلى أولئك المهندسين المتدربين الأكفاء، فتعالج في جهاتهم بمن يختارونه من النبهاء فيها وبإشراف المركز. ومن جهة أخرى يشجعنا نجاح هذا التدبير على إنشاء نواة مكتبٍ في كلٍّ من الجهات الطارحة التي يتوفر فيها على الأقل أحد المهندسين الأكفاء، تكون مهمته فيها تنظيم طرح المشروعات على المركز وتوصيفها وانتقاء المشروعات البسيطة ليتولّى معالجتها بإشراف المركز كما ذكرت قبل قليل.

إننا نحقق بهذا الأسلوب هدفين في آن واحد، أولهما معالجة كل ما يقبله المركز من المشروعات، وثانيهما إعداد الكثير من الفنيين في الجهات التي أنشئ المركز لخدمتها، ونشر اللغة العلمية المشتركة في جميع تلك الجهات.

إنه مشروع بعيد المدى غايته رفع السوية الفنيّة: سوية الإدراك العلمي التحليلي

للظواهر والمشكلات لدى الجهات التي أنشئ المركز لخدمتها، ومعالجة البسيط منها.

كانت هذه الخطة في الواقع الأساس في نجاح المركز، إذ انتُدِب إليه عدد من الفنيين من الجهات الطارحة وأحرز معظمهم تقدمًا جيدًا، وحقق المركز تجاوبًا كبيرًا من الجهات الطارحة، كما حظي وخططه بدعم غير محدود من رئيس الجمهورية شخصيًّا ومن معاونيه القريبين من شؤون المركز.

لقد كنت أحظى في سنوات التأسيس الأولى بلقاء الرئيس ثلاث مرات وسطيًّا في السنة، يتعرَّف فيها مشكلاتنا ومدى تقدمنا، وكنت أقدم له التقارير المختصرة والقضايا التي تحتاج إلى قرارٍ منه، والتي لم تكن لتُحلَّ أبدًا لولا رحابة صدره ودعمه للمركز.

ومع ذلك فقد قلت له، في أول لقاء به، بعد صدور قرار تعييني بأيام، أرجو ألّا تسألني عن أيِّ إنجاز قبل ثلاث سنوات. إلا أن المركز، بفضل ذلك الدعم بدأ بتنفيذ بعض الدراسات التطبيقية في أواخر عام ١٩٧٣، وهي وإن كانت بسيطة فإنها نفذت في الجهة المستفيدة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

التصنيع

١. تصنيع المنتجات

يتطلب تنفيذ بعض المشروعات المنجزة لوضعها بين أيدي المستثمرين الانتقال إلى مرحلة التصنيع والإنتاج. وكان رأيي أن إنجازات المركز ستؤدي إلى تطوير الصناعة وتنميتها، لأنها هي التي ستقوم بتصنيع تلك المنجزات، وستتسع حلقات النهضة العلمية التقانية وتتكاثر بتفاعل البحث مع الصناعة.

وهنا أذكر أننا عندما طرحنا تصنيع أول مشروع من منجزات المركز على مؤسسة صناعية متخصصة، أخفقت تلك المؤسسة في تصنيعه، وردَّته إلينا بعد أن قبلته الجهة الطارحة (الزبون) وخصص الرئيس المال لإنتاجه. وعندما دار الحوار حول أسباب الإخفاق قال المسؤولون في هذه المؤسسة: نحن لا يمكن أن نقوم بالتصنيع إلا إذا قدمتم لنا المخططات التكنولوجية.

ولما كانت أهداف المركز القيام بالدراسات والبحوث لمعالجة المشكلات المطروحة، فنحن لا نصنع في مخابرنا وورشاتنا إلا النموذج الذي أُنجزت به معالجة المشكلة، ثم نقدمه إلى الجهة الطارحة لتختبر مدى صلاحه حلًّا للمشكلة التي طرحتها، ونترك لجهات التصنيع – أينما وجدت – القيام بالتصنيع النهائي.

كان هذا التوجه منطلقًا أساسيًّا في فلسفة العمل في المركز؛ وهو أنّ على المركز أن يبقى متخصصًا في البحث العلمي وأن يدفع إلى الصناعة منجزاته لتقوم بإنتاجها، وهو بذلك يدفع الصناعة إلى القيام بتطوير إمكاناتها، كما سنشاركها في حلّ المشكلات الطارئة.

أنجزنا بعد ذلك مشروعًا ذا طابع إلكتروني، فطُلب إلينا تصنيع عدة أجهزة من

النموذج الذي انتهى إليه إنجاز المشروع لتوزَّع على عدة جهات مستفيدة تقوم بتجريبه وتضع تقويمها لأدائه. صُنعت النماذج ووزِّعت، ثم جاءت نتائج التقويم جميعها جيدة، واطلع عليها الرئيس مع بعض صحبه في إحدى المناسبات فأبدى إعجابه.

طُلب إلينا إثر ذلك تصنيع أضعاف ما صنعناه من النماذج، بحجة أننا اكتسبنا الخبرة في تصنيعها وأن القطاع المتخصص بالصناعات الإلكترونية عاجز عن القيام بهذا الدور كما تبين من إخفاقه في تصنيع المشروع السابق. وكنت على وشك أن أرفض الطلب لأن قيام مركز بحوثٍ ناشئٍ بمهام البحث والتطوير والتصنيع أمر خطير جدًّا في بلدٍ في مستوى بلدنا تقانيًّا، وقد لا يؤدي إلا إلى الإخفاق. إلا أن رئيس قسم الإلكترونيات سبقني بالإجابة أن بإمكاننا القيام بذلك العمل، وتم تصنيع الكمية المطلوبة من هذا الجهاز في المركز، ووزِّعت على الجهات المستفيدة التي أبدت ترحيبها وسرورها بما قُدم.

بعد نجاحنا هذا قرر الرئيس تكليفَ المركز إحداث فرع للصناعة في مركز البحوث. وهكذا اضطررنا قبل بلوغ المركز سنته العاشرة إلى إنشاء ذراع التصنيع الذي كان في البداية محصورًا في الإلكترونيات، وعلى أن نوالي بذل المساعي لدى المؤسسات الإنتاجية والتعاون معها لتمكينها من القيام بالتصنيع في المجالات الأخرى.

كُلِّف رئيس قسم الإلكترونيات نفسه، إنشاء الفرع وإدارته، وتولى زميل له إدارة قسم بحوث الإلكترونيات. وهكذا بدأت جهودنا تتوزع بين الصناعة والبحث، ولكننا تابعنا الحرص على احترام شعاراتنا الأساسية وعلى تنفيذها بدقة.

٢. بدايات تنظيم علاقة فرع الصناعة بأقسام البحوث

بعدئذٍ شرعنا بمتابعة مشكلات الصناعة، فأنشأنا في مركز البحوث مخبرًا للتكنولوجيا والتصنيع في كل قسم من أقسامه إلى جانب مخبر للبحوث، وأُوكلت على

مخبر التكنولوجيا والتصنيع المهام الأساسية التالية: أن يكون صلة الوصل بين النموذج الذي يضعه مخبر البحوث في القسم وتقبله الجهة الطارحة وفرع الصناعات الإلكترونية، وأن يقوم بتطوير ذلك النموذج إلى جهاز يتفاعل مع الصناعة وتقاليدها، وسمي ذلك النموذج المطوَّر (النموذج الهندسي).

تمَّ ذلك أيضًا في أوائل الثمانينيات، وكان أول هذه المخابر التكنولوجية هو مخبر التكنولوجيا في قسم الإلكترونيات. وتوجَّه العمل في مخبر التكنولوجيا إلى تطوير النموذج الأولي الذي يقدمه الباحثون إلى نموذج هندسي، ثم تقدمنا فيما بعد باتجاه تطوير هذا النموذج الهندسي إلى نموذج تصنيعي، تتوفّر فيه شروط الجودة والاعتمادية المطلوبة في الصناعة. وأنشئت لجان من فرع الصناعات الإلكترونية وقسم الإلكترونيات بمخابره المختلفة للتنسيق بين الفرع والقسم.

جعلْنا فرع الصناعات مستقلًّا عن قسم الإلكترونيات ليكون التفاعل بينهما شبيهًا بتفاعل المركز مع المؤسسات الصناعية في قطاع الإنتاج المستقل عنا. وأخذت تتضح لنا مطالب تلك المؤسسات في علاقاتنا الأولى معها، الذي كُلف إنشاءه وإدارته أبرز الباحثين في تكنولوجيا الإلكترونيات. وعانينا الكثير في تنظيم العمل بين قسم البحوث وفرع الصناعة.

انتقلنا إذن من دراسات وبحوث إلى دراسات وبحوث وتصنيع. حتى هذه المرحلة التي كانت في بداية الثمانينيات، لم يكن لدينا في الإلكترونيات ما يمكن أن نسميه بحثًا علميًّا أصيلًا فيه ابتكار، فكانت أعمالنا لا تزال تطويرية ولا تتضمن بحوثًا بهذا المعنى.

كنت أعارض القيام بأيِّ بحث علميٍّ لا تفرضه الحاجة الفعلية المؤكدة، خشية الابتعاد عن التطبيق وعن شعارنا الأساسي: (إرضاء الزبون). إلا أن تطور العمل ما بين مخابر التكنولوجيا والفرع أدى أخيرًا إلى اتخاذ قرار بإجراء بعض البحوث التطبيقية كإيجاد خلائط معينة أو إيجاد طرائق للسباكة مناسبة لحالات محددة...

وهكذا بدأت الحاجة إلى إدخال مشروعات بحوث في خططنا السنوية، وكان لدخولها الذي فرضه تقدم المركز أجمل الأثر في نفسي، فهي تحمل دليلًا ساطعًا على المستوى الذي ارتقى إليه المركز.

افتتحنا ضمن فرع الصناعات الإلكترونية تفرعات أخرى للهندسة الميكانيكية والكيميائية ولكن لخدمة الصناعات الإلكترونية فقط، وكانت النتيجة أننا انتقلنا من الدراسات إلى الدراسات التطبيقية والبحوث، ثم إلى التكنولوجيا لخدمة الصناعة، ثم إلى التصنيع.

في السنوات الأولى من الثمانينيات تعاقدت معنا شركةٌ أوربية ذات شأن لنصنِّع لها بعض القطع، فنفَّذنا العقد بنجاح. وكان لهذا النجاح أثرٌ بالغٌ في ثقتنا بأن الجودة والاعتمادية في الصناعات الإلكترونية أصبحتا في مستوى يرضي طموحنا.

وجَّه تقدُّم البحث والتطوير والتصنيع في مجال الإلكترونيات الأنظار في الثمانينيات إلى المركز. وبدأنا نفكر بافتتاح فروع أخرى غير فرع الصناعات الإلكترونية. وهكذا امتد نشاط المركز وانتشرت أنشطته. وتعددت وحدات البحوث ومجموعاتها في القسم الواحد، بل في الشعبة (المخبر) الواحدة، وتداخل تشعيبه ليستوعب التوسع، فارتفعت مهام بعض الشعب أو المخابر إلى مستوى القسم في مهامها، فتطورت الأقسام إلى ما هو أرحب منها، إلى معاهد، فهي أقوى على استيعاب هذه التطورات وأكثر اتساقًا مع البنية التعليمية لمعهد تعليمي إذا ما اضطررنا إلى ذلك، له كيانه المستقل في المركز، وهكذا انتقلنا من الأقسام إلى المعاهد.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا

١. مشكلاتنا مع خريجي جامعاتنا

تعدَّدت مؤشراتُ تطور المركز، منها ما سبقت الإشارة إليه، ومنها أيضًا تغيُّر موقع مستوى خريجي جامعاتنا فيه. فقد كان المركز يسدُّ حاجته من الطاقة العلمية البشرية الفتيّة من خرِّيجي جامعاتنا، وتطورت الأجيال من هؤلاء الشباب الذين عملوا في المركز منذ بدايات إنشائه. ولكن أخذ يظهر مع مرور الزمن أن رضا الباحثين عن الدفعات أو الأجيال الجديدة من الخرّيجين أخذ بالتراجع على الرغم من تزايد التشدُّد في الانتقاء، وأخذت الثغرة بين مستوى خريجي الجامعات ومستوى حاجات المركز تتسع وتتعاظم. فرأينا بعد تقليب وجهات النظر مع الزملاء، ضرورة رفع مستوى الخريج الجامعي، وبدأنا نشكك في إمكان سدِّ حاجة المركز من خريجي جامعاتنا.

عُرض اقتراحٌ برفع مستوى الخريج الجامعي بالتدرُّب ضمن وحدات البحث، إلى مستوى يؤهله لفهم ما يُطرح ومواكبة زملائه في وحدة البحث، والمساهمة معهم تدريجيًّا بالعطاء. إلاّ أن ذلك سيتطلب وقتًا طويلًا، يزداد مع الزمن ويقتطع جزءًا هامًا من سنوات النشاط الفعال للإنسان، الذي يقع بعد التخرج ما بين عمرَيْ ٢٣-٣٥ سنة. وفي كثير من الأحيان لا يصل بعض هؤلاء الخريجين بالتدريب إلى المستوى المناسب، أو أنهم إذا وصلوا إليه، يتوقفون عنده.

٢. بدايات إنشاء المعهد العالي في المركز

لذلك طُرحت علينا مشكلة إيجاد مستويات جديدة مناسبة من الخريجين. فلجأنا في البدء إلى الجامعات نفسها، فأخذنا نعيِّن في المركز طلابًا نختارهم من المتفوقين في

اجتياز مرحلة ما قبل التخصص، أي من الناجحين في امتحانات الانتقال من السنة الثالثة إلى السنة الرابعة في كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية. وأعددنا لهم برنامجًا لترميم معارفهم في بعض العلوم التي لا تكتمل دونها بنية المهندس العلمية، ومنها خاصة، العلوم الأساسية. ولمسنا في نهاية السنة الدراسية أننا أنهكنا الطلاب دون الوصول بهم إلى المستوى المطلوب.

فأخذنا نعيِّن في المركز المتفوقين في الثانوية العلمية من طلاب السنة الأولى في كلية الهندسة، أو من خيرة المنتسبين إلى الكليات المعنيّة، ونقدم لهم تعليمًا إضافيًّا منذ سنتهم الأولى في الجامعة، ويتقاضون رواتب شهرية، ونقدم لهم تسهيلات معيشية أخرى.

وقد وضِعتْ برامج التعليم الإضافية بالتعاون بين أساتذة الجامعة (وبعضهم من مؤسِّسي المركز الذين يعملون فيه)، والباحثين الخبراء. وكانت هذه الإجراءات قاسية جدًّا على الطلاب، فشعرنا بعد سنتين من بدء هذه التجربة بأن إلقاء عبءٍ دراسي على هؤلاء الطلاب مضافًا إلى عبء الساعات التدريسية التي يتلقونها في الجامعة أدى إلى إنهاكهم، وقرَّرنا اعتماد خطة جديدة تأخذ من خطتنا السابقة ضرورةَ رفع مستوى الطلاب في الرياضيات والفيزياء، وأضفنا إليها ضرورةَ إتقان لغة أجنبية واحدة على الأقل، ليساعد ذلك بمجموعه على تكوين مهندسين في فروع العلوم الفيزيائية والكيميائية والرياضية كلها، يكونون قادرين على شغل المواقع الريادية في البحث العلمي في المركز وفي الوطن. وتدارسنا إمكان إحداث شُعَب خاصةٍ في كليات جامعة دمشق وما يتطلبه هذا الإحداث من قرارات جامعية ووزارية.

وصادف قرارُنا هذا مجيءَ لجنةٍ من الفنيين والمهندسين والأساتذة الجامعيين الفرنسيين إلى جامعة دمشق، فاجتمعنا بهم وطرحنا عليهم أفكارنا في إعداد مهندسين رفيعي المستوى في مجالات الفيزياء وتفرعاتها، فرحبوا بالمشروع كثيرًا، وقلنا لهم إننا

نريد إقامة مدرسة للهندسة يتعلم فيها الطلاب على غرار ما يتلقّاه طلابكم في المدارس الفرنسية الكبرى، وبالمقابل نحن على استعداد لتعليم أغلب العلوم باللغة الفرنسية في السنتين الثانية والثالثة، إذ إن على طلابنا إتقان لغة أو لغتين أجنبيتين لكي يتفوقوا.

وتم الاتفاق معهم على تزويدنا بعدد من المدرسين وتقديم مِنَحٍ للطلاب المتفوقين لإكمال دراستهم في مدارس الهندسة الفرنسية شرط نجاحهم في مسابقة الانتقاء دلالةً على تفوقهم. وكانت تُجرى هذه المسابقة لطلاب السنة الدراسية الثالثة في نهايتها، طبق الاتفاق، قبل صدور مرسوم إحداث المعهد العالي، ولاقى نموذج الدراسة هذا نجاحًا كبيرًا جدًّا.

وقبل نهاية السنة الخامسة صدر مرسوم إحداث المعهد، وكان الرئيس شديد الرضا عن هذه التجربة التعليمية، وتساءل: لماذا لا نجعل مدة الدراسة ست سنوات يحصل الطالب في نهايتها على الماجستير؟

إذن فالدوافع التي دفعتنا إلى إنشاء المعهد العالي تتلخص في بروز حاجة المركز إلى خريجين جدد يمتازون بامتلاكهم معرفة علمية هندسية كبيرة وبإتقانهم لغة أجنبية واسعة الانتشار علميًّا أو أكثر، وبامتلاكهم أيضًا مقدرة على الربط بين المعرفة العلمية وطرق استخدامها والحاجة إليها، وبالرضا عن الاستجابة لمتطلبات المجتمع غايةً للبحث العلمي في وطننا. وحرصًا على تحقيق المعهد أهدافه هذه، فقد توليت بنفسي إدارته طوال مدة تأسيسه.

جعلنا مدة الدراسة النظامية فيه للحصول على شهادة الهندسة خمس سنوات، كما هي في كليات الهندسة في جامعاتنا، ليسهل اندماج خرّيجيه من جهةٍ بأوساط الهندسة والمهندسين، ومن جهة أخرى لتسهيل مقارنة نتائج تكوين المهندسين فيه بأمثالهم في الجامعات.

كانت مهمة التعليم في السنة الأولى:

١. رفع مستوى الطلاب الذين جرى انتقاؤهم طلابًا في المعهد، إلى مستوى الناجحين في شهادة التعليم الثانوي في البلدان المتقدمة.

٢. تَعلّم اللغة الفرنسية لتكون لغة رئيسية للتعليم في السنتين الثانية والثالثة، بحيث يتمكن الطلاب من التقدم بها إلى مسابقات المدارس الكبرى.

٣. تَعلّم الطلاب اللغة الإنكليزية مع اللغة الفرنسية، وبُلغوهم فيها مستوى مماثلًا للمستوى الذي بلغوه في اللغة الفرنسية.

وجعلنا تعليم الإجازة في الهندسة في المعهد على مرحلتين، تتألف الأولى منهما من السنوات الثلاث الأولى فيه. أما الثانية فمن السنتين الرابعة والخامسة، ولغة التعليم فيهما هي اللغة العربية. وينتهي التعليم في نهاية السنة الخامسة بحصول الناجح في امتحاناتها على شهادة مهندس في العلوم التطبيقية والتكنولوجيا (التقانة).

أما الناجحون في مسابقات المدارس الكبرى الفرنسية التي تجري عقب صدور نتائج امتحانات السنة الثالثة، أي عقب انتهاء المرحلة الأولى، فيتابعون الدراسة في المرحلة الثانية في المدارس التي نجحوا في مسابقات دخولها، ويحصلون منها في نهاية المرحلة على شهادة الهندسة في الاختصاص المميّز للمدرسة.

سارعنا بتنظيم تعليم مساعدي المهندسين اللغةَ الأجنبية المناسبة، تمهيدًا لإيفادهم لتحسين معارفهم المهنية في مختلف التخصصات اللازمة للمختبرات عامةً، ومختبرات المعهد العالي خاصة، وللحاجة الملحة إليهم في أعمال البناء، فالمركز كله ورشة بناء، كما تتطلب أبنية المعهد العالي التي قام بدراستها الفرنسيون، درايةً خاصة، وتدريبًا كافيًا في المعاهد الفرنسية وورشها.

بدأ الطلاب الدراسة على أيدي أساتذة سوريين باللغة العربية في السنة الأولى

واستعنَّا بعدد من الأساتذة الفرنسيين، بعضهم لتعليم اللغة الفرنسية، وآخرون لتعليم الرياضيات والفيزياء والكيمياء في السنتين الثانية والثالثة. وطلبْنا من زملائنا في المركز التدريسَ في السنتين الرابعة والخامسة باللغة العربية.

ولم ننسَ أن إلقاء المحاضرين محاضراتهم وكتابتها باللغة العربية يشق عليهم، لما سيبذلون من الوقت والجهد لإيجاد المقابلات العربية لكثير من المصطلحات الجديدة على الجامعيين، فجعلنا المكافأة على كتابة محاضرات المادة (المقرر) باللغة العربية سخيّةً ومشجعة.

وأدخلنا في أنظمتنا نصًّا لا يجوز بموجبه ترفيع أي باحثٍ إلى وظيفة مدير بحوث إلا إذا مارس التدريس في المعهد العالي بنجاح، ذلك لأن فلسفة التعليم في المعهد تقوم على تحقيق أهدافه، أي على إعداد مهندسين رياديين في مجالات البحث العلمي. وهذا لا يتحقق على وجه أمثل إلا إذا قام الباحثون في المركز بنصيب من التعليم تتوجه أنظار الطلاب من خلاله إلى العلاقة بين ما يتعلمون وبين البحث العلمي الذي يمارسونه. وبذلك يكون كل من التعليم والتعلّم موجهًا نحو محور البحث العلمي، بل نحو ما يرتبط منه بمشكلات الوطن.

أما العاملون من أعضاء هيئة البحث العلمي في المعهد العالي فعليهم، إلى جانب قيامهم بالتعليم، ممارسة البحث العلمي في الموضوعات التي يحيلها مجلس إدارة المركز على المعهد، مما يراه من خطط البحث فيه. وهكذا يتسق التعليم والبحث في مسيرتهما لتحقيق أهداف المركز.

ولم نَرَ جعل المعهد العالي كيانًا مستقلًا عن المركز، ككلية من كليات الجامعة، لئلا ينحرف عن مساره الصحيح وينتهي إلى مسار كليات الجامعة، البعيدة عن ممارسة البحث العلمي.

٣. الحفاظ على خريجي المعهد

كانت ملامح نجاح المعهد العالي بادية منذ نشأته الأولى التجريبية وقبل إصدار مرسوم إحداثه، وازداد نجاحه وضوحًا، وبسرعة أكبر مما كنا نصبو إليه، منذ أن شغل طلاب المعهد العالي مواقع متقدمة بين زملائهم الأجانب في مرحلة الحصول على شهادة الهندسة. هذا ما شهد به الأساتذة الفرنسيون الذين كُلِّفوا القيام بمهام تدريسية في المعهد العالي أو بمهام انتقاء الطلاب للمدارس العليا الفرنسية. لقد نجح طلابنا في دخول أشهَر المدارس الفرنسية ونجحوا فيها نجاحًا باهرًا وتقدموا مرارًا على زملائهم الفرنسيين.

لذلك كانت مهمة الحفاظ عليهم بعيدًا عن المؤثرات التي تزيِّن لهم هجر وطنهم والاستقرار في البلاد التي عاشوا فيها طلابًا، مهمة صعبةً في أيامنا هذه. كان أهم ما يجب اتخاذه تقسيم الدراسة إلى مرحلتين، مرحلة الحصول على شهادة الهندسة، والمرحلة الثانية هي مرحلة الإيفاد للحصول على الدكتوراه.

ورأيت أن عودة الطالب إلى وطنه بعد إنهاء المرحلة الأولى ضرورية لئلا نيسّر له بوصل المرحلتين التأقلم على الاغتراب، فجعلنا على الطالب قضاء سنةٍ في المركز بعد إنهاء المرحلة الأولى بحصوله على شهادة الهندسة.

في هذه السنة ينهي المرحلة الأساسية من الخدمة الإلزامية في المركز، وهذا ما لا يتيسر له في وقت آخر، ويُعِدّ نفسه للإيفاد للحصول على الدكتوراه، والزواج من مواطنة هو أهم ما في إعداد نفسه، لأنه يزيد من ارتباطه بوطنه.

أما اتصال المرحلتين، أي بقاء الموفد بعيدًا عن وطنه سبع سنوات على الأقل للحصول على شهادتي الهندسة والدكتوراه، في هذه السنوات الصعبة من العمر فسيسهل عليه الزواج من أجنبية والاستقرار معها بعيدًا عن وطنه. وكذلك بالنسبة للطالبة، إنه يتيح لها فرصة الزواج وهي في مقتبل العمر.

ويَسَّرْنا زواج العاملين في المركز من العاملات فيه، واتخذنا تدابير تشجيعية عليه، كتيسير السكن في المركز لهما وتخصيصهما بسكن استثناءً من القواعد، وإيفادهما معًا إذا استحق أحدهما الإيفاد فيتاح لأحدهما تحسين خبرته في مجال يحدَّد له على صلةٍ بعمله.

إن نجاح المعهد العالي في دمشق جعلني أفكر في إنشاء فروع له في المدن الكبرى التي فيها جامعات عريقة. ذلك لأن المعهد في دمشق حرَّك الوسط العلمي فيها، في جامعة دمشق وفي مؤسسات القطاع العام، فشغل منذ العشر الأول من هذا القرن بعض أطره مفاصل بعض الفعّاليات التدريسية في الجامعة، ككلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية وكلية العلوم، وخاصةً في كلية الهندسة المعلوماتية، وفي الجامعة السورية الافتراضية، كما احتلّ أحد خريجي المعهد العالي منصب نائب رئيس جامعة دمشق.

إن تفاعل المعهد والعاملين فيه مع العاملين في الكليات الجامعية وطلابها يؤدي إلى تطوير أطر التعليم في الجامعات بتعاونهم مع زملائهم من المركز الذين يحملون من أساليب التعليم ما نشأ وتطور في بيئة البحث العلمي في مشكلات الوطن، ويؤثّر إيجابًا في التعليم الجامعي وطلابه. هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى، فإن الاستفادة من الطاقة البشرية السورية تتحسن لتحسن الشروط البيئية الاجتماعية للأفراد المؤهلين لدخول المعهد والعمل في المركز من أبناء المدينة وما حولها. ويمكن جعل اختصاصات الفروع مختلفةً عن اختصاصات المعهد الأصل في دمشق ومتكاملة معه.

أُنشئ فرع للمعهد في حلب، وجامعتُها هي أعرق الجامعات بعد جامعة دمشق، وحلب هي ثانية المدن السورية سكانًا وعمرانًا، وقد جرى من التفاعل بين فرع المعهد في حلب وبين جامعتها ما يشبه ما جرى بين المعهد العالي في دمشق والأوساط العلمية في دمشق وجامعتها خاصة. وقد امتدّ تفاعل المعهد والمركز ومَن عمل فيهما من الأطر الجامعية، إلى الجامعات الخاصة منذ بدايات هذا القرن.

٤ . تنوع التعليم العالي في سورية

ومما يمكن أن يُطرح الآن بعد أن حقَّق المعهد العالي هذه المهام هو: كيف يجب أن نتابع؟ يمكن التفكير دائمًا في أن هذه الصورة الجديدة للدراسة المتقدمة في سورية يجب أن تنتشر حيث تدعو الحاجة، وفي جميع الاختصاصات.

وهذا يقودنا إلى التفكير في واقع التعليم العالي في بلدنا ونقارنه بأمثاله في البلدان الأخرى: ففي البلدان المتقدمة أنواع من التعليم العالي. لدى الفرنسيين مثلًا مدارس الهندسة والجامعات ولكل منهما أسلوبه ومهامه وغاياته، ومثل ذلك يقال عنه في روسيا والمملكة المتحدة...

إن نجاح تجربتنا في المعهد العالي دفعنا إلى العودة للتفكير في التعليم في سورية، وفي ضرورة تنويع مستوياته وتوجهاته كما هو الحال في فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة وروسيا. في هذه البلاد جميعها توجهاتٌ للتعليم العالي تنبع من فلسفة واحدة، ولكن الخدمات التي يقدمها ومستواها ونوعيتها تختلف باختلاف ما تحتاج إليه البلاد.

فمثلًا كان في الاتحاد السوفيتي (سابقًا) معاهد عليا لا يدخلها إلا الطلاب المتقدمون جدًّا في التعليم الثانوي. وبعض تلك المعاهد، كما يذكر خريجو مدارس وجامعات الاتحاد السوفيتي، يمتنع دخولها على الأجانب. ثم هناك جامعات ومعاهد تستوعب جمهرة الشباب المتعطش لتعليمٍ عالٍ يناسب كفاءاتهم وتحتاج إليه البلاد.

لماذا إذن لا يكون في سورية إلا نوع واحد من التعليم العالي هو النوع الذي تقدمه الجامعات، وهو نموذج واحد في الجامعات الأربع، وإن اختلف قليلًا فلا تتعدى أوجه الاختلاف الحدود التي ترسمها نوعية أعضاء هيئة التدريس، وخبراتهم وطبيعة الدراسة التي قاموا بها في البلاد الأجنبية، والجامعات التي درسوا فيها. ولا يمكن القول إن هذا التعليم الموحد يستجيب حقًّا لجميع حاجات الوطن.

يجب إذن إيجاد أنواع مختلفة من التعليم العالي، كلٌّ منها يُوجَّه لخدمة غايات محددة. فالمعهد العالي وُجِّه لخدمة غايات محددة في البحث والتطوير ونجح فيها، ولكن ليست الجهات التي أنشئ مركز البحوث لخدمتها هي الجهات الوحيدة في الوطن التي تتطلب ذلك، ولا بد أن جهات أخرى فيه تحتاج إلى نوعية مختلفة غير تلك الموجودة في الجامعات.

لقد لجأت وزارة الكهرباء إلى المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا لإعداد مهندسين للعمل في مشروعٍ لإقامة مفاعلٍ لتوليد الطاقة، إلا أن المشروع توقَّف. كذلك شاركت فيما بعد هيئة الطاقة الذرية - ولا تزال - في إعداد أطرها العليا المتخصصة في المعهد العالي؛ أي إن المعهد العالي يوالي سدَّ حاجات الوطن في قطاعات مختلفة.

وهكذا يمكن القول من هذا العرض إن المعهد العالي قام بكفاءة بالمهام التي أُنيطت به. ولنذكِّر أخيرًا بأن جميع تجارب العناية باللغات الأجنبية في التعليم العالي لم تنجح على الإطلاق باستثناء تجربتنا في المعهد العالي، فقد ارتبط الإيفاد لإتمام الدراسة في مدارس مرموقة بالنجاح في المسابقات التي تجريها تلك المدارس بلغتها، وهيأ المعهد للطلاب كلَّ الظروف لمن يريد منهم النجاح.

لقد أوليت اللغة العربية عنايةً خاصة، فأنشئ في المعهد العالي وحدة بحوثٍ في اللغة العربية قامت ببحوث قيّمة في تحقيق وتحليل مخطوطات التراث العربي الإسلامي في التعمية، إضافةً إلى بحوث ودراسات في تطبيقات المعلوماتية على اللغة العربية.

ونظرًا لإخفاق تعليم اللغات الأجنبية في المعاهد والكليات الجامعية السورية، ونجاح الطلاب الأطباء بجهودهم الشخصية الفردية في تعلّمها طلبًا لقبولهم في الجامعات الأجنبية للتخصص، فقد رُبط إيفاد طلاب المعهد العالي للدراسة، بالنجاح

في مسابقات دخول تلك المدارس أو الجامعات وهُيئت لهم ظروف النجاح في تعلّم اللغة الأجنبية بالتدريب على سماعها في الدرس واستخدامها على وجهٍ حسنٍ يشهد لهم فيه نجاحهم في امتحانات المعهد العالي، ثم في مسابقات دخول مدارس الهندسة الكبرى ودخول بعضهم الجامعات البريطانية.

لذلك توسعنا في تعليم اللغات الأجنبية، فأقمنا دورات طويلة لتعليم لغات البلدان التي أصبح لنا فيها ومعها علاقات ثقافية كاليابان التي قدمت لنا معونات تقانية وتقنية وعلمية في التصوير والمعايرة، وقدمت لنا منحًا للتعليم والتدريب في مجالات معوناتها المذكورة. وكذلك استجابت لطلبنا المعونة في تعليم اللغة اليابانية انطلاقًا من حاجة الموفدين لها في التفاهم مع أبناء الشعب، وإن كان التعليم والتدريب سيجريان بالإنكليزية. وكان في خطتنا إقامة دورات تعليم الإسبانية ولغاتٍ أخرى...

كانت الغاية من المعهد، كما ذكرت، هي تكوين الروّاد من المهندسين في البحث العلمي. بعد تحقق هذه الغاية في التخصصات الرئيسيّة في معالجة ما يطرح على المركز من مشكلات، توجّه الاهتمام إلى تشكيل الأطر في التخصصات الهامة الأخرى، وإلى تطوير معارف أطر المركز وتحديثها المستمر... والعناية بأساليب اكتساب التقانة (التكنولوجيا).

٥. الإدارة في المركز والمعهد العالي

كانت الإدارة هي أكثر تلك التخصصات إلحاحًا وتأثيرًا في تقدم المركز. وكانت الحاجة إلى تطوير الإدارة ماثلة في ذهني منذ تأسيس وزارة التعليم العالي، فسارعت مع الخطوات الأولى في إنشاء المركز إلى معالجة هذه المشكلة فأحدثنا قسمًا للإدارة والاقتصاد، وكان إحداثه في تلك المرحلة المبكرة موضع تساؤل.

وكنا على يقين بأن تقدم المركز في تحقيق مهامه في البحوث سيتوقف أو يضطرب ويتباطأ إذا لم تواكبه إدارة متطورة يقوم عليها إداريون أكفاء يحسنون الربط بين البحث

العلمي والصناعة والتعليم، ويعِدّون البيئة المناسبة لتنميتها جميعًا، ويتعهدونها بالتطوير والتحديث وبمواءمة حاجات الوطن. وهذه مهمة شاقة يتطلب النجاح في تحقيقها خبرات متطورة للتأليف بينها وتنسيق أنشطتها.

لذلك حاولنا تدارك مخاطر الوقوع في المأزق بإحداث قسم للإدارة والاقتصاد وعيّن الدكتور أديب كولو الذي حصل على الدكتوراه من بلجيكا، وبقيت فيها أطروحته في بحوث العمليات "التقانة الكمية في الإدارة" مرجعًا عدة سنوات. ثم عُيِّن الدكتور عدنان وديع الذي حصل على دكتوراه في الاقتصاد من فرنسا، وكان موضوع أطروحته "تخطيط التعليم العالي وإدارة الثروة البشرية في سورية"، وتألفت منهما فيما بعد مع الدكتور عمر البزري والدكتور باسيل خوري وحدة السياسات العلمية والتقانية في المركز، التي كلَّفتُها القيام بمهام أمانة لجنة إستراتيجية تطوير العلوم التي ألَّفتْها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لوضع إستراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي، وشرفتني برئاستها.

لقد كان لهذه الوحدة فضل كبير في نجاحنا في وضع الإستراتيجية، وقدمتْ بذلك مؤشرات إيجابية على دور الإدارة وبحوثها في تطوير أنشطة البحث العلمي من خلال فهم البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها البحث العلمي.

قمنا أيضًا بتعيين أوائل الخريجين من كلية الحقوق ومن كليتي الاقتصاد والتجارة في دمشق وحلب، وأوفدناهم للحصول على الدكتوراه في مواضيع مختلفة في مجال الإدارة كإدارة البحث العلمي وإدارة الثروة البشرية وتخطيط البحث العلمي وتمويله... إلا أننا لم نجنِ تطويرًا ملموسًا للإدارة في المركز بعد مرور أكثر من عقد من الزمن على بدء عودتهم إلى الوطن وتكليفهم العمل في مجالات إدارية متنوعة. هذا الواقع رسّخ لديّ الرأي بأننا في مجال الإدارة أيضًا أشد حاجةً إلى تطوير مستوى الدرجة الجامعية الأولى منا إلى تطوير مستواها في العلوم والهندسة.

ولما كانت فعاليات المركز الإدارية هي مخبر الإداريين، وكانت ممارسة العمل فيها هي مشروعات بحوثهم، فقد بدأنا بإعداد طلاب المعهد العالي للإدارة بعد السنة الثالثة، ليكون ما تعلموه من لغات أجنبية ورياضيات وفيزياء وكيمياء زادَهم لمستقبل دراستهم في الإدارة، وليكون ما تعلموه من الفيزياء والكيمياء وغيرهما جزءًا من خصائص ومميزات البيئة التي سيعملون ضمنها في المركز بعد عودتهم من الإيفاد.

لقد أحرز هؤلاء الشباب بعد عودتهم من الإيفاد نجاحًا محدودًا في بعض مشروعات البحوث، نجاحًا لا يماثل ما أحرزه زملاؤهم في العلوم الأساسية والتطبيقية، فلم يرضَ عنه زملاؤنا في معاهد البحوث، وكنت بما استقرّ في نفسي من الانطباعات، إلى جانبهم في الرأي. ثم أمكن فيما بعد أن نفسر أسباب النجاح المحدود، وعدم تحقيق تقدُّم في الإدارة يواكب ما حققه المركز من تقدم في البحث العلمي الأساسي والتطبيقي.

كنت أفسر ذلك كما يلي: إن قوانين العلوم الطبيعية واحدة لا تتغير من مكان إلى مكان، فقوانين نيوتن في الميكانيك هي ذاتها سواء جرى تطبيقها في القطب أو في أواسط إفريقية أو في أوربا أو في أي مكان آخر. فالمختص والمهندس في العلوم الأساسية والتطبيقية لن يواجه أية صعوبة، إذا ما توفرت له الوسائل، في إجراء بحوث في العلوم التطبيقية والأساسية، وستُجرى كما تجرى في البلدان الغربية، إذا ما توفرت التجهيزات والبيئة العلمية المناسبة. أما البيئة الاجتماعية فلا تؤثر في قوانين الطبيعة هذه، وأما قوانين العلوم الإنسانية فهي حسب اعتقادي قوانين عامة ينجح تطبيقها في كل مكان كقوانين العلوم الطبيعية على أن تستكمل جميع الشروط التي يستكملها القانون، وأدقها هنا في العلوم الإنسانية، الإنسان والبيئة الاجتماعية وهي تختلف من مكانٍ إلى أخر، ومن مجتمعٍ إلى آخر، ومن زمانٍ أيضًا إلى آخر... هذا من جهةٍ، ومن

جهةٍ أخرى، فقد لمستُ لدى كثير من الذين أنهوا دراساتهم الجامعية في أوربا بنجاح، على مستوى الإجازة أو مستويات الدبلوم والدكتوراه في الإدارة، ترديدًا للأعذار التي أدت إلى عزلة زملائنا من قبل في الجامعة عن بيئة ممارسة البحث العلمي، وغلَّفت عزلتهم بغلافٍ من التعالي على المشكلات الإدارية للمركز والوطن بحججٍ واهيةٍ كالادّعاء بأنها مشكلاتٍ متدنِّية كثيرًا عن مستوى ما عالجوه في أوربا، وهم لا يجدون مسوِّغًا لإضاعة أوقاتهم فيها.

وواقع الأمر أن الدراسة المتأنية لهذه المشكلات الصغيرة وتحليل أسبابها تقود إلى جلاء الغموض ومعرفة العلل والتوصل إلى معالجتها، وإن تراكم الخبرة في معالجة هذه المستويات من المشكلات، يقود حتمًا إلى معالجة المشكلات المعقدة بكفاءة لا تتوفر في التصدي لها مباشرةً دون المرور بتلك التي كانت "تافهةً" لدى الكثير منهم.

إن تقدير هذه العناصر في الإدارة، بوعيٍ وإتقانٍ، شرطٌ أساسيٌّ لنجاح تطبيق قوانينها. وهذا يوجب أن يكون الإداري من الذكاء والفطنة والمقدرة في مستوى يمكنه من دراسة وفهم البيئة الاجتماعية في الوسط الذي يدير فيه فعاليةً ما، وإدخال خلاصة دراسته في منهج إدارته.

أما إسقاط هذه الدراسة وإهمال تأثير الإنسان والبيئة الاجتماعية في الإدارة فدليلان قاطعان على عدم الكفاءة في الإدارة وعدم فهم قوانينها، وعلى حتمية الإخفاق. لذلك يمكن القول إن انتظارنا النجاح في الإدارة بالسرعة التي حققناها في العلوم التطبيقية والأساسية لم يكن موضوعيًّا، وسيقضي الإداريون الشباب الوقت الذي يحتاجه كل منهم للقيام بدراسة البيئة الاجتماعية وفهم آليات تأثيرها على النجاح في العمل الإداري.

لذلك كان لا بد من المعاناة مع العاملين في مجال الاقتصاد والإدارة، معاناة

القائمين على إدارة المركز والعائدين من الإيفاد للتخصص في الإدارة، والعمل معًا على اكتشاف الطريق إلى النجاح، والتسليم بأن الطريق إليه أطول مما كنا نتصور، وأن بعضنا قد يضل الطريق إذا ما ضل في متاهات البيئة الاجتماعية أو حاول تجنبها.

عندما تركت المركز لم تكن هذه المعاناة قد انتهت ولن تنتهي، فهذه سُنَّة التطور المستمر والتقدم، إلا أنها في طريقها الصحيح. وها هو تطوير الإدارة في سورية يعتمد بشكل أساسي على خريجي الإدارة والمعلوميات في المعهد العالي خاصة، وعلى أطر مركز الدراسات والبحوث العلمية في هذه التخصصات بوجه عام. هؤلاء سيمارسون العمل في المجال الذي كُلِّفوا القيام به وينمّون خبراتهم ويقدمون لوطنهم إنجازات كبيرة مع الزمن، هذا ما أعتقده.

٦. التعليم والتعلُّم المستمرّان في المعهد العالي

بادر المعهد العالي بتنسيق مع إدارة المركز بمدّ الجسور في بنيته التعليمية إلى التخصصات الأخرى خارج تشعُّبات أسرة الإلكترونيات والاتصالات والمعلوماتية، واستعان لذلك ببنى التكوين المستمر، فأنشأ دبلومات في الإدارة والميكانيك، أملت الحاجةُ مكوناتِها، وذلك ريثما ينتقل منهما إلى مستوى الإجازة بعد تحديد التوجهات فيما بعد بدقة مع إدارة المركز، وعندئذٍ يعاد النظر جذريًّا في مكوناتهما، ويدخلان مستوى دبلومات الدراسات العليا.

إن وضوح الأهداف في مجال الإلكترونيات، وحاجات المركز الملحّة فيها، أملت تخصصات المرحلة الثانية من الإجازة فكان تخصُّص هندسة المعلوميات، وتخصُّص هندسة النظم الإلكترونية، وأُتبع هذان التخصُّصان من مستوى الإجازة بدبلومَيْ دراساتٍ عليا، أحدهما في المعلوميات والآخر في الاتصالات ومعالجة الإشارة، ولن يتوقف توّسعة وتطوره.

تتكامل المراحل التعليمية في المعهد بتنظيم البحث العلمي، وتحديد الأسلوب الذي يجب اتِّباعه في المعهد للحصول على الدكتوراه. إن تنظيم هذه المرحلة سيجعلنا أقدر على اختيار الأسلوب الأنسب لتحضير الدكتوراه لدينا، وعلى تطويره بتطور قدراتنا ووضوح رؤيتنا لتنظيم هذه المرحلة. إن الخبرة التي سنكتسبها ستُستخدم أيضًا في اختيار موضوعات الدكتوراه في مختلف مراحل الوصول إلى التنظيم المستهدف.

استقر الرأي على اعتماد أسلوب تحضير الدكتوراه بتعاون المعهد العالي مع جامعات غربيّة مشهود لها في أوساطنا العلمية بالخبرة وبعلوّ المستوى العلمي، بحيث يسمَّى في تحضير الدكتوراه مشرفٌ على الطالب في الجامعة الغربية المختارة، ومشرفٌ في المعهد العالي. وهذا تدبير معتاد في جميع حالات تحضير الدكتوراه بالتعاون بين مؤسستين علميتين. إلا أننا أضفنا إليه الخطوات التالية:

- يتفق المشرفان على موضوع الدكتوراه ويُتخذ القرار النهائي بعد اطلاع المشرفَين في اجتماع في مختبر أحدهما يقدران فيه ما يجب توفيره من التجهيزات في كلٍّ من المختبرَين (وهذا يعني فعلًا في مختبر المشرف السوري في المعهد).

- يتابع تنفيذ البرنامج المتفق عليه بالاتصالات وبزيارة المشرفين أو أحدهما سنويًّا، وعلى ألاّ تقل زيارات المشرف الغربي عن زيارة واحدة للمختبر في المعهد في أثناء عمل الطالب فيه، يناقش مع مشرف المعهد والطالب الصعوبات التي تعترض تنفيذ البرنامج ومستوى إنجاز الطالب وتوجيهه، كما يستقبل المختبر الغربي المشرف السوري، ويكون الطالب قد انتقل إليه، وفيه تجري من المناقشات مثل ما جرى منها في دمشق، وتستمر الزيارات سنويًّا إلى أن يتفق الطرفان على قبول البحث مكتملًا.

- يتولى المعهد الإنفاق على سفر المشرفين وإقامتهما إضافة إلى نفقات إيفاد الطالب.

ويُنتظر اكتساب المشرفِين من المعهد خبرة كبيرة وثمينة متعددة الوجوه، أهمُّها أن

المشرف من المعهد سيتاح له الاطلاع على تطورات البحث العلمي سنويًّا في جامعة متقدمة، ويكتسب خبرة في إدارة مشروعات البحوث عامةً، والدكتوراه خاصة.

أما ما يجنيه المعهد والمركز من فوائد فعديدة أيضًا، أهمُّها توجيه موضوعات الدكتوراه لمصلحتنا قدر المستطاع، وتطوير مستوى مختبراتنا إلى مستوى المختبرات النظيرة في الجامعات الغربية المتقدمة. ثم إنَّ الخبرات التي يكتسبها المشرفون في تنظيم البحث العلمي عمومًا، وبحوث الدكتوراه وتطويرها خصوصًا، وتنويع محتواها ومستواها وتوجهها جِدُّ ثمينة.

يضاف إلى ذلك إغناء الخبرات التنظيمية التعليمية نظريًّا وتطبيقيًّا. ولا ننسى أن أثر هذا الأسلوب قويٌّ وهام جدًّا على شخصية الطالب، وذلك لأن اعتماد الطالب في هذا الأسلوب على نفسه أكبر منه في الطالب الموفد للحصول على الدكتوراه كل الوقت. إن وضعه كوضع المعيد في الجامعات الغربية الذي يقوم بواجباته الوظيفية إلى جانب قيامه ببحوث الدكتوراه.

هذا التنظيم في صورته التي ذكرت طُبِّق مع بعض المدارس والجامعات الفرنسية، إلا أننا طبقنا فيها وفي جامعاتٍ أوربية أخرى النظام التقليدي الذي أشرت إليه، والذي لا يشترط الزيارات وتنظيمها المذكور. ولقد كان الدكتور مروان زبيبي أول الحاصلين على الدكتوراه بالتعاون (بالأسلوب التقليدي) ويتمتع الدكتور زبيبي بشخصيةٍ قويةٍ زادها هذا الأسلوب في تحضير الدكتوراه قوةً كما ذكرت قبل قليل.

أما التعليم المستمر فسيكون على وجوهٍ مختلفةٍ يستجيب كلٌّ منها لبعض حاجات المركز. ما جرى تطبيقه منها هو الأشدّ تلبيةً لحاجةٍ ملحّةٍ طارئةٍ كالطاقة الشمسية، إذ نُظِّمت دورات طويلة مدتها سنة دراسية، قُبل فيها مهندسون أدّوا خدمات مؤقتةً في المركز، وقاموا بما كُلِّفوا به من أعمالٍ على وجهٍ مرضٍ ولكنهم تخرجوا من الجامعة

بتقدير مقبول، وهو تقدير لا يسمح بتعيينهم في المركز، إلا أن القواعد المعمول بها فيه تسمح بتعيين الحاصل على دبلوم تخصص بعد الإجازة مهما كان تقدير نجاحه في الإجازة.

هذه القاعدة أتاحت لنا الاحتفاظ بأولئك المهندسين شريطة نجاحهم في الدبلوم بتقدير جيد. لذلك استكمل برنامج الدورة بما يعادل برنامج دبلومٍ لدينا، أما الذين حصلوا على هذا الدبلوم من العاملين في المركز، وهم جميعًا من الحائزين تقدير جيد، فيستحقون على نجاحهم في الدبلوم زيادةً في الراتب الشهري تحدِّدها الأنظمة. مثل ذلك اتبع لتشجيع العاملين على النجاح في دورة في المعلوميات (المعلوماتية).

إن اتباع هذا الأسلوب أعطى نتائج مشجِّعة للعاملين وللمركز، فكان من المقرر أن يُتَّبع هذا الأسلوب في جميع دورات التعليم المستمر فيعلن مع موعد الدورة، برنامجها ودرجة أهميتها في الحصول على دبلوم، وحيازة خصائصه المعنوية والمادية. وسيؤخذ بالحسبان حتمًا تناسق توجّه الدورات المتَّبعة، وسيذكر في الإعلان مواصفات المعنيين باتِّباعها، وسيطبق هذا الأسلوب أيضًا على متّبعي الدورات التدريبية بما يناسب محتوى الدورات ومستواها.

وقد نُظِّمت دورات تدريبية في التصوير نظمها وأشرف على تنفيذها قتيبة الشهابي، تطورت أهدافها واتَّسعت مجالاتها مع اليابان، كما اتسعت مجالات التدريب عامةً ودخلت مع اليابان تقانات وتقنيات المعايرة والمعايير، وأُولِيَ أعضاء الهيئة المخبرية في مختلف مجالات التدريب عنايةً خاصة، فأوفد بعضهم لاستكمال تدريبه وتحسينه.

وفي مسيرة المعهد هذه، الممتلئة بالتجديد والتطور، ما يكفي للدلالة على نجاحه وعلى استمرار تطوره. ويمكن أن أقيس نجاح المعهد العالي بطريقة أخرى أيضًا: أولًا، بنجاح أطره في دفع تقدم مركز الدراسات والبحوث العلمية، ذلك التقدم الذي يمكن تلمّسه في ارتفاع مستوى البحوث والإنجاز الذي تم. وثانيًا، بانتشار هذه الأطر

وتجاوبها مع حاجات البلد، فنحن نعلم أن أطر الوطن العليا في المعلوميات نشأت في مركز الدراسات والبحوث العلمية أو في المعهد العالي على وجه الدقة.

فقد قدّم المركز والمعهد العالي حتى عام ٢٠٠١ زهاء ٩٠٪ من حملة الدكتوراه في المعلوميات في سورية، وبادر إلى الاهتمام بهذا الاختصاص وتولى إعداد المهندسين فيه. هؤلاء هم الذين قادوا تطوير المعلوميات واستخدامها في سورية في العقد الأول من هذا القرن. ولا يزالون في موقع القيادة، سواء في التعليم أو في الأعمال المتقدمة في الوزارات والمؤسسات العامة أو في القطاع الخاص.

إذا أعيد التساؤل عن مدى قيام المعهد العالي بالدور الذي كنا ننتظره أو الذي كُلِّف القيام به، فالجواب هو نعم بالتأكيد. لقد قام المعهد العالي بذلك، وهو أهلٌ لأن يقوم بمهام أخرى من هذا المستوى أو أعلى.

٧. مع المتقدمين من الطلاب لدخول المعهد العالي

كنت ألتقي الطلابَ الراغبين في الانتساب إلى المعهد مع ذويهم بُعيد إعلان نتائج النجاح في الثانوية العامة، وكنت أحدثُّهم عن مستقبل الطلاب المنتسبين للمعهد قائلًا: "الهدف الأساسيّ للمعهد هو إعداد المهندسين الروّاد في البحث العلمي. والمعهد يُعِدُّ لهم جميع شروط النجاح بدءًا من التعليم الذي يعتمد على إتقان اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وعلى تعليمٍ من مستوى التعليم في البلدان المتقدمة كفرنسا، بالتعاون مع مدرِّسين فرنسيين لضبط المستوى، فيشترك طلابنا في مسابقات دخول مدارس الهندسة الكبرى، ويوفد الناجح في المسابقة إلى المدرسة التي نجح فيها.

بعد حصول الطالب على الدكتوراه يعين باحثًا في المركز، ويهيِّئ له المركز الوسائل العلمية من مختبرات ومراجع ودوريات ليتابع بحوثه فيه على أحسن وجه. ويهيِّئ له المركز أيضًا البيئة المواتية التي تساعده على الانصراف للعلم. وأركان تلك البيئة

الأساسية، دخلٌ شهريٌّ مناسب، وتأمينٌ صحي جيد له ولأسرته، وسكنٌ مناسب أيضًا، يدفع كلفته تقسيطًا طويل الأجل... وهذا ما يمكن تلمّسه بدقة، بالتوجه إلى بعض من سبق من الباحثين في المركز. لا يَعِدُ المركز المنتسبين إلى المعهد بالغنى، ولكن يعدهم بحياة مريحةٍ لهم ولأسرهم، وبكل ما يروي تعطّشهم للعلم وللإبداع".

هذا ما كنت أقوله لهم وأستهلُّ به كلَّ عام مواعيد التسجيل في المعهد. كل ما أقوله صحيح، أسهر على تنفيذه بدقة وصدق واستقامة، ساعدني على ذلك إيمان الرئيس شخصيًّا بضرورة دعم المركز وتطويره، حتى إني كنت ألمس منه في بعض الأحيان تشجيعًا واندفاعًا يتجاوز بهما طموحي في المركز.

٨. التعليم والبحث، تحدّيات وتجدّدٌ مستمرّ

أحبُّ التعليم لأنني أشعر بالحرّية في آفاقه الرحبة، حرّية الفكر وحرّية الكلمة في آفاق المادة العلمية التي أجوب سهولها الخصبة وسهوب فلواتها وأغوص في أعماقها، ومهما أمعنت في الغوص، لا أدرك للفكر حدودًا، لأن حدود المعرفة لا تحدّ حرية الفكر بل تحثّ المعرفةُ الفكرَ على التوسع. حدودها هي دعوة للتحدّي، دعوة للبحث عن الحقيقة في الأعماق، فيما وراء تلك الحدود. إنها تحدٍّ لدفع حدود المعرفة وتوسيع آفاقها.

لن ندرك مكامن الحقيقة، ولن يبلغها الخَلَف، يكفي المتقصّي في الكشف عنها أن يتقدم، أن يتقدم خطوات في الطريق إليها، وقد يكتفي إذا ما خشي الضياع، بوضع مَن يخلفه في البحث عنها على جادة الطريق، ويسمِّي ما توصل إليه وما أجمع عليه أمثالُه الحقيقةَ المعاصرة أو الحالية أو المؤقتة، وقد يوفَّق في رسم معالم ما اتضح له من الطريق.

في التعليم أشعر بالتحدّي، تحدٍّ في طريق الكشف عن الحقيقة العلميّة في كيانها المعرفي المعاصر، الكشف عنها لطالب المعرفة، لطلابنا في الجامعات، وتقديمها لهم على وجهٍ يقرّبها من أذهانهم وينقل إليهم ما أشعر به من متعة السير في طريق الكشف عن

عظمة الكون في بعض ما وضح لي من الطريق، ومن جمال الطريق إلى الحقيقة، وهذا تحدٍّ آخر، إذا ما فزت فيه، أحسّ في قرارة نفسي بالغبطة تغمرني وتتّسق مع غبطة طلابي التي ترتسم على وجوههم وتنطق بها أفئدتهم بألسنتهم، إنه تحدٍّ مضاعف، في النجاح فيه سعادة مضاعفة، إنه التعليم. وفي التعليم أصبت من النجاح ما يرضي النفس وما أسمعني رضا الناس عنه.

أحبُّ التعليم وأحبُّ التحدي فيه، فالحياة تحدٍّ مستمرٌّ لا هوادة فيه، يرافقه تجدّد مستمرٌّ. وفي التحدي الذي دخلته في التعليم بعد عودتي من باريس ما يؤكد ذلك. ومتى توقف التحدّي تفقد الحياة معناها.

ومن مظاهر تقديسي للتعليم ما وضعتُه في مشروع قانون تنظيم الجامعات الذي صدر في عام ١٩٧٥، وهو عدم إعفاء شاغلي الوظائف العلمية الإدارية كعميد الكلية ورئيس الجامعة من التعليم. وكان رئيس الجامعة معفى منه، وكذلك كان الوزراء وأعضاء مجلس الشعب من أعضاء هيئة التدريس.

إن حب التعليم وقدسيته لديّ وما يلازمه من تحدٍّ دائم مستمرٍّ يجعلني دائم التعلق به، فاشترطت لقبول العمل في إنشاء مركز الدراسات والبحوث العلمية وإدارته استمراري عضوًا في هيئة التدريس في كلية العلوم أدرّس أربع ساعاتٍ أسبوعيًّا بلا مقابل، معارًا لإدارة المركز.

أذكر يومًا كنت أتفقد فيه المعهد العالي، وكان لا يزال في حرمه المؤقت، في أبنيةٍ خشبيةٍ. وفي أثناء مروري وحيدًا بالقرب من أحد أبنيته، سمعت صوت الصديق الدكتور صلاح أحمد يلقي درسًا على طلاب أحد الصفوف فهاجني الشوق للتدريس في المعهد، وهاجت بي ذكرى الأيام التي جمعتنا، أنا وصلاح على تحدي التعليم، وكانت من قبل قد جمعتنا على مقاعد الدرس نتحدى التعلّم، فحجب دمعُ الحنين في عينيَّ وضوحَ الطريق وتعثرت فيه مرارًا.

وكان كَتَبَ إليّ الأستاذ غارومن ليموج الذي تولى الإشراف على ابني زياد في تحضير الدكتوراه، كتب إليّ يذكّرني بأنه تولى متابعة أبحاثي في تحضيره الدكتوراه، وأرسل إليّ صورًا عما قام به استكمالًا فزادني ذلك شوقًا وجوًى.

إن أول ما تحديت خارج نطاق التعليم، كان فهم التنظيم العلمي للعمل وإتقان تطبيقه، وكان ذلك في المجلس الأعلى للعلوم، وفيه طبّقت – في التخطيط والإدارة – ما قرأت وتعلّمت فشاركت في وضع مشروع الخطّة العلمية الخمسيّة في عهد الوحدة، وتابعت تعديلها فيما بعد، وهيأت لمشروع الخطة العلمية الخمسيّة التالية، وأعددت بعض أنظمة ما يحدثه المجلس من اللجان، كلجنة الطاقة الذرية.

وقد تكون جذور أعمالي التنظيمية العلمية كلها، نشأت في بيئة المجلس، وترعرعت في لجانه في دمشق والقاهرة، ونمت بما أفدت من رؤى السكرتير العام عبد الفتاح إسماعيل، ومن فِكْر ساعده الأيمن مصطفى طلبه وإخلاصهما. ولا أستبعد اقتفاء أثرها في أعمالي في السياسات العلمية وإستراتيجياتها.

أما التحدّي في إنشاء المركز فقد كان شديدًا ومختلفًا عن تحديات التعليم التي أَلِفتها، والتي أصبحت موضوعات برامج تدريبٍ دائمٍ على التحديات فيه، كتبسيط عرض (بيبارد) للمبدأ الثاني في الترموديناميك، والتأسيس الرياضي للترموديناميك لـ(جيلز)، والميكانيك لـ(لانداو)...

أما إنشاء مركز بحوثٍ متعدد الاختصاصات فهذا تحدٍّ جديد وفريد من نوعه في الوطن، فأنشئ كما ذكرت في الصفحات السابقة، ووقفت بعد ستِّ سنوات، وقد استوى بنيانه قائمًا، أنظر للمستقبل توّاقًا لتحدي تطويرٍ كبيرٍ كان في ذهني ويحتاج تنفيذه إلى أكثر من سنتين مدة مفعول مرسوم التعيين، فأُحجم عن القيام به لئلا أترك لغيري مسؤولية تنفيذ ما ليس له به علم.

كان ذلك في النصف الثاني من السبعينيات، وفي وقتٍ راج فيه سوق الدسائس،

وسُدّت المنافذ على التحديات فعزفت نفسي عن إدارة المركز، وأخذت أرفع إلى الرئيس الرجاء تلو الرجاء لقبول استقالتي من إدارة المركز كلما سببَّها سوء تصرفٍ ما، ويكون طلبي قصيرًا في عدة أسطرٍ، فيرده الرئيس ويستوحي من قصر الطلب الأسباب فيأمر بإصلاحها.

أذكر أن الدكتور عبد الرزاق قدوره، تلقى في عام ١٩٧٦ ترشيحه من قبل المدير العام لليونسكو لمنصب معاون المدير العام للعلوم فمرّ بي مودعًا بعد حصوله على موافقة مبدئية على إعفائه من منصب رئاسة جامعة دمشق. خرجت معه مودعًا قائلًا له، كيف أمكنك الحصول على الموافقة فأجاب: "يا عمرو لقد أحسنت الدخول فأحسن الخروج(١)"!.

وجاءت تسميتي من اللجنة الاجتماعية الاقتصادية للأمم المتحدة بنيويورك، عضوًا في اللجنة الاستشارية في تطبيقات العلم والتكنولوجيا، وكان على رأس مهامها في تلك الأيام التحضير لمؤتمر الأمم المتحدة لتطبيقات العلم والتكنولوجيا في التنمية، الذي انعقد في فيينّا في صيف عام ١٩٧٩. واجتمع أعضاء اللجنة الاستشارية العرب في بيروت في منظمة الإيسكوا للتداول في الإعداد لمؤتمر فيينّا، والتقيت في تلك الاجتماعات خير الدين حسيب الذي كان مسؤولًا في المنظمة عن قطاع الصناعة والتكنولوجيا، وكان يعدّ لتأسيس مركز دراسات الوحدة العربية، ويبحث عمّن يحل محله في المنظمة، فحدثني في ختام تلك الاجتماعات عن عزمه ترك المنظمة في نهاية عام ١٩٧٨ وشجعني لترشيحي للحلول محله فيها.

أعجبني في خير الدين حسيب في تلك الاجتماعات عزمه على الدخول في تحدٍّ فريدٍ في نوعه وقد يكون استعدادي النفسي للتحدي زادني إعجابًا به. رأيت في العرض فرصةً للدخول في تحدٍّ جديد طالما أغلق في المركز هذا الباب.

---

(١) – كلمة قيلت لعمرو بن العاص بعد دخوله على صاحب مصر قبل فتحها.

عدت إلى دمشق وأنا أفكر في هذا العرض، ولعلّي "أحسن الخروج" فيه. بعد عدة أسابيع من اجتماعات بيروت أو أقل، جاءتني في صبيحة أحد تلك الأيام، الآنسة عايدة صايغ، وكانت مسؤولة عن التعاون العلمي، تحمل مغلفًا وهي تتقطَّع من الغيظ، فاقتربت مني قائلةً إنهم في المنظمات الدولية، ومنها اليونسكو يعرضون عليك وظائفهم، يعرضون عليك الآن إنشاء جامعةٍ في البحرين تتولى إدارتها، ألا يعلمون أنك هنا أكبر من جميع وظائفهم، إنهم أغبياء.

أخذت منها المغلّف وقلت لها علينا أن نرسل إليهم ردّنا. لقد سررت بموقع المركز في نفوس العاملين فيه، وسررت بالعرض أيضًا، إنه باب التحديات قد فتح على مصراعيه فإنشاء جامعةٍ موضوعٌ جديد ومعه تحدٍّ جديد، فأسرعت للقاء بعض كبار المسؤولين عن المركز، وطرحت عليهم مسوِّغات قبول العرض: فالمركز قد استقرَّ كيانه الحالي وفيه عدد من الزملاء الذين يمكنهم متابعة إدارته، وقيام سوريٍّ بإنشاء جامعةٍ في الخليج عرض مهم لسورية، قد لا يتكرر في مدى منظور من الزمن، وبعد نقاشٍ طويلٍ أمكن إقناع المعوّل عليهم في هذا الموضوع، وأشاروا عليَّ بالكتابة إلى الرئيس.

كتبت إلى الرئيس وأعدت ذكر مسوغاتي الثلاثة الأساسية: استقرار المركز، ووجود من يحُلُّ محلِّي فيه من الزملاء (وذكرتُ أسماء بعضهم)، وأن وجود سوريٍّ في الخليج ينشئ جامعةً فيه ويديرها، فرصة نادرة لا تفوّت، ثم إن اليونسكو تتكفل بمعالجة زوجتي وابني المريضين.

أرسلتُ الكتاب وسافرت بمهمةٍ للمركز إلى باريس لعلّ الرئيس يتخذ قرارًا في غيابي. بعد زهاء عشرة أيام عدت إلى دمشق وشرعت أسأل عن مصير كتابي، ثم علمت أن الرئيس قرأ الكتاب ولم يوافق على قبولي العرض ووعد بمعالجة زوجتي

وابني معالجةً كاملة، ويرى أن بقائي في إدارة المركز أهم من إنشاء سوريٍّ جامعةً في الخليج وإدارتها. فسررت بتقديره الوضع واعتبرته تكريمًا. وأخذت أعدّ للشروع في خوض غمار التحدي الذي كان في ذهني، وكنت أخشى إن شرعت بتنفيذه ألاّ يتاح لي إنجازه. أما بعد قرار الرئيس الأخير فأنا باقٍ في إدارة المركز إلى ما بعد إنجازه.

وأما التحدِّي الذي كان في ذهني فهو تطويرُ مستوى التعليم ومحتواه في كليتي العلوم والهندسة الميكانيكية والكهربائية. والتطوير العام أمر يخص الجامعة والوزارة وهو موضوع يخرج عن اهتمام المركز. أما حاجة المركز فتُستوفى بتطوير محتوى برامج الرياضيات للفيزيائيين والكيميائيين في كلية العلوم، ومحتوى برامج الفيزياء والرياضيات للمهندسين.

بدأ تطبيق البرامج المطوَّرة في كلية العلوم على الطلاب الذين عُيِّنوا في المركز وهم قلة، ثم في كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية قبل قرار الرئيس. أما بعده فكان التحول إلى إنشاء المعهد العالي مع الفرنسيين، فلديّ الوقت لإنجازه. لقد كان هذا التطوير الطَّموح هو أيضًا ثمرة قرار الرئيس أن أستمر في إدارة المركز زمنًا طويلًا.

بعد زهاء ستة أشهرٍ من عرض اليونسكو إنشاء جامعة البحرين، عدت إلى التفكير في الأوضاع الصحيّة للأسرة، ورأيت أن متابعة تلك الأوضاع على نحوٍ مُرْضٍ لا يمكن أن يتم بالاعتماد على أساليب الدولة وأحكام أنظمتها التي ستقف بمحاولات معالجة مرَضٍ ما عند حدود؛ أما الأب فلا توقِف حدودٌ رجاءَه بشفاء ابنه من المرض.

لذلك عزمت على متابعة محاولات إقناع الرئيس بضرورة التحاقي بعملٍ آخر بعد إنجاز مشروع تطوير الطاقة البشرية المتواضع الموجّه إلى طلاب السنوات الأخيرة. إلا أن اليونسكو عادت وعرضت عليّ في هذا العام (١٩٧٩) إنشاء جامعة قطر منسّقًا للمشروع، فعدت إلى العرض على الرئيس، فكان جوابه الرفض وتأكيد ما وعد به في

المرّة السابقة، فدفعني قراره الجديد دفعًا إلى مشروع إنشاء المعهد العالي إذ لم يعد لي أملٌ للانفكاك في مستقبل قريب، ثم إن إنشاءه تحدٍّ كبيرٌ للجمع بين البحث العلمي والصناعة والتعليم. والتحدي الكبير هو في نجاح التنسيق بين هذه الأغراض الثلاثة إضافةً إلى النجاح في كلٍّ منها.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

المدرسة العربية للعلوم والتكنولوجيا

في هذه الظروف التي هيأها قرار الرئيس انصرف تفكيري كلّه إلى مشكلات تطوير المركز المرافقة لتقدمه. وفي مقدمة هذه المشكلات تحسين المستوى العلمي لما يرفده من الطاقة العلمية البشرية التي انتهت باعتماد مشروع تطوير جذريٍّ أُنشئ المعهد العالي للقيام به.

أما المشروع المكمِّل له فهو أيضًا في التعليم والتعلُّم المستمرَّيْن. إنه مشروع يشمل تطوير معارف الباحثين في المستجدّ في التخصصات التي تهمهم، والتي تُقدَّم في البلاد المتقدمة في مؤتمرات علمية متخصصة أو في دوراتٍ مكثفة... كما يمكن أن توسّع مهام المشروع فيشمل التعليم والتعلُّم المستمرَّيْن بجميع وجوههما. وسيكون استيعاب حاجات المجازين فيه ميسورًا بالتعاون مع المعهد العالي، والباهظ في المشروع الكلفة ماليًّا وتشغيلًا وجهدًا هو استيعاب حاجات الباحثين، ولعلّي أجد في فييّنا ما ينير لي السبيل إلى تنفيذه.

المؤتمر الدولي لتطبيقات العلم والتكنولوجيا في التنمية

كان عليّ واجب آخر، هو الإعداد للمؤتمر الدولي لتطبيقات العلم والتكنولوجيا في التنمية، الذي سيعقد في عام ١٩٧٩ في فييّنا. وكانت قد تعددت الدعوات العربية في تلك الأيام لإقامة مركز بحث علمي وتطوير تكنولوجي، ولإقامة مركزٍ عربيٍّ لنقل التكنولوجيا. توجّه الأول إلى اليونسكو، ووُجِّه الآخر إلى الإيسكوا في بيروت.

مَوَّل صندوق التنمية الاقتصادية العربية في الكويت، دراسة جدوى مشروع المركز العربي لنقل التكنولوجيا، ولقد اعتمدت الدراسة أسلوب إنشاء المركز على وقفٍ يخصص له، ويستخدم ريعه السنوي للإنفاق على تسيير المركز.

كان مقدار الوقف التأسيسي في الدراسة خمسمئة مليون دولار، وبذلك يتجنب المركز الأزمات السياسية والمالية التي تلمّ ببعض مؤسسات الجامعة العربية.

ولا أزال أذكر اجتماعنا في عمّان وما جرى فيه من جدلٍ بين ممثلي الدول العربية التي شاركت في الاجتماع حول كيفية توفير المبلغ التأسيسيّ الكبير، وما انتهى إليه الاجتماع من خذلاننا في هذا المشروع الذي عَلَّقت عليه مراكز البحوث الناشئة اليافعة كثيرًا من الآمال في إرساء قواعد نهضةٍ علميةٍ عربيةٍ حديثةٍ تشارك تلك المراكز فيها.

والمراكز اليافعة كانت: مركز بحوث الكويت الذي أنشئ في عام ١٩٦٧، ومركزنا وقد أنشئ في عام ١٩٦٩، والجمعية العلمية الملكية بالأردن التي أُسِّست في عام ١٩٧٠، والمركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا بالرياض الذي أُسِّس في عام ١٩٧٧. وساد في الاجتماع اتساقٌ في النقاش وأساليبه بين مركزي بحوث الكويت وسورية.

نوقش المشروع الأول، الذي اعتمدته أمانة الجامعة واتجهت به إلى اليونسكو، نوقش في لجنةٍ كنت عضوًا فيها، ولم يحظ المشروع بالدعم اللازم من الجهات المعنيّة لتنفيذه وأخفقنا فيه وخسرناه.

أما الثاني فيتألف من جزأين، خسرنا الأول منهما، وهو المركز العربي لنقل التكنولوجيا، في عرض تمويله عربيًّا في عمّان بالأردن كما ذكرت قبل قليل، وتوجهنا بالجزء الثاني منه إلى المؤتمر بأمل حصول بلدان العالم الثالث على تسهيلات لنقل التكنولوجيا يقرها المؤتمر.

أما المؤتمر فقد انعقد في صيف عام ١٩٧٩ في فيينّا، حضره من سورية وفد برئاسة وزير التعليم العالي شاكر الفحام وعضوية عدد من المسؤولين وكنت فيه. وحضره من الأمم المتحدة فريق من التراجمة من اللغة العربية وإليها، فانتشرنا بين الوفود العربية ندعوهم لإلقاء كلماتهم باللغة العربية، فاستجاب كثير منهم للدعوة؛ فمزَّق ممثلُ وفد

المغرب كلمتَه المكتوبة بالفرنسية وشرع في إعادة كتابتها باللغة العربية، أما ممثل الوفد السوداني - وهو عربي - فأبى الرجوع عن الإنكليزية إلى العربية، وكان الأمير حسن رئيس وفد الأردن هو أول من تكلم من العرب، وباللغة الإنكليزية.

احتدم النقاش في اللجان، وتوحدت وجهات نظر بلدان العالم الثالث في مشكلة التقانة، كما توحدت وجهات نظر البلاد المتقدمة أو الشمال، حتى البلدان الاشتراكية كانت في الرأي مع البلدان المتقدمة ضدّ إباحة نقل التقانة بلا شروط تمنع نقل بعضها، وتشترط على بعضٍ شروطًا قاسية...

وعدنا مع بلدان العالم الثالث كما يقال بخفّي حنين، إلا أننا تعلمنا حقيقة "مرّة"، هي أنك لا تُعطى شيئًا إلا إذا دفعت الثمن.

أما البديل فيجب أن تُستكمل مهام المركز في مجال التعليم والتعلّم المستمرَّيْن. ذلك لأننا عانينا صعوبة في العثور على ندواتٍ تعالج القضايا التي تهمّنا في المركز، وصعوبةً في إيفاد كل من يهمهم موضوع الندوة أو حلقة البحث.

واستقر في ذهني إقامة الندوات أو حلقات البحث في موضوعات تناسبنا، ندعو للمحاضرة فيها خيرة المختصّين الدوليين في موضوعاتها، وسنجد عددًا من هؤلاء يرحب بالدعوة ويلبّيها، إذ تتيح له التلبية زيارةً سياحيةً في بلدٍ سياحي وفي ضيافة المركز التي تشمل بطاقة السفر بالطائرة.

في هذه الحلقات يجد باحثونا الوقت قد خصّص لهم، يستفسرون فيه عن الغامض في المحاضرات وعمّا يدور في أذهانهم حولها. وكان يزورنا في هذه الأثناء الزميل الدكتور محمد علي العمر كلما جاء من الكويت لزيارة ذويه.

والدكتور العمر أستاذ باحث في مركز بحوث الكويت وجامعتها، وكنا نتداول معه الرأي في القضايا العلمية العربية العامة، كمشروع الصندوق العربي لنقل

التكنولوجيا. وتطرّق بنا الحديث في إحدى زياراته إلى حلقات البحث أو الندوات التي يمكن توجيه كلٍّ منها إلى موضوعٍ يحظى باهتمام العديد من الباحثين، فلاقى الموضوع منه تجاوبًا، وكان أيضًا من الموضوعات التي تَلقى من مركز بحوث الكويت اهتمامًا خاصًا، ووعد بطرح التعاون فيه معنا على مركز بحوث الكويت.

لم تكن لقاءاتنا لمناقشة بنود اتفاق وتوثيق ما تنتهي إليه اللقاءات، بل كانت للتعارف. وبفضل هذا التعارف واتساق أفكارنا في لقاءات عمّان على مشروع المركز العربي لنقل التكنولوجيا، زاد تعلقنا بالتعاون.

لقد لقينا في مركز بحوث الكويت صورةً عمّا يدور في أذهاننا عن أساليب التعليم والتعلّم المستمرَّين ولاسيما عن الندوات وحلقات البحث للباحثين. فتم الاتفاق بسهولة واقترحتُ تسمية الجهاز الذي ستوكل إليه هذه المهمة "المدرسة العربية الصيفية للعلوم والتكنولوجيا"، ودُشِّنت المدرسة في فندق بلودان في شهر تموز سنة ١٩٧٨، وكان موضوع الحلقة (إلكترونيات الجسم الصلب)، وهو على صلةٍ وطيدةٍ بمشروع الدراسات العليا في مشروع تطوير الدراسة في كلية العلوم الذي كنت أسعى لتنفيذه بعد عودتي من باريس سنة ١٩٧٠.

وفي فندق بلودان شرعنا أنا وعدنان شهاب الدين المدير العام لمركز بحوث الكويت ومحمد علي العمر ومحمد مراياتي نضع خطوط مستقبل هذه المدرسة في وهج النجاح الذي أصابته في افتتاحها، فاستقر الرأي على إنشاء مقرٍّ دائم فوق بلودان في أعالي الجبل، بعيدًا عن صخب الناس في الصيف، وعلى رقعةٍ من الأرض مقبولة الثمن يقدمها المركز لتكون مقرَّ المدرسة، وتُبْنى بتمويل من المدرسة التي يشارك في تمويلها المؤسِّسون بالتساوي.

استكشفنا الموقع المقترح يوم الجمعة سيرًا على الأقدام فنال موافقة الجميع وكان

المؤسِّسون ثلاثة فقط، مركز بحوث الكويت وجامعتها ومركز بحوثنا ممثلًا بالمعهد العالي، الذي يتولى كل أوجه التعليم والتعلّم.

كنا نستبق الزمن في التخطيط لمدرستنا، فالمقرّ هو مقر إدارة المدرسة ومقر حلقاتها وأنشطتها الدائمة الأخرى، ولا يجوز، بعدما رأيناه من نجاح حلقتها الأولى، اقتصار أنشطتها السنوية على حلقاتٍ قليلةٍ والتي يقضي الواجب بعقدها أينما توفر لنا ذلك في الوطن العربي.

دفعَنا انتقاءُ موقع المقرّ في بقعةٍ جميلةٍ هادئة إلى جعلها مكانًا لاستجمام الباحثين ولانقطاعهم للتفكير والكتابة. وتوصلنا إلى وضع الخطوط الكبرى لمستقبل المدرسة: مقرّاتٍ تصلح لإقامة حلقات بحثٍ فيما لا تتجاوز مدة الحلقة أسبوعين، ودوراتٍ في برنامج تدريبيٍّ أطول، كما تصلح منتجعًا لاستجمام الباحثين ولتنسيق أفكارهم وكتابة تقاريرهم ومؤلفاتهم. ورأيْنا تعديل اسم المدرسة بما يناسب عقد حلقاتها في جميع أوقات السنة وفصولها فأصبح اسمها "المدرسة العربية للعلوم والتكنولوجيا".

عُقدت في سنة ١٩٨٣ حلقةٌ بعنوان "اللسانيات العربية التطبيقية ومعالجة الإشارة والمعلومات" في المغرب، فلاقت فيه رواجًا وترحيبًا. وعندما قررت إدارة المدرسة توسيع التجربة وعقد حلقات أخرى في بلادٍ عربيةٍ أخرى لاقت بعض المصاعب في إيجاد المضيف، فعمدنا إلى تعديل رؤيتنا السابقة بإنشاء عدة مقراتٍ فرعيةٍ في مثل أحد البلدان المغاربية العربية والخليجية والعراق والسودان أو مصر إضافة إلى البلدين المؤسسين سورية والكويت.

سَمَحَ هذا التوزّع في مختلف الأقاليم بنشر سياسة المدرسة في المعرفة والتعلم والتعليم المستمرين، وبتقارب المثقفين العرب في التفكير، أو بالأحرى بفهم بعضهم بعضًا، تفكيرًا وتطلّعًا وتمهيدًا لتعاونهم. وسَمَحَ كذلك بمشاركة عددٍ أكبر من

العلميين في المقرات القريبة منهم لانخفاض نفقات الوصول إلى مكان انعقادها. وانضم إلى المؤسِّسين هيئات أخرى في الكويت وسورية.

ثم كانت محنة الكويت، فحملت المؤسَّساتُ السورية العبءَ وحدها، وبقي اسم الكويت في المدرسة وندواتها إلى جانب اسم سورية إلى أن تعافت الكويت، فجددت المدرسة حملتها الثقافية التوسعيّة؛ فعقدت عدة حلقات في لبنان وقطر ومصر والبحرين، وانضم لبنان (بالجامعة اللبنانية والمجلس الوطني للبحوث العلمية) إلى المؤسسين، واحتفلت المدرسة بمرور ربع قرنٍ على تأسيسها في دمشق في كانون الأول من عام ٢٠٠٣، وقد أقامت منذ تدشينها حتى هذا الاحتفال ستين حلقة، حاضر فيها أكثر من ٢٥٠ محاضرًا دوليًّا وحضرها زهاء ٣٠٠٠ باحث.

قد تكون المدرسة أول مؤسَّسةٍ في الوطن ترفض الدعاية وتحاربها وتحرِّمها. إنها تخشى الانحراف بالدعاية عن أهدافها والتوجُّه إلى دعايةٍ فارغةٍ تعود على المؤسسة بالوبال.

لذلك جعلت المدرسةُ الدعوةَ لحضور حلقاتها مقصورةً على المشاركين الذين يشاركون في الحلقة بتمامها. وجُعلت المشاركة فيها من خارج بلدَي المؤسسين الكويت وسورية مقابل رسم مالي، وفي ذلك أيضًا تعبير عن أهميتها وقيمتها العلمية الرفيعة.

إلى جانب ذلك، فإن المدرسة تثير العواطف وتؤجّج الشوق الدفين في صدور العلماء المغتربين العرب؛ كجورج حداد الذي اندفع على دقات الطبل إلى حلقة الدبكة التي كان لا يزال يتقنها، وقد شجاه صوت سميرة توفيق. أما جون مخّول الذي حنّ إلى ذويه في لبنان، فنظم له المركز زيارتهم، فقال معبِّرًا عن امتنانه وسروره، ادعوني وسأكون سعيدًا بتلبية الدعوة والوفاء بجميع الالتزامات العلمية التي تطلبون، أنا وجميع زملائي في المهجر. وهذا ما أكده أغلب العلماء الآخرين على اختلاف بلدانهم.

إنها حقًّا ملتقًى محبَّبٌ للمشاركين علميًّا واجتماعيًّا، وهي للباحثين العرب مدرسةُ تعليم وتدريب وبحث، ومنتجع استجمام وتفرُّغ للكتابة، وتفاعل مع العلماء والباحثين.

والمدرسة العربية نموذج فريد للتعاون العلمي في الوطن العربي، لم تقمْ على اتفاق بين دولتين، بل على اتفاق بين مؤسستين في دولتين عربيّتين.

إن إجهاض مشروع المركز العربي لنقل التكنولوجيا كان إجهاضًا لآمال العلميين في مراكز البحوث اليافعة التي تأسست بعد حرب حزيران، تعبيرًا عن ثورتهم ورفضهم الهزيمة التي أريد إلحاقها بهم، فاندفع مركزا بحوث الكويت وسورية إلى نبذ الأسلوب المتبع في الجامعة العربية، والذي يستلزم ضرورة اتخاذ القرار بموافقة الأكثرية، وهو ما يعطل تنفيذ كثير من المشروعات الهامة، كمركز نقل التكنولوجيا.

وتم الاتفاق على إنشاء المدرسة، ودعوة مراكز البحوث العربية للانضمام إلى البلدَيْن المؤسِّسَيْن الكويت وسورية، والمشاركة في التأسيس وفي أنشطتها وإدارتها. ويبقى على المدرسة وعلى هيئة الإشراف عليها، النظر في أهدافها وفي أسلوب عملها، ومدى ما تلقاه من رضا الباحثين عنهما وعن تطورهما، فهم الذين يقدِّرون النجاح، وهي قد أنشئت لهم، ولحفز التقدم العلمي العربي.

ولن تبقى المدرسة إلا إذا استمرَّ تقدمها، واستمر تجددها فكرًا وأسلوبًا وتألقًا. ولقد قامت إدارة المدرسة، بمناسبة مرور ربع قرنٍ على تأسيسها بدراسةٍ قيّمت فيها أداءها واستشرفت مستقبلها وفق مؤشراتٍ اختيرت للمستقبل. أعتقد أن علينا أن نعيد النظر في تلك المؤشرات جذريًّا.

والمدرسة هي المنتجع الذي ضَمَّنا منذ يوم تأسيسها، وستبقى تضم شتاتنا، وتجمع أفكارنا، وتؤرخ تطورها وترعى تنشئة المستجد فيها، وتدفعه في طريق ديمومة التجدّد، فإذا ما شاخ ذُكِّرت بروائع ما قُدِّم لبناء الفكر العربي ومدارج إبداعه.

ففي حلقة تشرين الثاني من عام ١٩٨٣، دعي إبراهيم حلمي عبد الرحمن محاضرًا في الحلقة التي كان عنوانها "توطين التكنولوجيا في العالم العربي"، فلبّى الدعوة. وإبراهيم حلمي عبد الرحمن كان نجم مصر الذي قدمته في افتتاح أسبوع العلم الأول، والأول أيضًا في عهد الوحدة، فكان الرجل الضخم، ضخم الحضور والفكر والجسم.

كان مهيبًا تفاخر به مصر في سورية، وكان معه مجموعة من رجالات الفكر والعلم في مصر كأحمد رياض تركي وعبد الحليم منتصر. إنه عفريت العلم أخرجوه من القمقم على منبر مدرج جامعة دمشق، فبَهَرَ المثقفين السوريين حقًّا، وخبت في عيونهم أنوار من كانوا معه، بعد أن سطع ضياؤه، ثم علت شمسه في فيينّا مديرًا عامًا لليونيدو.

لبى إبراهيم حلمي عبد الرحمن دعوتنا بعد ربع قرنٍ من اللقاء الأول في أسبوع العلم الأول، وفي مجموعةٍ من رجالات العلم في مصر أيضًا: أسامة الخولي ونادر فرجاني وإبراهيم سعد الدين، فلم يَخْبُ نوره.

في أواخر القرن الماضي لقيتُه في الإسكندرية وقد أخنى عليه الدهر، فقد أصيب بابنه، فتهدَّم جسمه وانحطت قواه فحفّ به بعض علماء مصر فصعدوا بها أفادوا منه على مدارج الإبداع التي سبقهم هو عليها، وكلٌّ منهم يحاول مساعدته في مشيته إجلالًا واحترامًا وتقديرًا لعفريت العلم في مصر الذي كان.

أما المركز فقد اشتد الإقبال عليه وكثُرت زبائنه وتنوعت مصادرهم، كالمصرف المركزي، ومؤسسة التأمينات الاجتماعية، والشركة العامة لشبكات نقل الكهرباء...

زارني السيد عبد الرحمن العطار ليعرض تعاونًا مع اتحاد الغرف السورية، فبادرتُه بعرضٍ مستقًى من مؤسسة التقدم العلمي بالكويت، يتلخص بتخصيص ٢.٥٪ من أرباح الاتحاد توضع في خطةٍ سنويةٍ يوافق عليها الطرفان، وذلك مقابل قيام المركز ببحوثٍ لمصلحة الاتحاد.

كان عليَّ الحصول على موافقة الرئيس على هذا التوجه، وإلى أن يتم ذلك، رأيتُ أن نعمل على تكامل البحث العلمي في المركز والتعليم والتدريب والإنتاج، وبذلك يمكننا إفادة الصناعة بتطوير الإنتاج وتحسين نوعيته، والمساعدة على تنمية المشروعات الإنتاجية الصغيرة، وقد يرتقي منها إلى المشروعات الإنتاجية المتوسطة، فيما ينتقي المركز من مشروعاتٍ يحتضن تنشئتها ويساعد المتقدمين على تنميتها وإشاعتها، حتى إذا ما قامت واستقلت عن المركز تشيع في البلاد وتنتشر. والمركز بحسن انتقائه المشروعات المحتضنة يجني خبرةً في تنشئة الحاضنات، ويجني منها الاقتصاد والأيدي العاملة.

كان أول مشروع من هذا القبيل حاضنة (صنع عدسات النظارات الطبيّة)، انتقينا لتنفيذه شابّين يعملان في هذا المجال، على أن تكون البداية بكتل زجاجية مستوردة.

كان في تصوري أن المشروع يصلح لأن يكون مدخلًا لصناعة الأجهزة البصرية وبضع خطوات في إتقان صناعة الزجاج وفي الخبرة في تقاناتها، وبخاصة التجهيزات الزجاجية التي لا تتأثر بالتغيرات الكبيرة لدرجات الحرارة؛ إذ لا يزال (معمل الشرق) في حلب بعيدًا عن إمكان إنتاج كؤوس الشاي، ولا يحلم بصناعة أوانٍ زجاجية تضاهي (البيركس). تركت المركز مع بدايات المشروع.

وبإدخال تقانة الحاضنات واعتمادها في المركز، تُستكمل فيه مدينة العلم، التي يجد فيها مَن يقصد المعرفة وتطويرها كلّ ما يريد لخدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ولبناء القيم وصونها. وستكون أغلب الجهود في المستقبل موجهةً إلى الابتكار، في البحث العلمي خاصة، وإلى تطوير المركز إلى مركزٍ وطنيٍّ للبحث العلمي.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

المركز: مدينة المعرفة المتجددة

١. آخر مشروعاتي في تطوير المركز

أما آخر مشروعاتي في المركز، فكان متعدد الأغراض، إلا أن أهمها ثلاثة:

١. استقرار العاملين في المركز.

٢. طمأنة الجهات التي تزوِّدنا بالمواد والتجهيزات والتكنولوجيا على مكانة المركز في سورية وأهمية التعاون معنا.

٣. تحويل المركز إلى مركزٍ وطنيٍّ للبحث العلمي.

وكان همّي في بدايات نجاح المركز، التعريف به وبمهامه وبالبحث العلمي في بيئتنا، وبأسلوب المركز في تقديم خدمات البحث العلمي. يدفعني إلى ذلك أهمية ما نقوم به، وإتقان جلِّ الباحثين منهجية البحث العلمي، ونجاح المركز - لأول مرة في سورية – في تنظيم البحث العلمي على مستوى واسع شديد التنوع، وفي جميع مجالات العلوم التطبيقية، باستثناء بعض الفروع التي تهتم بها جهات متخصصة كالطب والزراعة.

وتدفعني بدايات النجاح إلى عرضِ نماذجَ مختلفةٍ من الأعمال الناجحة بقصد اجتذاب زبائن في مجالات القطاع العام، كما تدفعني إلى إسباغ صفة الشمولية على المركز، فمنهجية البحث العلمي واحدة في جميع المجالات.

ثم استجدَّت أسباب أخرى، فكما نطمح إلى توسيع زبائننا في المؤسسات الحكومية والقطاع العام والقطاع الخاص، فإن لنا زبائن من نوع آخر، أشرت إليهم قبل قليل، وهم الذين يزودوننا بما نحتاج إليه من المواد والتجهيزات والتكنولوجيا، فهم زبائننا ونحن زبائنهم، وهؤلاء يهمهم أن يكون أمثالنا من الزبائن، لهم علاقات مميزة في بلادهم، ويؤدي التعامل معهم إلى فتح آفاق عريضةٍ وأسواقٍ لمنتجاتهم فيها. لذلك

كان لإسباغ صفة الشمول على المركز فوائد هامة أخرى غير التوسع وتنويع مصادر البحوث وطبيعة المشكلات التي تحملها.

ولما كانت صفة الشمول مرهونةً بتحوُّل المركز إلى مركزٍ وطنيٍّ للبحث العلمي، فقد جعلنا هذا التحول هدفًا، حفظنا فيه للمركز، في أهداف إحداثه، كيانًا خاصًّا مميزًا، يستفيد من جميع إمكانات المركز الوطني دون المساس باستقلاله.

وكان أول ما ترقَّى إلى المستوى الوطني هو (مركز المعايرة والمعايير). ولقيَتْ هذه الخطوة ارتياحًا وترحيبًا من اليابانيين الذين أنشئ هذا المركز بالتعاون معهم، فكان هو الأول الذي تحول إلى مركزٍ وطني.

والمركز الوطني شاملٌ يحرك الطاقات العلمية البشرية في الجامعات في مجالات البحث العلمي المختلفة. وفي هذا تحدٍّ كبيرٌ بسبب ضخامة كتلة الطاقات العلمية في الجامعات وعِظَمِ عطالتها، وهو تحدٍّ مقصود، لأن قدرته على تحريك الرأي العام العلمي تتناسب مع عِظمه.

٢. صندوق التعاون

استجدَّت أسباب أخرى للتحوُّل إلى مركز بحثٍ علميٍّ وطني، والتعجيل به. وهذه الأسباب على علاقة وثيقة بمستوى معيشة العاملين في المركز. فللحفاظ على مستوى معيشةٍ مناسب للعاملين في المركز، كنّا نطارد التضخم الاقتصادي بتشجيع العاملين ومكافأتهم على الإنجاز ومستواه، وعلى مستوى الموضوع من حيث التعقيد.

وخامر النفوسَ شكٌّ في صمود هذا الأسلوب أمام تقلّبات الأحوال والظروف. وبعد نجاح المركز في دخول مؤسسات الدولة والقطاع العام، وإنجاز مشروعاتٍ نوعيةٍ في مؤسسة التأمينات الاجتماعية والمصرف المركزي... انصرف تفكيري إلى ضرورة إيجاد مصدرٍ آخر يموِّل المركز ذاتيًّا، لا يعتمد على الدولة إلا في حدودٍ مقبولة،

ورأيت أن يكون هذا المصدر هو مجموعةً من عددٍ مناسبٍ من وحدات الدراسات والبحوث، ترتبط بصندوق التعاون في المركز.

وصندوق التعاون قديم في المركز، إذ أُسِّس في عام ١٩٧٩ لأغراضٍ تعاونيّة بسيطة، كتأمين مشترياتٍ منزليةٍ للعاملين فيه بالتقسيط كالسجاد والمفروشات... ونجح في مهماته بإدارة السيد ناصح الأمير.

ثم رأيْنا في مشروع توفير سكن للعاملين ضرورة تغيير سياستنا؛ إذ أصبحت أقساط المخصَّصين بالسكن السنوية كافيةً لتمويل المشروع. وكلَّفْنا صندوق التعاون تمويلَ المشروع وحساباته. ثم رأيت تكليفه القيامَ بإدارة مجموعة وحدات البحوث المقترحة، وسيعاد النظر في بنيته كلها بما يناسب هذا التطوير لمهامه. وسيقوم بتوظيف بعض العاملين في المجموعة على نفقته، أما الباحثون فيعملون في المجموعةِ إعارةً أو ندبًا من المركز ويتقاضون من الصندوق رواتبهم ومكافآتهم.

ويمكن نقل هذه الصورة إلى المركز الوطني بعد إدخال التعديلات المناسبة وباستعارة مبادئ الأسلوب المتبع في الجمعية العلمية الملكية بالأردن، التي لا تعتمد على الدولة بأكثر من معونةٍ سنويةٍ لا تتجاوز ١٥٪ من ميزانيتها.

ثم حاولتُ وضع صيغة للتعاون مع اتحاد الغرف السورية معتمدًا على صلةٍ طيّبةٍ لي بالسيد عبد الرحمن العطار الذي كان يشغل منصبًا هامًا في الاتحاد، وكان على صلةٍ وثيقة معه، وهو من الرجال الذين يقدّرون العلم ودور البحث العلمي في التنمية والتقدم، فحدّثته عن دور أمثالهم في الكويت حيث يقومون بتمويل مؤسسة الكويت للتقدم العلمي بـ ٢.٥٪ من أرباحهم، ويمكن أن نبدأ تعاونًا مفيدًا بأقل من هذه النسبة من أرباح اتحاد الغرف، على أن نقوم بالبحوث التي يحددها الاتحاد سنويًّا، وأن يعاد النظر في الاتّفاق دوريًّا.

قلت له، إذا كانت الخطوط الكبرى مقبولة فسأقدمها في عرضٍ تنظيمي أشمل إلى رئيس مجلس الوزراء، فوافق.

حملت أفكاري الأولية هذه لعرضها على رئيس مجلس الوزراء، بعد تعرّف الطاقات المالية لصندوق التعاون في المركز. بدأت العرض ببيان الأسباب التي دعت للتفكير في المشروع وهي:

- حثّ العاملين على الاستقرار في المركز وعدم نزوحهم عنه إلى جهةٍ أخرى طلبًا لتحسين مستوى المعيشة.

- عجز وسائلنا المتّبعة حاليًّا عن اللحاق بالتضخم الاقتصادي، علمًا بأن أجور أعمالنا في مؤسسات الدولة والقطاع العام تكفي لتلافي هذا العجز.

- تأهيل المركز للقيام بدراساتٍ وبحوثٍ في جميع ما يطرحه القطاع العام والخاص.

غير أن استقلال صندوق التعاون بتنفيذ المشروع يجعله بحاجةٍ في البداية إلى إقراضه مبلغًا يُستَرَدُّ تقسيطًا، وإلى مساعدةٍ سنويةٍ، كالمساعدة التي تتلقاها الجمعية العلمية الملكية بالأردن سنويًّا من الدولة وهي في حدود متواضعة يُتَّفق عليها، مقابل الصندوق بما تطرحه الدولة عليه من مشروعات، يُتفق على أجورها أيضًا وعلى طرائق تقديرها. وقد يكون ذلك بدايةً عمليةً للانتقال إلى مركزٍ وطنيٍّ للبحث العلمي انتقالاً تدريجيًّا لا يرهق الدولة. وافق رئيس مجلس الوزراء على ذلك موافقة مشروطة.

وفي هذه الأثناء قدَّم لنا الفرنسيون معونات كبيرة في تصميم أبنية المعهد: مختبراته وقاعاته التدريسية وملاعبه ومسابحه ومطعمه وسكن الطلاب والطالبات والأساتذة الزائرين. واستفاد المركز أيضًا من معوناتٍ فنيّةٍ من جهاتٍ مختلفةٍ - أبرزها اليابان - كتجهيز المختبرات والمركز الوطني للمعايرة. فكان مجموع ما تَلقّاه المركز من معونات علميةٍ وفنيةٍ من جميع الجهات (حتى أواخر أيام إدارتي المركز)، يقارب ما أنفقته الدولة عليه في هذا المجال.

٣. خدمات إضافية

أفدت كثيرًا من ملاحظاتي في سَكلى في الأشهر التي قضيتها فيها في عامي ١٩٦٩و ١٩٧٠، فاقتبست منها اختلاف ثمن وجبة الطعام باختلاف دخل العامل الشهري، والخدمة الذاتية في المطعم.

كنت أتناول طعامي في مطعم المركز كأي عامل في المركز. كنت أغتنم فرصة تناول الغداء في مطعم المركز لعلَّ زملائي يقتدون بي فلا يتغيّبون وقت الغداء كثيرًا عن عملهم. ثم إن عمال المطعم والمشرفين عليه سيتحاشون الإهمال في النظام، ويتوخون النظافة والإتقان. كنت أتقصّد لقاء مختلف فئات العاملين بتناول غدائي معهم والتحدُّث عن أحوالهم في العمل وخارجه وأهتم بما يبثونني من همومهم الشخصية في الأسرة وفي العمل.

في نظام العمل في المركز أدخلتُ نظام العمل على مرحلتين صباحية ومسائية، لذلك كنت أحاول تعويض العاملين عن هذا الدوام الطويل في عملٍ جادٍّ، ببعض ما يعوضهم عنه، ويساعدهم على الحفاظ عليه، في نادٍ يجمعهم بأصدقائهم ومع أسرهم، وكنت أطمح بخَصّهم بنوادٍ سياحية يقضون فيها إجازاتهم الصيفية، وأقمنا مقصفًا سياحيًّا تجريبيًّا لا يزال قائمًا حتى يومنا هذا، إلا أنه اقتصر على تقديم الطعام.

وكان من مشروعاتي إقامة ركن لمن يريد الكتابة في هدوء بعيدًا عن ضوضاء المدن والتجمعات، ككتابة تقريرٍ أو خلاصة العمل في مشروع، ورأيت إقامة هذا الركن في الطريق من الصقيلبية إلى عين الشرقية، وعلى أن يكون هذا كله بأسعارٍ مريحة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

المجالس العلمية للاتحاد الثلاثي

أنشئ الاتحاد الثلاثي الذي ضمّ كلًّا من ليبيا ومصر وسورية، وسمي الأستاذ أحمد الخطيب من سورية رئيسًا للاتحاد الذي كانت القاهرة مقرّه، وأنشئت فيه مجالس اتحادية، اختصاصية في شؤون الاتحاد، وكنت عضوًا في مجلسين منها، هما المجلس الاتحادي للثقافة والمجلس الاتحادي للتعليم والبحث العلمي.

أذكر أن علي فهمي خشيم، الأمين العام لمجمع اللغة العربية الليبي في هذه الأيام، كان وزيرًا ليبيًّا وعضوًا في المجلسين أو في أحدهما.

كنت أحضر اجتماعات المجلسين بشوق لعلّ اتحادًا حقيقيًّا يولد بهدوء في القاهرة التي احتضنت قبل عقدٍ من الزمن عاصمة دولة الوحدة السورية المصرية. يشدّني الشوق أيضًا لاجتماعاتنا في المجلس الأعلى للعلوم في تلك الأيام.

فلما كانت زيارتي الأولى للقاهرة عضوًا في مجلسين علميين من مجالس الاتحاد يضفيان عليهما جوًا علميًّا وبيئةً علمية، قلت في نفسي سأتفقد في هذه الزيارة روابط الماضي القريب التي أنشئت في جوٍ علميٍّ أيضًا، لعلّي أستعين بهم على تقييم مستوى الجديّة في هذين المجلسين، ولكن لم يكن فيهما أحد ممن كنّا نلقاهم في المجلس الأعلى للعلوم.

سألت عن عبد الفتاح إسماعيل ومصطفى طلبه ومحمد القصاص وسيد رمضان هدّارة... لم تعد القاهرة اليوم القاهرة التي كانت بالأمس، قد لا تكون جرت تغيرات كبيرة غير تكاثر السكان، إلا أنني كنت أشعر وكأن كل شيء قد تغيّر في القاهرة. هل هي العاطفة؟

استعدتُ ذكرى عودتي من فرنسا إلى الوطن ونزولنا في أثينا ليلًا والناس يحيّوننا تحية احترام وتكريم ومحبةٍ أينما مررنا هاتفين ناصر ناصر. كم كنا نشعر بالفخار والعزّة

لأننا عرب كالمصريين إذ لم تكن قد قامت الوحدة. تمر هذه الصور في ذهني، والمشاهد التي أراها تدفعني دفعًا إلى تلك الصور أستعيدها وأستوقفها.

كثرت اجتماعات المجالس الاتحادية وكثرت زياراتي القاهرة وأخذت آلف ما تراه العين وشرعت أفتش عمّن بقي من الأصدقاء، فكان أول من لقيت منهم الدكتور مصطفى طلبه السكرتير العام المساعد للمجلس الأعلى للعلوم سابقًا، ومؤسس أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ورئيسها برتبة وزير. وهي تطوير للمجلس الأعلى للعلوم وتوسيع لمهامه وإضافة التكنولوجيا إشارة إلى العناية والاهتمام.

سررت بلقاء مصطفى طلبة كثيرًا، وزوّدني بما استجدّ في مصر في كلٍّ من التعليم العالي والبحث العلمي. علمت منه أن الدكتور عبد الفتاح إسماعيل توفي وأنه قضى مدة في الكويت، ولكنه لم يُعْلمني بأنه سيترك الأكاديمية ليتولى في هيئة الأمم المتحدة منظمة الإنسان والبيئة.

في زياراتي صرت أسمع بأحمد فؤاد نجم والشيخ إمام وما يغنّيه لـ "بهيّة"، لمصر من أشعار نجم حول أوضاعها في الاحتلال الإسرائيلي ومع أنور السادات.

في حرب تشرين التحريرية

كانت أشعار أحمد فؤاد نجم وألحان الشيخ إمام يغنِّيها مع سعاد حسني تلاحق المسؤولين في الوطن العربي كله، والجميع ينتظر انطلاق شرارة الغضب من مصر، من بهية. لم يصدق أحد أن أنور السادات جادٌّ ويمكن أن يفاجئنا بعمل فيه من الإبداع ما لم يكن في تصور أحدٍ منا، فيجتاز القناة والعدو يرابط على طرفها الآخر.

يوم السبت في ٦ تشرين الأول بينما كنت في طريقي إلى المنزل عائدًا من العمل كنت ألاحظ أكياسًا كبيرة بيضاء تتطاير عاليًا في الفضاء، كنت أظن أنها تتطاير بفعل تيارات الهواء. لقد كانت مظلات الطيارين الإسرائيليين الذين أسقطتِ الصواريخُ السورية طائراتهم.

بدأ العرب حرب تشرين في سرّيةٍ تامة، واختاروا اليوم والساعة، وكانت أيامها الأولى أيام نصر مؤزَّر. تولد روايات البطولة مع الانتصارات وقلما تعيش مع الهزائم. كان كل الناس يتكلمون عن النصر وعن بطولات اخترعوا أكثرها، وكم تناقل الناس بطولات جند "التجريدة" المغربية.

يروي لنا وكيل جامعة دمشق الصديق الدكتور محمد خير فارس أن جنديًّا مغربيًّا جريحًا من التجريدة أُدخل مستشفى المواساة فوُجدت جيوبه ملأى آذانًا بشرية، فلما سئل عنها قال: كنت كلما قتلت جنديًّا إسرائيليًّا أحتفظ في جيبي بإحدى أذنيه، وتداول الرواة هذه الصورة على وجوه مختلفة.

وكم كنا نأنس برقيب في الجيش يصبِّحنا وهو في طريقه إلى عمله بأخبارٍ سارة عن الحرب في أيامها الأخيرة ويحدثنا عن مغامراته على شواطئ طبريا في ليلته ووجهه يطفح بشرًا وصدقًا.

أعجب كلما ذَكَرْتُه كيف كانت الكلمات تتدفق على لسانه بطلاقة، متى انتقاها وكيف؟ لم ألقَ داعيةً مثله من قبل، مع أنه لم يتلقَّ دروسًا في الدعاية ولا حصل على شهادات في الإعلام.

أما أنور السادات فكان يستغيث استغاثة مستسلم في أيام الحرب الأخيرة، كاستغاثة واستسلام بريجنيف في حرب النجوم أمام ريغان. مضت الحرب وطبعَت في أذهاننا ونفوسنا بأن النصر ليس بعيدًا عنا.

بعد الحرب دخل سورية أكثر من عشرة مليارات من الدولارات معونةً لها بعد الحرب من بعض دول الخليج. صُرفت هذه المعونات في مشروعات إعمارٍ وتسليح، وكانت هذه المشروعات بوابة واسعة للفساد. ولم يكن المركز بمنأى عن ذلك، فبعد أن كانت نظرة العاملين في المركز للقائمين عليه نظرة تقدير واحترام، أخذت تهتز لشدة زلزلات الفساد.

رحتُ أحاول جبر الصدوع التي نالت من نفوس العاملين، بالدعوة إلى أن نبني في مجال عملنا معرفةً أخلاقيةً ومنظومةً سلوكية تليق بالعلم وبالعاملين فيه، قد تكون أثمن ما نقدمه للبلاد وللعلم.

ودعوت إلى صرف النظر عن الذين حادوا عن الطريق السويّ، وإلى التمسك بمثلنا العليا في سلوكنا ليكون عبرة لهم. لكن هذه الدعوة للانكفاء على أنفسنا نجحت في حدود.

كنتُ أعرف هؤلاء الفاسدين، وأعتقد أنهم كانوا يعرفون أنني أراقبهم، وكان قليلٌ منهم في مواقعَ مهمة في المركز، أما الأقل شأنًا منهم فقد أُخرجوا من المركز تدريجيًّا، ولم نعيِّن في المواقع الرئيسية إلَّا مَن يمكن الاعتماد عليه مسلكًا وعلمًا وإدارة. وهم في ذلك كله على درجات، منهم من يستوحي من سلوك المدير نهجًا سليمًا، ومنهم من حَسُن سلوكه واستقام عمله، ومنهم من هو بين بين، فالناس تقودهم قلَّةٌ إلى الخير والإعمار، كما تقودهم قلَّةٌ إلى الفساد والدمار.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في الوطن العربي

عرض علي الدكتور محي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منصب المدير العام المساعد للعلوم، فقبلته ووعدته بالعمل للحصول على موافقة الرئيس. وكان ياسر عرفات قد اشترط تعيين فلسطيني في هذا المنصب إلا إذا كان المرشح واثق شهيد.

رفض الرئيس العرض، وعُين في المنصب من الفلسطينيين الزميل الدكتور أحمد حاج سعيد. بعد سنة عرض عليّ الدكتور صابر، وكنت في تونس، رئاسة لجنةٍ تؤلفها المنظمة لوضع إستراتيجية لتطوير العلوم والتكنولوجيا في الوطن العربي.

مقرّ اللجنة في دمشق، مقر عملي مديرًا عامًا لمركز البحوث، تموِّلها المنظمة كل سنتين حسب نظام تمويل المنظمة وفق تكاليف برامج اللجنة، ولرئيس اللجنة اتخاذ القرار الذي يرى فيه ضمان نجاح اللجنة في مهمتها، وهو آمر الصرف. ولي أن أدعو اللجنة للانعقاد خارج دمشق، وقد عقدت فعلًا بعض اجتماعاتها خارج دمشق في مدنٍ أخرى من الوطن العربي.

كان أول عملٍ لي في الإستراتيجية في دمشق تخصيص اللجنة بأمانةٍ مستقلةٍ عن المركز، وانتقاء العاملين فيها من بين المعروفين بالخبرة والجلد، ولم أجد أكثر ضمانًا لنجاح أمانة اللجنة من تكليف وحدة السياسات العلمية في المركز بها، فهي الأقرب اختصاصًا.

قمنا بنقل وحدة السياسات العلمية بعيدًا عن المركز لتكون أكثر استقرارًا وهدوءًا. كان المسؤول عن الأمانة الدكتور عمر البزري وهو مدير بحوث في الكيمياء، وخير من طبق المنهجية العلمية في المركز فتنقل بين الكيمياء والتخطيط والإدارة والسياسيات العلمية بنجاحٍ مرموقٍ، يؤازره فيها الدكتور أديب كوكو والدكتور

باسيل خوري وغيرهما. وقد تولوا جميعهم التنسيق في أكثر من برنامج من برامج الإستراتيجية، وشاركوا في دراساتها. وكانوا يقومون باستكمال كثير من الدراسات التي يرى مدير البرنامج ضرورة استكمالها أو تعديلها، حتى إن الدكتور البزري لُقِّب بالبلدوزر، لشدة جَلَدِه وقيامه بجميع الأعمال التي تطلب منه أو من الأمانة.

اقترحتُ على اللجنة تكليف باحثين عرب القيام بالدراسات التي يحتاج إليها المشروع، واقترحت أسماء باحثين من المركز مساندةً للباحثين العرب المقترحين، انتُقوا من مديري المعاهد ورؤساء الأقسام الذين يجب أن يكتسبوا خبرةً في الإستراتيجيات، فكلِّف بعضهم الكتابة في مستقبليات اختصاصهم عالميًّا ومشاهد لها في وطننا العربي.

وتعاونت أمانة اللجنة مع مديري البرامج ومنسِّقيها في وضع قائمةٍ بالكتّاب العرب وتخصصاتهم، في البلاد العربية وفي المهجر، وكان منهم قلّة في أوربا وبعضهم في أمريكا. لم تُدخل اللجنة تعديلات على مقترحات الأمانة، ولكنها أوصت بتكليف بعض الباحثين.

في منتصف ربيع عام ١٩٨٦ ورَدَت معظم الدراسات، ونوقشت في الأمانة مع مديري البرامج والمنسقين، واستُكمل النقص في بعضها، وأجريت التعديلات، واستُعين بالدراسات البديلة لَـمّا تأخر وصوله منها، وأعدَّت الأمانة لندوةٍ تناقش فيها الحصيلة، وتطرح التوجيهات في الإستراتيجية أو خطوطها الكبرى مع جميع الذين ساهموا في الكتابة أو في التقييم، كما دعي للمشاركة في الندوة بعض رجال الفكر والعلماء، كالعالم الباكستاني عبد السلام. وأقيمت الندوة في منتصف الربيع لمدة أسبوع في فندق ميريديان دمشق.

اختلط على بعض الباحثين التفريق بين مفهوم السياسة والسياسات (أي مجموعة الإجراءات التي تتخذ وتتبع لتحقيق أهدافٍ معنية)، لكن المناقشات أزالت اللبس في بعض الآراء، كما أزالت بعض العقبات في مرحلية الإستراتيجية.

كم كان سروري كبيرًا عندما شاهدت هذا العدد الكبير من الباحثين، بعضهم في قمة عطائه كنادر فرجاني وجورج قرم وعاطف قبرصي وعصام الدين جلال وعصام الزعيم... وبعضهم سيلحق قريبًا بهذه الفئة كبشارة خضر وعبد القادر جفلاط وعمر البزري... بعضهم يناقش بالإنكليزية كعبد السلام ولورا نادر، وبعضهم بالفرنسية كبشارة خضر، وجميعهم شغلتهم الإستراتيجية. ووزّعتهم الأمانة على غرفٍ في الفندق للنقاش، عدة غرف لكل برنامج.

خلايا نحلٍ في أوج نشاطها حتى في أوقات الطعام، إذ يختلط الباحثون من البرامج المختلفة فيشتدّ النقاش بما يجدّ لديهم من المعلومات الجديدة حول الإستراتيجية، إنها صورة جميلة للعمل الجاد وما انتهى إليه من نتائج مرضية.

استمر عمل اللجنة خمسة أعوام، عرضتُ في نهايتها خلاصة الإستراتيجية في مؤتمر المنظمة أمام وزراء التربية العرب، أعضاء المجلس التنفيذي للمنظمة.

هنأني المجلس على نجاح اللجنة ونجاحي في قيادتها، وطلب إرسال نسخ لوزارات التربية العربية لتوزعها على الجهات المعنيّة لترسل ملاحظاتها إلى الأمانة فتنظر فيها وتأخذ فيما تراه قبل طباعتها وتوزيعها.

طُبع من الإستراتيجية متنها بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية في عام ١٩٨٩، وامتد عمل الأمانة عامًا بعد طباعة المتن في تجميع الدراسات التي قدمت إضافة إلى الملاحظات العربية على هذه الإستراتيجية وتقارير البرامج الثمينة، ومنها الدراسات التي قدمتها وحدة بحوث السياسات العلمية في المركز، تلك الوحدة التي قامت بدور مكتب اللجنة بنجاح كبير. وقد نشر في الصفحات الأخيرة من المتن عناوين الدراسات وأسماء الخبراء الذين وضعوها وهي زهاء مئة دراسة.

أُعدِّت هذه الدراسات بعد تجميعها للنشر، ولكن لم يتيسّر لنا نشرها ويا للأسف.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ذكريات

بعد المؤتمر الأول للوزراء العرب والمسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي تابعت المنظمةُ العربية للتربية والثقافة والعلوم نتائج المؤتمر، فدعت مجموعةً من المسؤولين عن شؤون البحث العلمي في الدول العربية كنت منهم، اجتمعت في مقرّ الجامعة العربية في القاهرة في صيف ١٩٧٦. كان معنا الدكتور ناجي عبد القادر من العراق رئيس مؤسسة البحث العلمي فيه، والدكتور علي الطيب الأزرق من ليبيا، وانضم إلينا الدكتور أسامة الخولي من مصر.

كان موضوع اجتماعاتنا مناقشة الدراسة التي أعدها الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص والدكتور أسامة الخولي لإنشاء مؤسسة عربية للبحث العلمي، وصندوقٍ عربي لدعم البحوث العلمية والتكنولوجيا.

كان أهم ما حظيتُ به في تلك الاجتماعات هو لقاء الدكتور أسامة الخولي، لقد كان للقاءاتنا في تلك الاجتماعات وما بينها أطيب الأثر في نفسينا، كانت سببًا في بناء صداقة قويةٍ أكثر من ربع قرن طوال حياته بعد ذلك اللقاء.

أجمعتْ آراءُ المشاركين في الاجتماعات على ضرورة مقابلة الأمين العام للجامعة لعرض شكوانا من إهمال الجامعة تنفيذ قرارات الملوك والرؤساء في مؤتمرات القمة فيما يخص العلم والبحث العلمي.

نجحنا أخيرًا في لقاء الأمين العام محمود رياض. قابلناه فإذا هو رجل مريض لا يكاد يقدر على النطق فيستعين بمدير مكتبه، فخاب أملنا وأيقنّا أن الجامعة كأمينها.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

كان صيف ١٩٨٤ موعد عودة المجموعة الأولى من طلابنا الذين دخلوا مدارس الهندسة الفرنسية الكبرى بالمسابقة، وكانت تضم هذه المجموعة ثلاثة طلاب، هم سمير البدين ونشأة سعد وإياد عازار، نجحوا جميعًا في مدارسهم، إلاّ أن الوحيد الذي عاد منهم إلى المركز كان إياد عازار. أما سمير البدين فقد تزوج فرنسية، وبقي في فرنسا ولم يعد، وأما نشأة سعد فقد صدمته سيارة في باريس وأعادته السلطات الفرنسية مشلولًا لا يتكلم ولا يكاد يتحرك.

كانت الحصيلة مخيفة، فسارعت للقاء السفير الفرنسي السيد غرونييه لأقول له "يجب إعادة سمير البدين وفق اتفاقنا معكم، كما يجب أن تتحمل الجهات الفرنسية مسؤولية ما أصاب نشأة سعد، وأن توافينا بنتائج التحقيق في الحادث الذي أصابه".

تقبّل السفير الفرنسي لهجتي العاتبة واهتم بالموضوع وعجّل بسفره إلى باريس، ولما عاد منها بعد زهاء شهر، اتصل بي ليعلمني نتائج محاولاته، فقال: ليس بوسع وزارة الخارجية الفرنسية تطبيق الاتفاق إلّا ضمن الوزارة، وإن السيد البدين سيحصل حتمًا على الجنسية الفرنسية خلال ستة أشهر لأنه زوج فرنسية وسيتمتع أيضًا بحماية الجهات التي يعمل فيها وحماية النقابات. أما نشأة سعد فأنصح بتوكيل محام لمتابعة قضيته. لقد كان حديثه يصوّر اهتمامه الشديد بالموضوع، وكان يرتسم على وجهه مدى تأثره لإخفاق مساعيه.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

كانت علاقاتنا مع مدارس الهندسة الكبرى في فرنسا متينةً وقويةً يسودها الاحترام والاعتراف بمكانة المركز العلمية وبعد مراميه. وكانت تجمعات المدارس تسعى لاجتذاب المركز ومعهده العالي، فأبرمنا اتفاقيات مع عدة مجموعاتٍ منها، وكان من أهمها اتفاقنا مع مجموعة بوليتكنيك غرونوبل.

جاء رئيسها مع وفدٍ من مختلف مدارسها ووقعنا اتفاقًا طويل الأمد، ثم دعاني رئيس البوليتكنيك لزيارتهم في غرونوبل فلبيت الدعوة في صيف عام ١٩٨٥ يرافقني بعض الزملاء. وكان في برنامج الدعوة، التي امتدت على عدة أيام، غداءٌ في منتجعٍ جميلٍ في أطراف المدينة على سفوح الجبال المحيطة بها، ونسمات ربيعٍ تحبّب صيفَها إلى النفوس وتشيع فيها البهجة والسرور.

شملت الدعوة عددًا كبيرًا من الشخصيات العلمية توزعت على عدة حلقات متقاربة متداخلة. انتبهت فجأة على الحديث في حلقة ورائي إذ سمعت كلمة "الأسد"، كان الحديث عن سورية ورئيسها حافظ الأسد، سمعتهم يتناولون فيما بينهم مكانة حافظ الأسد دوليًّا، وطرق أذنيّ قولهم إنه من الشخصيات الخمسين في العالم أو من الشخصيات الهامة عالميًّا في الخمسين سنة التي تلت الحرب العالمية...

كلام من هذا القبيل لم أتبينه بدقة لأنه فاجأني ولم يكن بوسعي متابعته جيدًا لانشغالي بالحديث مع المدير المضيف ومن معه. سرّني أن تكون سورية حديث هذه الصفوة وأن يكون رئيسها بهذه المكانة في نفوسهم.

وفي أول لقاءٍ لي بالرئيس بعد عودتي ذكرت له ما سمعت، وقلت له: "ما كنت أظنّ أنك بلغت هذه المكانة في العالم يا سيادة الرئيس". بعد أن قلت ما قلت شعرت أنه كان عليّ أن أقوله بأسلوب آخر، أما هو فقد سرّ بالحديث ولم يعلّق عليه.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

كثر حديث الناس عن زميل أساء الأمانة، وأن الإساءة كانت واضحة في بعض ما اشترى للمركز، وثبت لي صحّة ما تتداوله الألسنة. وكانت الإساءة كبيرة الأهمية، إذ لم تكن خافية على أحد على رغم قلة قيمتها المادية، فأزحت مرتكبها عمّا أسند إليه من مهام مالية، وهو ذو شأنٍ في المركز، وأعفيت مهندسًا ومسؤولًا ماليًّا، كانا على صلةٍ به

في مشروعاتٍ أخرى. وقلت في نفسي أترك الإجراءات الأخرى إلى ما بعد إعلام الرئيس بالموضوع ملطِّفًا، تحاشيًا للفضيحة إذا ما أمر بتوقيفه أو طرده.

فلمّا كان يوم اللقاء، ذكرت للرئيس الموضوع وأشرت إلى تفاهة المبلغ، مما يبعد ظنّ السوء بالشخص. وكان الرئيس قد نهض لانتهاء الاجتماع وأخذ يبتعد تدريجيًّا كأنه لا يريد أن يسمع المزيد، فلديه من هموم الدولة ما يكفي، وكأنه يقول لي: قم بمعالجة مشكلاتك بنفسك فلدي من مشكلات الحكم ما هو أهم.

خرجت من اللقاء مصمِّمًا على معالجة المشكلات التي ترسم للفساد طريقًا في المركز، وقررت إحداث جهازٍ لمكافحته يرأسه شخص موثوق. كان هذا الشخص الموثوق أخي الأصغر كمال، المعروف بيننا وبين معارفه وأصدقائه بشدة تزمّته، وسجلُّه الوظيفي يشهد له بذلك، فرفعت مذكّرةً باقتراح تسمية أخي كمال رئيسًا للجهاز، ووثَّقت الاقتراح، فوافق الجميع عليه.

قلت في نفسي، لعلّي أعيد كمال إلى دمشق فعمله في "رودكو" لا يعجبني، وهو أهل لعمل أهمّ وأكبر، عندئذٍ بلّغت أخي كمال. ردّ كمال فورًا "لا، لا يمكن أن أقبله، إذ لا يجوز لأخوَيْن تولي هذين المنصبين في مؤسسة، إدارتها ورقابتها الداخلية والمالية ضمنًا. هذا ما لا تجيزه القوانين ولا الحسّ السليم بالمسؤولية وأنا شخصيًّا لا أجيزه وأربأ بنفسي وبك عن قبوله".

ما كان عليّ القيام بجميع هذه الإجراءات قبل إطلاعه على الغاية، لعلمي بشدة تزمّته. إن حرصي على النزاهة، بل على التزمّت فيها، وعلمي بعدم جواز إسناد هذا العمل إلى أخي، هما اللذان دفعاني إلى رفع مذكرةٍ بالموضوع ليكون قرار إسناد العمل إلى أخي قد اتخذ من أرفع سلطةٍ في البلاد.

عدت بعد رفض كمال إلى وزير المالية لعله يسعفني بأحد المديرين في الرقابة المالية، فقدم لي مواصفات العاملين لديه في الجهاز واجتمعت بهم، فوقع الخيار على مريم كرد

مستو، وصدر قرار نقلها إلى المركز فقامت بعملها فيه على أحسن وجه، تنظيمًا ودقةً واستقامةً وجرأةً وحزمًا. بعد أن أنهت تنظيم مكتبها جاءت تطلعني على خطة عملها التي كان أهم ما فيها أنها ستفاجئ بالتفتيش المسؤولين في المركز. فإن كنت سأعترض على هذه الخطوة فلنناقش أسباب الاعتراض، فطمأنتها أن ليس لي أي اعتراض على هذه الخطة كلها، وسألتها إعلامي فقط إذا ما توجهت إلى أحد مديري المعاهد.

شرعت مريم كرد مستو في تطبيق خطتها دون أن تثير ضجّة. كنت بوجودها على رأس الجهاز مطمئنًّا، فقد كشفت أخطاء فحالت دون وقوع غيرها وتوفيت رحمها الله، بعد أن تركتُ المركز بمدة قصيرة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

هتف لي صباح يوم رأس السنة الهجرية العماد مصطفى طلاس قائلًا إن الرئيس يريد أن يراك ظهر اليوم في داره، فرافقته في الموعد المضروب إلى دار الرئيس موزّع الفكر حول ما يريده من هذا الاجتماع المفاجئ في يوم راحته، لا بد أن الأمر هام.

ثم أعود في حساباتي فيستقر بي الفكر على المركز، لعله يريد التفرغ لشؤونه بعيدًا عن مشكلات الدولة اليومية منها والدائمة، ثم يطرأ في الذهن ما يبعد هذا الاحتمال. أقلب صفحات الفكر بسرعة وتمرّ فيه مختلف الاحتمالات دون جدوى، ثم يستقبلنا الرئيس في بيته ضيوفًا.

لا أذكر كيف بدأ الحديث الذي أفضى بنا إلى حارم ودارة عزة. قلت إنني أرى أن حارم اليوم لم تتقدم على حارم الأمس التي أعرفها منذ نصف قرنٍ مضى... يقال إن المسؤولين الجدد ليسوا خيرًا من السابقين أو من بعضهم على الأقل، لقد حلّ أغوات محل أغوات.

آزرني العماد مصطفى طلاس في وجهة النظر هذه، وانتقلنا إلى الحديث عن دارة

عزة، وموقعها منذ القديم كثغرٍ من ثغور الإسلام والعروبة، المهملة المنسيّة رغم اتساعها، وتمنيت أن يقوم الرئيس بزيارة المناطق المنسيّة من البلاد كدارة عزة وحارم...

استمر حديثنا حول البقاع المنسيّة من الوطن، والمنظمات الشعبية، وكان الرئيس يستمع غالبًا، وهو يحسن الاستماع.

ودَّعَنا الرئيس حتى باب الدار وما انقطع حديثه، ودَّعَنا بقسمات وجهه الدالة على إكرامه للضيف. لا يزال سبب استدعائي في ذلك اليوم خافيًا مجهولًا بعيدًا عن التفسير، وقد يكون الرئيس عدل أثناء اجتماعنا به عمّا كان يقصد إليه من ذلك الاجتماع.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

كلفني رئيس مجلس الوزراء الدكتور عبد الرؤوف الكسم مع وزيرين لوضع إستراتيجية تنمية للصناعة في سورية، كان ذلك في عام ١٩٨٧ . كنت أعلم أن وزارتي الوزيرين تشغلانهما عن المشاركة العلمية الجدية في الموضوع، وأخذت على عاتقي القيام به بالاعتماد على وحدة السياسات العلمية وعلى دعم الوزيرين في وزارتي الصناعة والتخطيط.

قررت السير في المشروع في خطين متكاملين، خط يعمل على وضع إستراتيجية لتنمية دور العلم والتقانة في التنمية السورية الشاملة، وخط آخر للعمل في مشروع رئيس مجلس الوزراء. وتكامل الخطين واضح، إذ لا يمكن أن يوفّى مشروع تنمية الصناعة في سورية حقّه إلا إذا توفرت له المعلومات اللازمة في المشروع الأول الأوسع والأشمل.

وكان العمل في المشروعين، مستوحى من إستراتيجية تطوير العلم والتقانة في الوطن العربي، الذي كان في مرحلة وضع اللمسات الأخيرة عليه، فرأيت الاستنارة بخبرةٍ دولية، حتى لا نبقى أسرى عملٍ قمت بإدارته وتوجيهه سابقًا.

توجهْنا إلى برنامج الأمم المتحدة للتنمية، الذي استجاب وأرسل إلينا الخبير السيد "جيمز ملين" الذي وضع تقريرًا في كانون الأول من عام ١٩٩١ عن عمله مع مجموعة من الباحثين في وحدة السياسات العلمية في المركز، وعلى الأخص منهم عمر البرزي وأديب كولو، جعل عنوانه "نحو إستراتيجية علوم وتقانة لسورية".

أما في مشروع تنمية الصناعة في سورية، فقد قامت لجنة من الدكتور كولو والدكتور باسيل خوري بدراسة الواقع التقاني في القطر السوري، وقدما تقريرهما في عام ١٩٩٠ بعد سلسلةٍ من الاجتماعات بالمسؤولين في وزارتي الصناعة والتخطيط جرت في عام ١٩٨٨.

اتسمت علاقة باحثي المركز بالعاملين في الوزارتين بالعسر والبطء على الرغم مما كان يدفعه المركز من تعويضاتٍ لهم، كما كانت المعلومات التي قدمها هؤلاء ضحلةً وغير موثوقة. ولا يمكن استمرار العمل على هذا النحو، وكنت سأرفع تقريرًا إلى رئيس مجلس الوزراء نقترح عليه فيه تعديل الأسلوب والطريقة بما يضمن قيامنا بالعمل على وجهٍ صحيح، إلا أن وزارة الكسم أقيلت وكلف المهندس محمود الزعبي الذي أهمل المشروع وأخرجه من دائرة اهتمامه، وهكذا توقف المشروع الذي كنّا نعُدّه مدخلًا لتقييم خبراتنا في السياسات والإستراتيجيات، وتطويرها في مشروعين كان سيعامل أحدهما من جهةٍ معاملة إستراتيجية فرعية للآخر، ومن جهةٍ أخرى سيتيح إنجاز الآخر محاولة تطبيق الإستراتيجية العربية وتطويرها بالتنسيق بين الإستراتيجية السورية لتطوير العلم والتقانة والإستراتيجية الفرعية لتنمية الصناعة السورية.

بينما كنّا في شغلٍ في مشروع تنمية الصناعة السورية طلبت منا المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تقديم ورقة عملٍ حول إستراتيجية عربية لاكتساب العلم والتقانة واستخدامها لأغراض التنمية.

كلَّفتُ وحدة السياسات العلمية بالموضوع وأنجز العمل في شباط ١٩٩١، وكنّا نأمل أن تتكامل الدراسة مع الإستراتيجية العربية لتطوير العلم والتقانة، ويختبر مجموعهما في مشروعنا السوري، إلا أن توقف هذا المشروع حدّ من طموحنا فتوقفنا عند ورقة العمل المطلوبة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

في النصف الثاني من الثمانينيات صعد المركز في عيون الأوربيين، فقد كنت أتلقى من كبريات المؤسسات العلمية الأوربية ما يشعر بذلك؛ فقد تلقيت من أكاديمية العلوم السويدية الدعوة إلى ترشيح من نراه أهلًا لجائزة نوبل.

في ليلة من ليالي صيف سنة تسعين زارني الدكتور إبراهيم حداد يرافقه الدكتور جبرائيل بشارة، الذي كان يعمل في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، يحمل ترشيحي لرئاسة المنظمة من مجموعة دول الاتحاد المغاربي، ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، فسررت لإجماع الدول المغاربية الرأي على ترشيحي ولموقف الزميلين، ولأنني إذا رشحتني سورية أضمن النجاح في الانتخابات، ففلسطين معي كما يشير الموقف السابق لياسر عرفات، وسورية ولبنان أيضًا، وعزمت على إثارة الموضوع لدى الرئيس وصحبه، وكالعادة بدأتُ بعرض الموضوع على صحبه، فلقيت صدًّا شديدًا لأن الرئيس كما يستدل من موقفه يوم رُشِّحت لوظيفة المدير العام المساعد للعلوم، سيمتعض إذا ما فتح من جديد موضوع ترشيحي لديه، فطويته وبلَّغت الصديق إبراهيم حداد. وهكذا دفن آخر أملٍ لي بالخروج من المركز.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

في تشرين من سنة ثلاثٍ وتسعين قدمت استقالتي في رسالةٍ إلى الرئيس بعد أن أيقنت أن استمراري في إدارة المركز سيجعلني أجابه بعض الأصدقاء الأعزّة

لاختلافٍ في الرأي، بل بمبادئ العمل، فآثرت التوجه باستقالتي إلى الرئيس في رسالةٍ مطوّلة، لا بد أنه شعر منها بوجود أسباب خفيّة. وقد تأخر قبولها لوفاة ابنه باسل في حادث سيرٍ أليم. تأخر قبولها حتى أوائل شهر تموز من عام أربعةٍ وتسعين.

وعندما سئلت إن كنت أرغب في مقابلة الرئيس اعتذرت بلباقة قائلًا إن الرئيس يعرف ما أتمناه فلا موجب لإشغال أوقاته. واعتذاري كان تحاشيًا لإحراجي في السؤال عن أسباب تقديم استقالتي.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

في مجمع اللغة العربية

في صبيحة يوم من أيام آب عام ١٩٨٥ اتصل بي الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع قائلًا: نريد نماذج من إنتاجك العلمي ومما تكتب لأننا رشحناك لعضوية المجمع، فاخترت له كتابَيَّ: الترموديناميك والفيزياء الإحصائية، وأرسلتهما إليه مع كلمةِ شكر.

وفي ٧/ ٩/ ١٩٨٥ انتخبني أعضاء المجمع عضوًا عاملًا في المجمع، وصدر بذلك المرسوم الجمهوري ذو الرقم / ٤٩٥/ بتاريخ ٢٧/ ١٢/ ١٩٨٨.

وأخذت أُعِدُّ نفسي لعضوية المجمع، واستمرارُ تطوير المركز يملأ عليّ وقتي كلَّه، فلم أتمكن من الإعداد إلا بعد تركي إدارة المركز في أوائل تموز ١٩٩٤. عندئذ اتصلت بالدكتور شاكر وقلت له: أنا على استعداد لحفل الاستقبال، فقال ستتحدث في الحفل عن شاعر دمشق شفيق جبري فانتابتني الحيرة، فأنا لا أعرف عنه إلَّا اليسير، فأخذت أجمع منتخبات من أشعاره ومما كُتب عنه لأستخلص منها ما أحدِّث به يومَ الحفل.

ثم اتصل بي الدكتور شاكر بعد عدة أسابيع قائلًا: ما رأيك في أن تحدِّثنا يوم الحفل عن وجيه السمان؟ فارتحت كثيرًا لأنني أعرف وجيه السمان وقد عملت معه في المجلس الأعلى للعلوم، فكتبت عنه لحفل الاستقبال صفحات. وكان الدكتور محمد عبد الرزاق قدورة هو الذي عرَّف بي في الحفل.

كان حفل الاستقبال في الساعة السادسة من مساء يوم الثلاثاء السادس من حزيران عام ١٩٩٥ في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد التي كانت تغصّ بالحضور. سُجِّل الحفل وصوَّره أيمن عزيز، صديق وابن صديق.

بعد حفل استقبالي بأيام خصّص لي الدكتور شاكر مكتبًا بالاشتراك مع الدكتور

عبد الوهّاب حومد، فسعدت بلقائه، وكنت أنتظر بشوقٍ ما كان يحدثني به كلما التقينا في المكتب عن ذكرياته السياسية وهي غَنية؛ إذ شغل وزارات عدّة: المعارف (التربية) والعدل والمالية والتخطيط، تولى بعضها أكثر من مرّة في عصور مختلفة قبل الوحدة مع مصر وإبّانها وبعدها.

كان عليّ أن أختار على الأقل ثلاث لجان من لجان المجمع أمارس فيها النشاط المجمعي، فكان من بين ما اخترت لجنة المصطلح برئاسة الدكتور عبد الحليم سويدان، فأعجبني فيه أنه ما زال كما كان في كلية العلوم مترفِّعًا عن الصغائر. وعدْت أحاول التعلم والاقتباس منه، إلا أنه عاجل اللجنة بكتابٍ وجهه إلى أعضائها يعتذر فيه عن قبول رئاسة اللجنة لبلوغه الخامسة والثمانين ولضعف سمعه، واقترح أن تُتِمَّ اللجنةُ الدورةَ برئاستي، فسكتُّ احترامًا له.

كان أول أعمالي في المجمع إعادة النظر في نظامه الداخليّ، وكان مجلس الوزراء قد أقر نظامًا داخليًّا نموذجيًّا لجميع مؤسسات الدولة ، فكلف المجمعُ لجنةً برئاستي وعضوية الأستاذ جورج صدقني لوضع هذا النظام ، وقد أنجز العمل في عام ١٩٩٨ وقام بالعبء الأكبر فيه الأستاذ جورج صدقني.

أما العمل الأساسي فكان تعديل قانون المجمع الذي صدر في أيام الوحدة. وقد نصّ القانون على منح أعضاء المجمع العاملين تعويضًا شهريًّا يحدده وزيرا التربية والمالية، ولكن هذا التعويض لم يحدَّد طوال أكثر من أربعين سنة، انتقلت خلالها علاقة المجمع من وزير التربية إلى وزير التعليم العالي، ولكن لم يتغيّر في الأمر شيء؛ إذ حَلَّ وزير التعليم العالي محل وزير التربية فقط. فرأيت أن نضمِّن القانون تعديلًا ينصُّ على التعويض الشهري، وننهي بذلك مشكلة الوزيرين: وزير التعليم العالي ووزير المالية، وضمَّنَّا تعديل القانون ذِكر التعويض الشهري لأعضاء المجمع، الذين زِيدَ عددهم

خمسة أعضاء في القانون المعدَّل، وأحْدثنا هيئةً فنّية للمجمع. هذه هي التعديلات الأساسية للقانون. وقد مرّ مشروع التعديل سريعًا من رئاسة مجلس الوزراء إلى لجنة التربية، كما مرّ سريعًا من لجنة التربية إلى مجلس الوزراء ومنه إلى رئيس الجمهورية وصدر عن رئيس الجمهورية في ٦/ ٦/ ٢٠٠١.

كان علينا وضع اللائحة الداخلية للمجمع في مدة وجيزة كما نصّ القانون، فوضعتْها لجنةٌ مؤلفة برئاستي وعضوية كل من الدكتور عبد الحليم سويدان والأستاذ جورج صدقني.

ثم كانت المفاجأة بوفاة أمين المجمع الدكتور عدنان الخطيب في أواخر سنة ١٩٩٥. جاءني الدكتور شاكر الفحام ومعه أستاذاي الدكتور عبد الحليم سويدان والدكتور عادل العوَا وقالوا لي: نرغب في أن تكون أمينًا للمجمع، وفي ذلك خلاص للمجمع من ترشيح بعض الأعضاء إلى هذا المنصب، فقبلت على مضض إذ كنت قد قرّرت عدم القيام بعمل علمي إداري كأمانة المجمع.

في صيف عام (١٩٩٩) قضيت بعض الوقت عند ابني زياد في استشفاء أمه في مستشفى قريب من سكنه في ضاحية تالانس، وهي ضاحية كبيرة وجميلة لمدينة بوردو، كنت أقضي بعض الوقت بين سكن ابني والمستشفى وأمتِّع النظر والنفس بجمال طبيعة الضاحية ونظافتها، أكتشف في كل مرة جمالًا جديدًا، غابات وارفة الظلال وشوارع خضراء وأرصفة نظيفة حمراء وصفراء، ومحطات يدعو الهدوء الذي يغمرها النفسَ إلى تأمُّل جمال الكون، ومحطات مختلفة جميلة في زوايا ملتقى الشوارع بين الأشجار تدعو المارة أيضًا لقضاء بعض الوقت فيها واحتساء فنجان قهوة بين ما تحتوي من الكتب والمجلات.

وفي العودة إلى البيت بعد زيارة زوجتي في المستشفى كنت أقضي وقتًا أطول في

تلك الطرقات والشوارع، واكتشفت مرة مكتبة كبيرة تختصّ ببيع الكتب والجرائد والمجلات المستعملة فوقعت فيها على قاموس لاروس في خمسة مجلدات الذي ينقصني منه المجلد الأوّل فاشتريته منها. ورحت أبحث بين الجرائد القديمة على صورتنا مع أمي التي التقطها لنا فرنسيّ كان يشرف على إصلاح طريق أنطاكية حلب بالقرب من باب الهوى، صورة أطمح للحصول عليها.

بعد اكتشافي هذه المكتبة صرت أقضي وقتًا أطول فيها واشتري منها كتابًا أو مجلة، لكنني لم أحصل على صورتنا مع أمي التي مضى عليها أكثر من خمسين عامًا.

تلقّيت في يوم من أيامي التي قضيتها في تالانس هاتفًا من دمشق علمت منه أن الواجهة الغربية لمدرسة العادلية قد انهارت فجأة، وكانت هذه الواجهة مخصَّصة للجمعية السورية للمعلوماتية، فحمدت الله أن لم يكن أحد من الجمعية يشغل الواجهة وقت انهيارها، وقد ارتطم سقفها المنهار بالكتب الموجودة في الخزائن.

أسرعت بالعودة إلى دمشق لتلافي المزيد من الخسائر، وقطعت زوجتي برنامج معالجتها. وفي صباح اليوم التالي لوصولي إلى دمشق توجهت إلى مدرسة العادلية لأرى حجم الخسائر وموقع الانهيار، وصحبت المهندس معي، فتبين لي أن العادلية بحاجة ماسّة إلى ترميمٍ كامل، وأن الواجهة الشمالية هي الأخرى ليست بمنأى عن مصير الواجهة الغربية، ووضعنا برنامجًا شاملًا لصيانة العادلية وترميمها وأوقفنا جميع الأعمال التي تتطلب تمويلًا، وحوّلنا المال إلى الترميم لتلافي المزيد من انهيار الواجهة الغربية.

وبعد أيام قليلة شرعنا في إعداد ميزانية المجمع للعام القادم، ولمسنا الحاجة إلى تمويل خاصّ لترميم العادلية فقدّرنا ما نحتاج إليه في سنتين واقتطعنا منه ما نحتاج إليه في العام القادم، وبذلك نخفِّف العبء الظاهري على الدولة، وحظينا بالموافقة.

كان الضيق المكاني الذي يشكو منه المجمع هو ما دفعني لإنشاء ملحقٍ بالبناء

الرئيسي بمنطقة المالكي ليكون مَرْأبًا لسيارات المجمع، كما اشترطت محافظة دمشق. اقتطعنا منه أربع غرفٍ لأعضاء الهيئة الفنيّة، إلَّا أن أعضاء المجمع ازدادوا في القانون الجديد، ولم نجد حلًّا يليق بالمجمع غير نقل بعض الفعاليات - كالتحقيق - إلى العادلية. لذلك كان هاجسي زيادة استيعاب المجمع في مشروع ترميم العادلية، إلا أننا لم نعثر فيها إلَّا على غرفة مظلمة شديدة الرطوبة كانت مخصصة «للتوالف» مما أتلفه الاستعمال في المجمع، وكانت أيضًا مأوى الأفاعي كما يدعي بعض العاملين في العادلية. وهكذا لم نحصل من مشروع ترميم العادلية على زيادة في استيعاب المجمع.

دام ترميم العادلية ثلاث سنوات، وقبل أن ننهي ترميمها قال المهندس المختص الذي استعنا به في الجزء الأخير من الترميم والذي وافقت عليه مديرية الآثار: إن الظاهرية بحاجة ماسةٍ إلى الترميم. فخصَّصنا المتبقي من المال للترميم الضروريّ حسب تقدير المهندس. إلا أنّنا فتحنا بابًا جديدًا للترميم لم يكن في حسباننا، وتأكَّد لنا أن الظاهرية لا تستوعب ما أُعِدَّت له من كتب مختلفة ومجلات متعددة لا تزال تَرِدها من جهات أجنبية، فكتبنا إلى رئيس مجلس الوزراء عن حاجة الظاهرية إلى التوسّع باعتبارها أقدم مكتبة عامة للدولة، وهي الوحيدة التي ما زالت تتلقى العون الثقافيّ والمعرفيّ من المؤسسات الدولية.

استجابت رئاسة مجلس الوزراء وخصَّصتنا بالأجزاء (٤-٦-٢٩) من العقار (١٠٠) من المنطقة العقارية (عمارة جوّانية)، إلا أن شكل الظاهرية سيبقى مشوّهًا، لأن هذه الأجزاء لا تقع على استقامة واحدة. واقترح المهندس المختص أن نطالب باستكمال العقار (١٠٠) المخصص لأمانة العاصمة، فطلبنا من المهندس وضع مخطط للاستفادة من هذا العقار المعروف ببيت القوتلي. إلا أن جميع المخططات التي وضعها لم تكن لائقةً باتساع بيت القوتلي وضخامة المبلغ الذي سيخصص لاستملاكه.

ثم جاءنا عون من جمهورية كازاخستان التي أعلمتنا أن الملك الظاهر بيبرس والعالِم الفارابيّ هما مواطنان كازاخستانيان، حَلَّا في بلاد الشام ودُفنا في دمشق وكان لهما فضل كبير فيها؛ فقد رَدّ الملكُ الظاهر هجمات المعتدين على الشام ومصر، وأما الفارابيّ فقد ترك فيها آثارًا علمية فاستحقا من كازاخستان التكريم، لذلك خصصت كازاخستان معونة لسوريّة (ولمصر) لترميم الظاهرية وإنشاء مقام ومركز ثقافيّ في دمشق إحياء لذكرى الفارابيّ، فأصبح لنا جهة أخرى لتمويل ترميم الظاهرية، مما يخفف عبء الترميم على المجمع. ووضعت كازاخستان بعثة لدينا لمراقبة الترميم وإعداد قائمة بما ينفق عليه، إلا أن الترميم استهلك وقتًا لم يكن في الحسبان إذ امتدّ على ثلاث سنوات أخرى. وفي نهاية الترميم أَعلمت البعثةُ الدولةَ الكازاخستانيّة بانتهائه ونجاحه، فحدَّدت الجهاتُ المعنية في وزارتَي الخارجية في الدولتين موعدَ زيارة الرئيس الكازاخستانيّ لسوريّة وبرنامج الزيارة، وكنت في استقبال الرئيسين السوري والكازاخستاني في الظاهرية، وصحبتُهما إلى قبر الفارابي الذي سيكون حوله المركز الثقافيّ للفارابيّ.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

✽ ✽ ✽ ✽ ✽

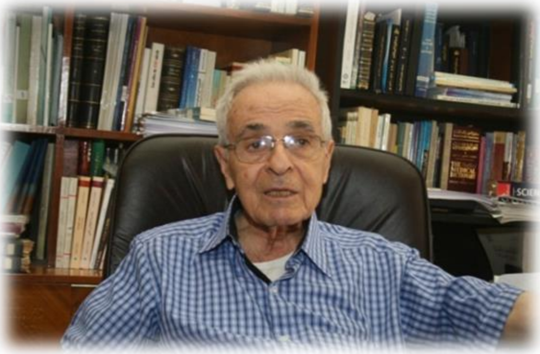

الأستاذ الدكتور عبد اللّه واثق شهيد
في مراحل عمرية مختلفة

في حفل استقبال الدكتور عبد الله واثق شهيد عضواً في مجمع اللغة العربية

الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع يقلد الدكتور عبد الله واثق شهيد شعار المجمع

مع أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق

عبد الله واثق شهيد، مختار هاشم، بديع الكسم، إحسان النص، راتب النفاخ
عبد الرزاق قدورة، وجيه السمان، عدنان الخطيب، شاكر الفحام، عبد الحليم سويدان

مع الأصدقاء

عدنان الرفاعي، صلاح الأحمد ، عبد الله واثق شهيد، عبد الرزاق قدورة

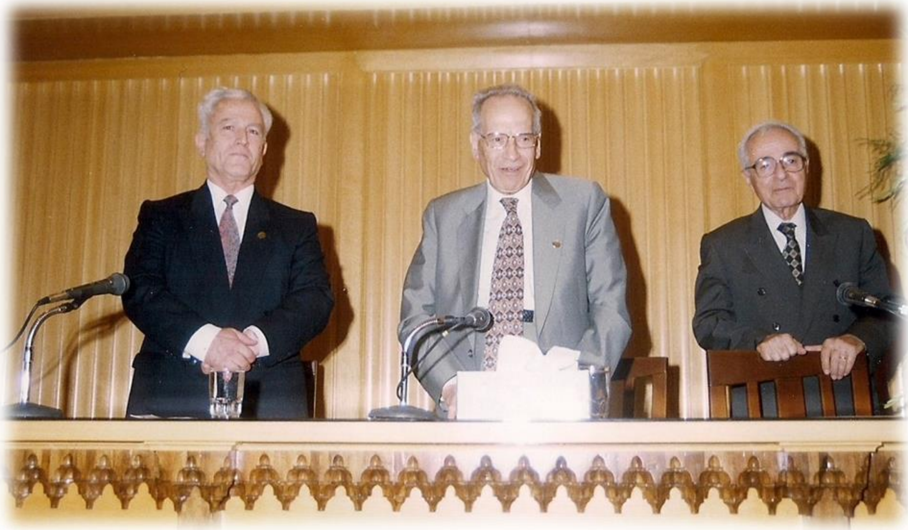

في حفل استقبال الدكتور مكي الحسني عضواً في مجمع اللغة العربية

عبد الله واثق شهيد، شاكر الفحام، مكي الحسني